

ريم عبد الغني



في ظلال بلقيس

ريم عبدالغني

في ظلال بلقيس



إلى من زرع اليمن في قلبي...
فأيْنعتْ في ظلّه عشقاً وبلقيساً وكلمات...

الطبعة الثالثة
٢٠١٢م / ١٤٣٣هـ

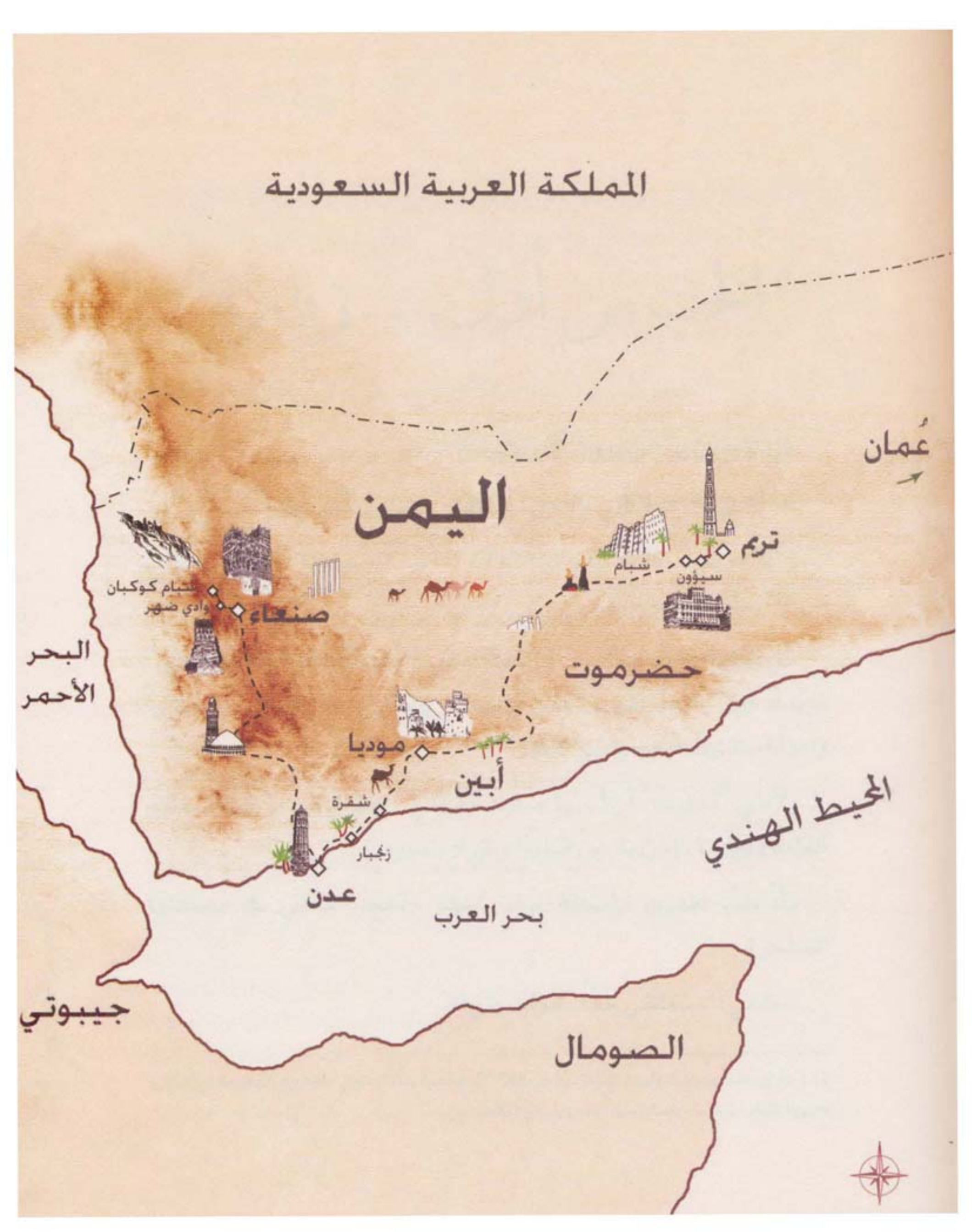
التأليف والإخراج
المهندسة المعمارية ريم عبد الغني

سورية، دمشق ص. ب ٣٦٦٦٦
فاكس: ٦٦٢٧١٧٥ - ٣٩٢١٤٤٥ ١١ (٠٠٩٦٣)
Email : tarim.damascus@gmail .com

رسوم الفنان الفرنسي José Mari Bel

وزارة الثقافة اليمنية
رقم الإيداع: ١٨٩ / ٢٠١٢ دار الكتب صنعاء
الترقيم الدولي: ISBN 978 - 614 - 414 - 644 - 6

المحتويات


المملكة العربية السعودية
اليمن
عُمان
تريم
شبام
سيؤون
صنعاء
شبام كوكبان
وادي ضهر
البحر الأحمر
حضرموت
موديا
أبين
شقرة
زنجبار
عدن
بحر العرب
المحيط الهندي
جيبوتي
الصومال

"الحب من أوّل.. زيارة"

هل تؤمنون بـ"الحب من أوّل نظرة"؟...

أنا أؤمن به، فعلاقتي باليمن... كانت "حبّاً من أوّل زيارة"...

و"أوّل زيارة" كانتْ عام ١٩٩٧م/١٤١٨هـ[1]، سبقتْها -فعليّاً- سنوات من الاستكشاف عن بعد...

من يومها غزتْ حياتي.. اختلطتْ بدمي.. أسبغتْ لونها على كتاباتي.. تربّعتْ فوق اهتماماتي.. لتغدو هاجساً.. يتجاوز صلة القُربى.. اختياراً واعياً استفتيتُ فيه حواسّي كافة.

ولأنني "اخترتُ" أن أحبّها صارتْ قضيّتي... وفرق بين ما نتبنّاه بحكم العادة وبين ما نؤمن به عن قناعةٍ وبقرارٍ مدروس.

وأذْعنتُ لقدري منساقة وراء شغف جامح.. قادني في مجاهلها الساحرة.

شغلتني... شغلتني حقّاً سنوات طويلة.

---

(١) تمّ إرداف جميع التواريخ المِيلاديّة في هذا الكتاب بما يعادلها من التواريخ الهجريّة وبالعكس، وعلى اعتبار منتصف السنة مبدأً للتحويل في الاتجاهين.

حتّى متى ستبقى مستحوذة عليّ؟!... لستُ أدري.. ما أعرفه أنها تحتلّني ذلك الاحتلال المحبب الذي لا يريد سجينه انعتاقاً منه.

يقولون "صنعاء حوتْ كلّ فن".. والحق أن اليمن[٢] عالم عجيب الغنى.. تشكّل فوق أرض بالغة العراقة.. توارث سكّانها الأصالة والبساطة.

عالمه الشاسع يمتدّ على مساحة أكثر من نصف مليون كيلو متر مربع، يعيش فوقها أكثر من ٢٣ مليون إنسان[٣]، تنوعٌ[٤] بكلّ ما في الكلمةِ من

---

(٢) الجمهوريّة اليمنيّة دولة عربيّة تقع جنوب شبه الجزيرة العربيّة، تطلّ على بحر العرب جنوباً وغرباً على البحر الأحمر وتشرف على مضيق باب المندب.

(٣) تُقسم الجمهوريّة اليمنيّة إدارياً في إطار نظام السلطة المحليّة إلى (٢١) محافظة، يربو عدد سكانها على ٢٣ مليون نسمة، يتركّز معظمهم في إقليم المرتفعات الجبليّة.

(٤) كتَنوّع مظاهرِ السطح الجغرافيّ في اليمن، وفيها خمسةُ أقاليم جغرافيّة رئيسيّة هي:
- إقليمُ السَهلِ الساحلي: ويشتمل على السهول (كسهل تهامة - سهل تبن- أبين- سهل ميفعة أحور - سهل المهرة). ويتميّزُ بمناخ حارٍ طولِ السنة مع أمطار قليلة.
-إقليم المرتفعاتُ الجبليّة: وتُعدُّ جبالُه الأكثرَ ارتفاعاً في شبه الجزيرة العربيّة، وتصلِ أعلى قمّة فيها إلى ٣٦٦٦م في جبل النبيِ شُعيب عليه السلام التي تكتسي أحياناً بالثلوج، ويقع خطّ تقسيم المياه في هذه الجبال حيث تنحدر المياه عَبَر عددٍ من الوديان شرقاً وغرباً وجنوباً. ومن أهمّها: وادي مور وحرض وزبيد وسهام ووادي رسيان وتصب جميعها في البحر الأحمر. أما الوديان التي تصب في خليج عدن والبحر العربي فأهمّها: وادي تبن ووادي بناء ووادي حضرموت.
-إقليم الأحواض الجبليّة: يَتمثّل في الأحواضِ والسهولِ الجبليّة الموجودة في المرتفعات الجبليّة وأغلبُها يقع في القسم الشرقي من خطّ تقسيمِ المياه الممتدِ من أقصى الشمالِ إلى أقصى الجنوبِ. وأهمّها: قاع يريم وذَمار ومعبَر وحوض صنعاءَ وعمران وصعدة.
-إقليمُ المناطق الهَضَبيّة: يقع إلى الشرق والشمال من إقليم المرتفعات الجبليّة وموازية لها، ويتشكّل معظم سطح هذا الإقليم من سطح صخريّ صحراويّ تمرّ فيه بعضُ الأودية وخاصة وادي حضرموت ووادي حريب، وتنقسم المنطقة الهَضبيّة إلى قسمين الهَضَبةُ الغربيّة وَهضبة حَضرمَوْت التي يخترقها وادي حضرموت.
-إقليم الصحراء: وهو إقليمٌ رمليٌّ يكاد يخلو من الغطاء النباتي باستثناء مناطقِ مجاري مياهِ الأمطارِ =

زخم وجمال، يتبدّى في مهرجان مبهر من الأهازيج واللهجات والملابس والطّعام، ويتألّق طبعاً في خلاصة ذلك كله: العمارة بتصاميمها وزخارفها وتفاصيلها المختلفة.

شواطئ[٥] مذهلة الصفاء تمتدّ على طول أكثرمن ألفي كيلو متر.

تستلقي قبالتها جزر مرجانيّة، حوت كل نادر من نبات وحيوان.

جبال عالية تتناثر فوقها القرى كأعشاش النسور وتتحسّر دونها الغيوم.

صحارى مدهشة أنبتتْ ناطحات سحاب من طين.. تحدَّتْ الزمان والطبيعة.

ومساحات مترامية تنبسط بين خضراء وجرداء؛ لتكتنز في حناياها كلّ نفيس، التاريخ، الثروات الطبيعية[٦]، وكنوز... ومفاجآت، مازال جلّها كامناً في أحضان أرض توالتْ فوقها أعرق الحضارات وأقدمها[٧].

= التي تسيلُ من الجبال المتاخمة، ومناخُه قاسٍ يمتاز بحرارةٍ عاليةٍ والمدى الحراريّ الكبيرِ والأمطارِ النادرةِ والرطوبةِ المنخفضة.

(٥) تمتلك اليمن شريطاً ساحلياً يبلغ طوله أكثر من ٢٢٠٠ كم، غني بالأسماك والأحياء البحريّة، إضافة إلى ١٨٢ جزيرة، أهمّها: جزر سقطرى (الغنيّة بنباتات فريدة من نوعها في العالم كشجرة دم الأخوين) وعبد الكوري ودرسة وسمحة في بحر العرب، وجزيرة كمران وزقر وحنيش الكبرى وحنيش الصغرى في البحر الأحمر.

(٦) ومنها النفط، إذ تُصنّف اليمن بأنّها من الدول النفطيّة الواعدة.

(٧) لليمن تاريخ عريق حيث كانت موطناً لبعض من أقدم الحضارات في العالم (منها حضارة سبأ، مملكة معين، حضارة حضرموت، مملكة حِميَر، مملكة أوسان وقتبان)، منها خرجتْ أهمّ الحضارات واستوطنتْ دولاً مثل العراق وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، كما هاجر اليمنيّون بعد انهيار سد مأرب لدول الجوار.

وإن كنتُ لم أزرْ بعد -كما أتمنى- كلّ شبر فيها، فإنني أعرفها كلّها... تختزلها ابتسامات الوجوه الطيبة، تتجسّد في إبداع نقوش الحليّ وزخرفة المباني، تتجلّى في أصالة التقاليد، وفي عفوية صادقة مازالوا ينعمون بها هناك.. في عالم كلّ ما فيه يشبهه، مزيج عبقري من الألوان والأشكال والروائح.. تتباين إلى حدّ التناقض وتنسجم إلى حد الإبداع.

منْ يحمل روحاً متوهّجة.. لا يملك إلا أن يُفتتن بها.

لذلك وقع الكثيرون في غرام اليمن، بسحر حضارتها ودماثة أهلها، وهم -بشهادة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم- "أرقّ قلوباً وألين أفئدة".. ومنهم عاشق اليمن الشاعر السوريّ الكبير سليمان العيسى[8] الذي خاطب -في قصيدته "نقش متأخر"- طيفَ بلقيس قرب بقايا أعمدة عرشها في مأرب:

بلقيسُ، يا عينان سَوْداوانِ
تَخْتَرِقـــانِ حُلمـــي
أَحْلَـى وأنبـلُ من كُرُومِ
الشمسِ أعصِرها بوهْمي

---

(٨) سليمان العيسى: شاعر سوري، وُلد في النعيريّة في انطاكية من لواء اسكندرون عام ١٩٢١م/١٣٣٩هـ، تلقّى تعليمَه في القرية ودرس في دار المعلمين ببغداد، عَمل مدرساً في مدارس حلب ودمشقَ وحماةَ وانطاكية، وموجّهاً أوّل للغة العربيّة في وزارة التربية السوريّة. وهو عضو جمعيّة الشعر التي أسسها أدونيس ويوسف الخال. انتسب مبكراً لحزب البعث وكتب مجموعة من الأشعار العروبيّة. له ديوان ضخم مطبوع تغلب فيه أناشيد الأطفال. أقام في اليمن عدّةَ سنوات وأحبّها وكتب عنها، وقد كُرّم بالعديدِ من الجوائزِ والاحتفاليّات.

أنــا عنــد عَرشــك آهــةٌ
تَعبَتْ... ومـا بَرحَتْ تَقُولُ
هَيْهَــات يا وطَنَ الضيـاء
البِكْـرِ يَمْحَقُـكَ الأُفُـولُ

اليمن اليمن... عالم أسطوري، ما إن تسكنه، يسكنك.

"صنعاء" أبهرتني بعمارتها التي تعكس الكبرياء والشموخ، وتَشِي في الوقت ذاته بطوفان الحنان الكامن في أعماقها، تبثّه في التفاصيل الصغيرة المبدعة.. أخرجتْ لي من جيوبها التاريخ.. فرأيتُ كيف يخلّد الماضي المستقبل.. وعرفتُ كيف ينطق الحجر.. حين تحكي كلّ المفردات بلغة واحدة قصصاً لا تنتهي.. قصّة مدينة احترمت ذاكرتها ولم تتنازل عن أصالتها و تفرّدها، أخذتني من يدي ومرّرَتْ أصابعي على مكامن الجمال المعتّق في وشْي فضّتها، وحبّات عقيقها، ومنمنمات جصّها، وتطريز أثواب نسائها، وحبر أوراق مخطوطاتها المصفرّة.. دفعتني لأتمايل مع راقصات "الدعسة"[٩] على ألحانها الشجية.. توضّأتُ في سائلتها، وصلّيتُ في جامعها القديم.. وانتشيتُ بالزخم المخزون في الأحجار والتراب والجينات منذ آلاف السنين..

"عدن" سحرتني بألوانها.. بزرقة بحرها وسواد جبالها وبياض قلبها.. طوّقتني بفلّها و نقشتْ حنّتها فوق قلبي.

(٩) الدعسة: رقصة نسائيّة صنعانيّة.

"أَبْيَن" حكاية أخرى.. حكاية خطها أحباب في خاطري.. خطّاً بعد خط قبل أن أزورها.. قصة أرض معطاء تنتج أشجار الموز و"العنبة"[10] والناس الطيّبين[11] .

"حضرموت" أسرتني بطبيعتها البكر، وعبقريّة عمارتها، ورقيّ أبنائها، بفرادة كلّ تفاصيلها، وهناك.. حيث المدن التي تبدو وكأنّها انسلّت من الأساطير.. وحيثُ خَلَق معلمو البناء من "مدرة"[12] الطين الصغيرة لوحات رائعة، وأبدعت أياديهم المتماسكة بفطرة صافية ومحبّة صادقة تراثاً معمارياً عظيماً، رسمتُ ودرستُ وحلّلتُ على مدى سنوات، وما زلتُ أعمل لتضمين التوثيق الذي قمتُ به دفّتي مؤلّف علميّ جاد.

أمّا بالنسبة لتَعز وزَبيد وإبّ والحُدَيْدة والمُكَلّا ولَحَج وشَبْوة والمُهْرة والبَيْضاء وجزيرة سُقَطْرَى والمدن اليمنية الأخرى التي لم أذكرها هنا، فهي تستحق أن تكون موضوع كتاب قادم إن شاء الله... ومَن قال إنّ حديثنا سينتهي في آخر صفحات هذا الكتاب.

في نَوْبات الحنين كتبتُ بعض ذكريات رحلاتي إلى اليمن.. حَسبتُها تدويناً لمشاعري.. يُطوى بين أوراقي الشخصيّة، لكن وجدتُني أنشرها، فالحبّ لا يمكن إخفاؤه.. وعلى رأي ابن زيدون[13]:

---

(١٠) العنبة: اسم فاكهة المانجا في بعض مناطق اليمن.

(١١) انطباعاتي عن عدن و أبين و حضرموت هي موضوع كتابي اللاحق، و هو قيد الطبع.

(١٢) المدرة: وحدة البناء بالطين، اللَّبِنَة، الطوبة المصنوعة من الطين.

(١٣) ابن زيدون: ١٠٠٣-١٠٧١م /٣٩٤-٤٦٣هـ هو أحمد بن عبد الله بن أحمد المخزومي - أبو الوليد شاعرٌ أندلسيٌّ، ولد سنة١٠٠٣م/٣٩٤هـ بقرطبة وكان والدهُ وجدّه من فقهاء "قرطبة" =

يُخفي لواعجه والشوق يفضحهُ
أضحى سواء لديه السر والعلن

هذا توثيقٌ لأيّام لا تُنسى في اليمن... قراءة في بلد عربيّ عريق.. بقلم تلميذة في مدرسةِ عمارته المبدعة.

سأكون دليلكم في رحلة نقوم بها معاً.. إلى مكان طالما تمنّيت لكلّ من أحب أن يحظى بمتعة رؤيته يوماً.. حاولتُ أن أختزله لكم كما عرفته في السنوات الطويلة الماضية.. فقد كنتُ وما زلتُ أعتبره إحدى قضاياي الأساسية، ليس فقط من خلال الأبحاث والدراسات التي أعددتها (وأتابع بها رسالة الدكتوراه في مجال هندسة العمارة اليمنية التقليدية) فحسب، بل أيضاً من خلال النشاطات المكثّفة والمحاضرات والمعارض، التي أحاول من خلالها جميعاً المساهمة في تسليط الضوء على هذا البلد العظيم الذي بُخس حقّه، وبالذات على عمارته التي لايمكن أن تكون إلاّ نتاج حضارة عظيمة.

= وأعلامها المعدودين، تلقّى ثقافتَه الواسعةَ على يد عددٍ كبيرٍ من علماء عصره، وقد ساهم -باعتباره شاعراً ذائعَ الصّيت- بدورٍ رئيس في إلغاء الخلافة الأمويّة بقرطبة، وتأسيس حكومة بزَعامة ابن جَهْور وحظي بمنصب الوزارة لديه، إلا أن أعداءَ الشاعرِ استغلّوا غروره وطموحه فأوغروا عليه صدر الأمير حتّى انتهتْ العلاقة بينهما. حرّكت شاعريّتَه ابنةُ أحد الخلفاء الأمويين الشاعرةَ "ولاّدةَ بنت المُستكفي"، وكان واحداً من أبرز الأدباء الذين ارتادوا ندْوتَها، وتنافسوا في التودد إليها، وظلّ يذكرها في أشعاره طوال حياته. نَعِمَ بالحظْوة في عهد الأمير "أبو الوليد بن جَهْوَر"، ولكنه اضطرَّ إلى مغادرة قرطبةَ إلى اشبيليةَ نتيجةَ ضغط الخصوم، حيث أحسن "المعتضدُ بنُ عباد" إليه وجعله مستشارَه الأوّل وكبيراً لوزرائه، واستطاع أن يتقلّد الكتابة، وقضى في بلاطه عشرين عاماً، وكذلك كانت له مكانتهُ في بلاط ابنه المعتمد بن عباد، وساعده في فتح "قرطبة"، ثمّ أرسله إلى "اشبيلية" لإخماد الفتنة وكان "ابنُ زيدون" قد أوهنته الشيخوخةُ، فتُوفي بعد أن أتمّ مهمتَه عام ١٠٧١م/٤٦٣هـ.

ولأنّ "شرط المرافقة الموافقة" -كما اعتاد أبي رحمه الله أن يذكّرنا قبل أيّ سفر- فعليّ أن أعترف لكم مقدّماً أنني لا أستطيعُ أن أتحلّى بموضوعيةِ الباحث وتجرّدهِ حين أتحدثُ عن اليمن.. فأنا مسكونة به.. بصعوبة انتقيتُ هنا -من بحرِ معلومات هائل- حزمةً، نسّقتها في باقات بسيطة بغية الفائدة والمتعة معاً، ويقيني أن المحبّة الصادقة التي كُتبت بها هذه السطور كانت مفتاح قلوب من أتتني رسائلهم من كلّ مكان في اليمن، هداهد تحمل سلال قشّ يمنيّ ملأى بفل لحجيٍّ وبن يافعيّ، وبلس تعزيّ، وعنب صنعانيّ، وبخور عدنيّ، ولبان مهريّ، وعسل حضرميّ، مشجعين تسليط المزيد من الضوء على حضارة رائعة.. لبلد عريق وشعب طيب.. إنصافاً لحقّ إعلام لم يحظيا بكفايته.. عن جمالٍ أخّاذ توارى -للأسف- وراء أكوام مرعبة من التشويه والجهل.

لهم.. لمن كتبوا لي جميعاً.. كلّ الامتنان، فرسائلهم كانت زاد رحلاتي و بوصلةً هدتني إليكم...

يقول شاعر اليمن النافذ البصيرة عبد الله البردوني[١٤] :

من "السعيدة" هذي الأغنيات ومنْ
ظلالها هذه الأطياف والصُّوَرُ
من خاطر "اليمن" الخضرا ومهجتها

---

(١٤) عبد الله صالح حسن الشحف البردوني: شاعر يمني وناقد أدبي ومؤرّخ، وُلد في ١٩٢٩م/١٣٤٧هـ في قرية البردون في ذمار (اليمن)، وتوفّي في ١٩٩٩م/١٤٢٠هـ. فقد بصره وهو في السادسة من عمره إثر إصابته بالجدري، كما عانى من السجن.

هــذي الأغاريـــد والأصـــداء والفكــرُ

من هذه الأرض حيث الضوء يلثمها

وحيث تعتنـق الأنســام والشجــرُ

ما ذلك الشدو؟ مَن شاديه؟ إنّهـما

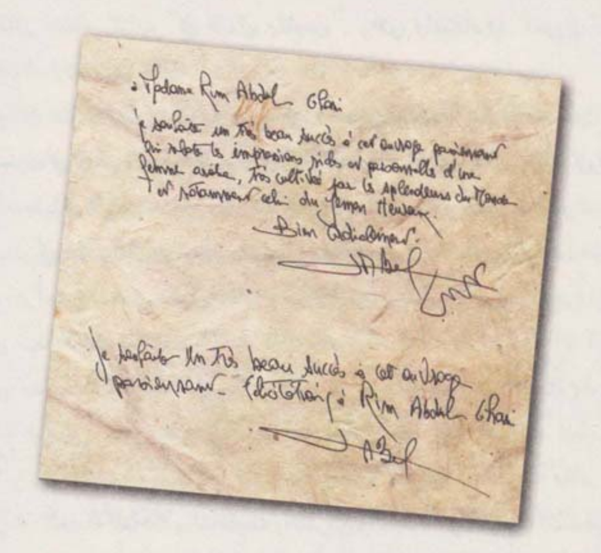
من أرض بلقيس هذا اللحن والوتر

أجل.. هذه "أطياف وصور" من "السعيدة".. من اليمن، حيث كانتْ لي في "ظلال بلقيس"... أيّام لا تُنسى... وهاكم حكاياتها...

ع/



صندوق "الأمير الصغير"



à Madame Rim Abdel Ghani
Je souhaite un très beau succès à cet ouvrage passionnant
qui relate les impressions [illegible] et personnelles d'une
femme arabe, très cultivée par les splendeurs du Monde
et notamment celui du Yemen Heureux.
Bien cordialement.
J.M. Bel

Je souhaite un très beau succès à cet ouvrage
passionnant – félicitations à Rim Abdel Ghani
M Bel

حين فضضتُ المغلف البريدي الكبير، ووجدت فيه رسومات "جوزيه ماري بل"[١٥]، ابتسمتُ.. فقد ذكرتني بملامح الرضا على وجه الرجل الأوروبّي المحمر المتصبب عرقاً تحت العمامة اليمنيّة البيضاء... حين التقيته قبل سنين في تريم..

بين الرسوم اختبأت ورقة خطّ عليها هذه السطور:

---

(١٥) José Mari Bel: خبير فرنسي في التراث اليمني -دكتوراه في علوم الجمال والفن -رئيس مؤسسة ملكة سبأ - البيت اليمني، باريس.

العزيزة ريم:

طال انتظار كتاب "في ظلال بلقيس"، وهو، باعتقادي، تتويج لحكاية شخصية، وتحقيق لحلم.

ومنذ لقائنا الأول في باريس، قبل حوالي خمسة عشر عاماً، حين كنتِ تختصّين في مجال العمارة اليمنية، أكثر العمارات خصوصيّة و تميزاً، وواحدة من أجملها في العالم العربي، بل العالم أجمع، لمستُ على الفور عمق رغبتك في الإبحار في ذلك الكون العجيب وعمارة شعبه المبدعة، أدركتُ أن اختيارك كان -و أسمح لنفسي بقول ذلك- من القلب، اختياراً نادراً وجديراً بالثناء.

و مهما كانت ثقافتنا، خاصة تلك العربيّة، فإننا نعرف تماماً أن اليمن، (على مشارف الأماكن المقدّسة، حتّى في مرحلة ما قبل الإسلام)، وبلد الملكة بلقيس، هو منبع العديد من الحضارات، وقد أدركتِ أنتِ ذلك تماماً واستوعبته، فأخذتنا في هذه الصفحات الشيّقة المخطوطة بقلم امرأة عصريّة، مخلصة للبحث والتحقيق والتاريخ والأصالة والحقيقة، لتكشفي لنا، بثقافة شرقية، عن أسرار ملكة سبأ، ونتجوّل بمتعة في أرجاء هذا الكتاب في رحلةٍ بديعة، وكلّ كلمة تُدخل السعادة إلى قلوبنا، تستوقفنا، وتعلّمنا في الوقت ذاته عن عالم اليمن المدهش والغامض أحياناً.

شرّفني كثيراً أن تزيّن كتابك الرائع رسوماتي التي آمل أن تكون على مستوى المحتوى، فما هي إلا تعبير حقيقي عن الصداقة التي تتجاوز الزمن والحدود والمحيطات والشعوب والاختلافات، وهذا مثار فخري وسعادتي معاً.

جوزيه - ماري بيل

باريس ١٥-١٢-٢٠١٠

والحقّ أنني أحببتُ رسومات "بل" منذ أن أرسل لي إحداها قبل عشرة أعوام فوق بطاقة معايدة لطيفة.. استشعرتُ في انحناءات خطوطها عشقاً حقيقيّاً لليمن.. احترمت الشغف الذي دفع بهذا المعماري الفرنسي إلى أعماق صحراء حضرموت وقمم جبال صنعاء وشواطئ عدن ... وحدا به أن ينذر بعض عمره لدراسة عمارته وتراثه، وأن يخلق بقعة يمنيّة بين أزقة باريس.. مؤسسة سمّاها "ملكة سبأ".

لم أر في لوحات "بل" تصويراً حرفيّاً لمشاهد من اليمن بقدر ما تبيّنتُ فيها ما عناه الروائي والطيّار الفرنسي انطوان دي سانت اكزوبري[16] -في كتابه "الأمير الصغير"- حين طلب الأمير الصغير من الطيّار أن يرسم خروفاً.. فرسم الطيّار صُندوقاً وقال: "الخروف داخل هذا الصندوق"... تاركاً للغموض أن يحرّض الخيال ليرسم الخروف كما يشاء.

(١٦) Antoine de Saint-Exupéry طيّار وكاتب فرنسي، ولد في مدينة ليون ١٩٠٠م/١٣١٨هـ، ساهم في الحرب العالمية الثانية، أعماله الأدبية وحياته العمليّة صنوان في بناء شخصيّته، حصدت الأولى الجوائز الأدبيّة، وأحرزت الثانية وسام جوقة الشرف، انتهت حياته بسقوط طائرته في البحر عام١٩٤٤م /١٣٦٣هـ وعُثر على حطام طائرته عام ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ.

ولأنّ اليمن عالم خاص، مكان لا يشبهُ إلا ذاته والأساطير.. يصعب تخيّله على من لم يزره، وتقصّر الصور الفوتوغرافيّة ببعديها عن نقل جماله الذي تتوالد الأبعاد فيه من أبعاد.. وجدتُ أن أترك لسطور عاشقة لا تحترف الكتابة.. وريشة مستشرق فرنسي مغرم باليمن.. أن يعبثا بمقاليد الخيال، ويرسمان لكم بوّابة تدلفون منها إلى عالمه الساحر، بوّابة فقط.. تدفعونها.. فتلوح لكم أطياف ورؤى وأصداء من اليمن السعيد... تنبئكم "بالخبر اليقين".. عبارة يُروى أن الهدهد بادر بها سليمان، بعد عودته من مهمّته في اليمن-ككل من عاد من هناك- مأخوذاً بما رآه...

Salam

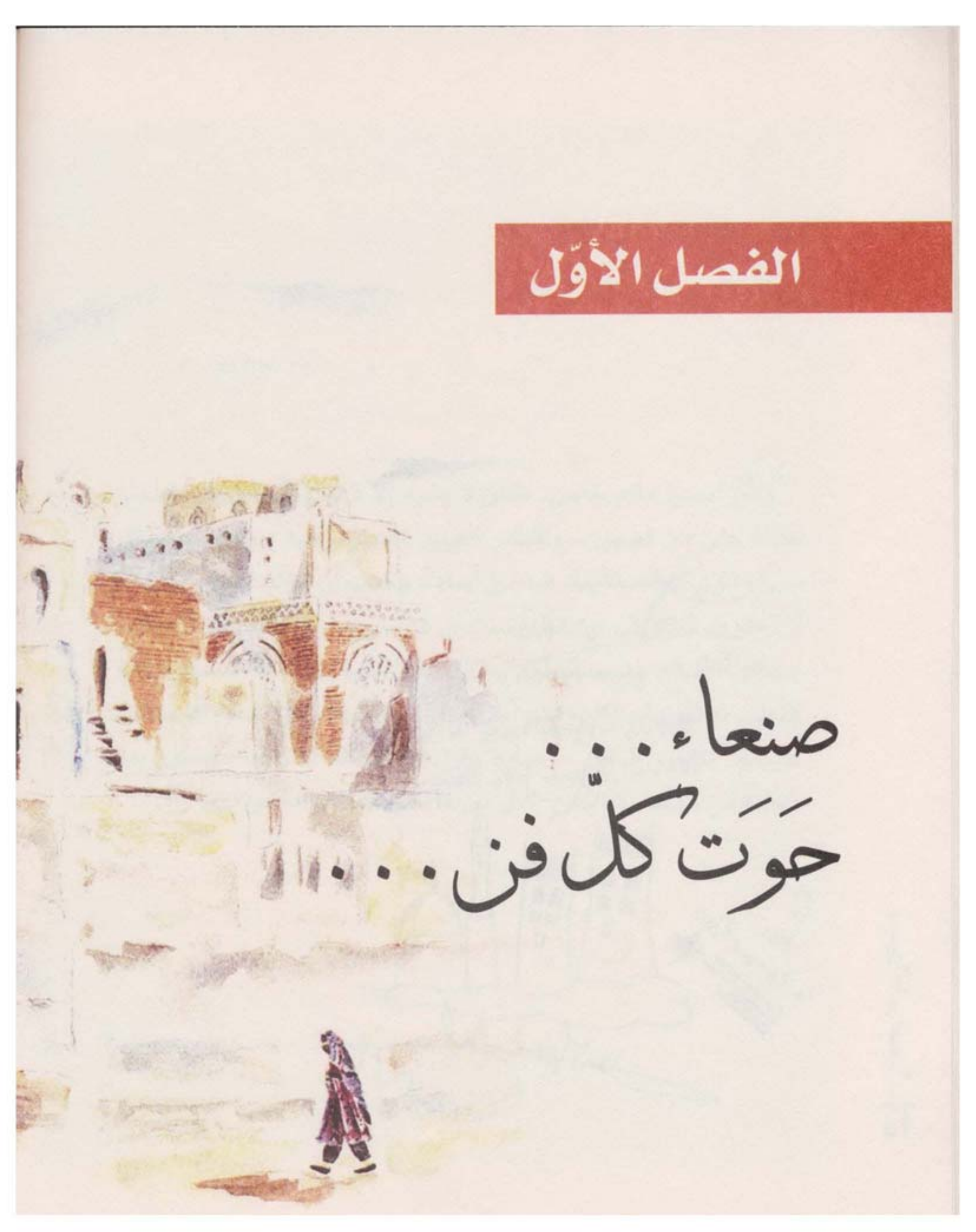
à Rim et Ali

et toutes nos pensées amicales...

Voici des histoires vraies de cette Arabie toujours bien heureuse –

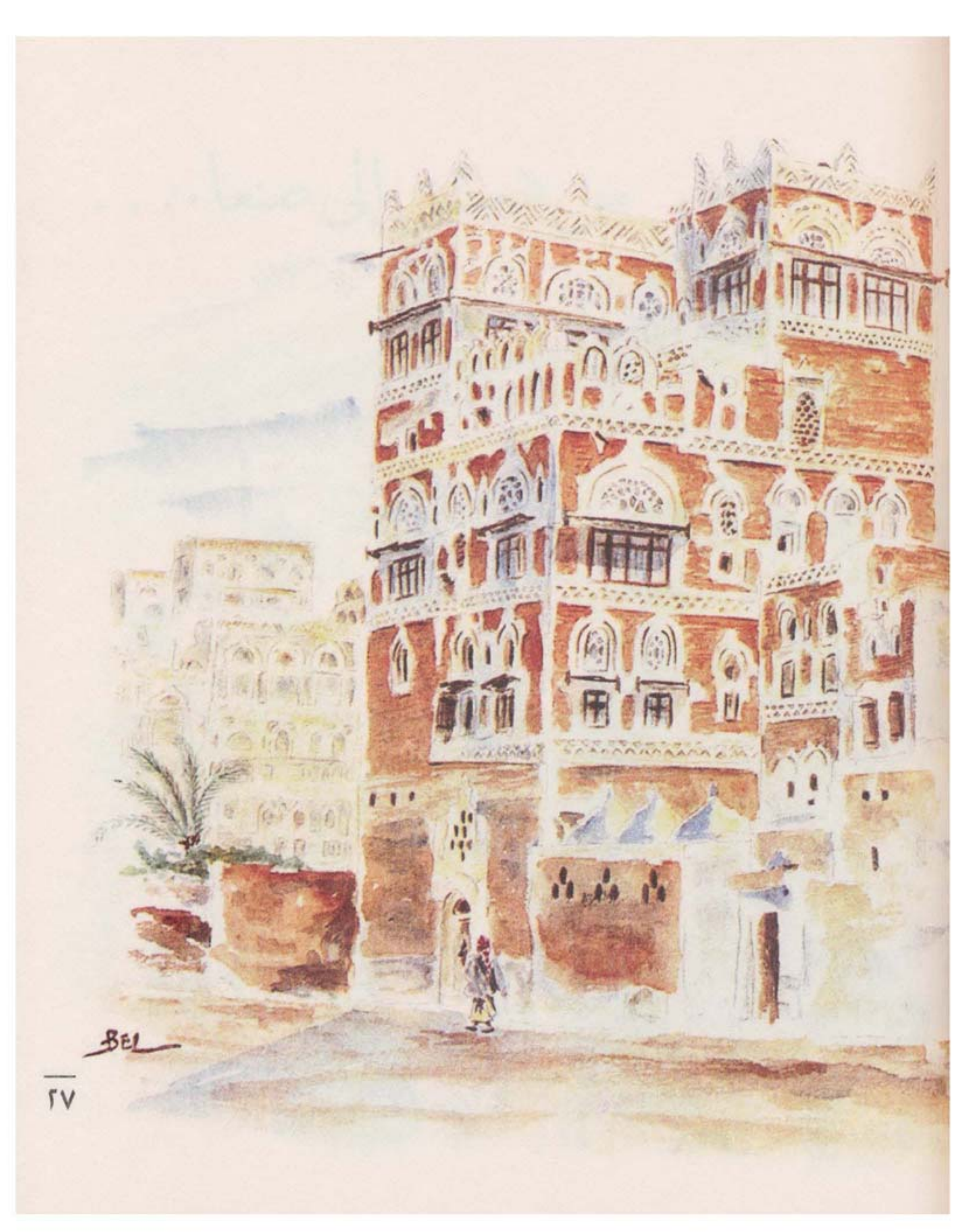
Paris, le 20 août 2010

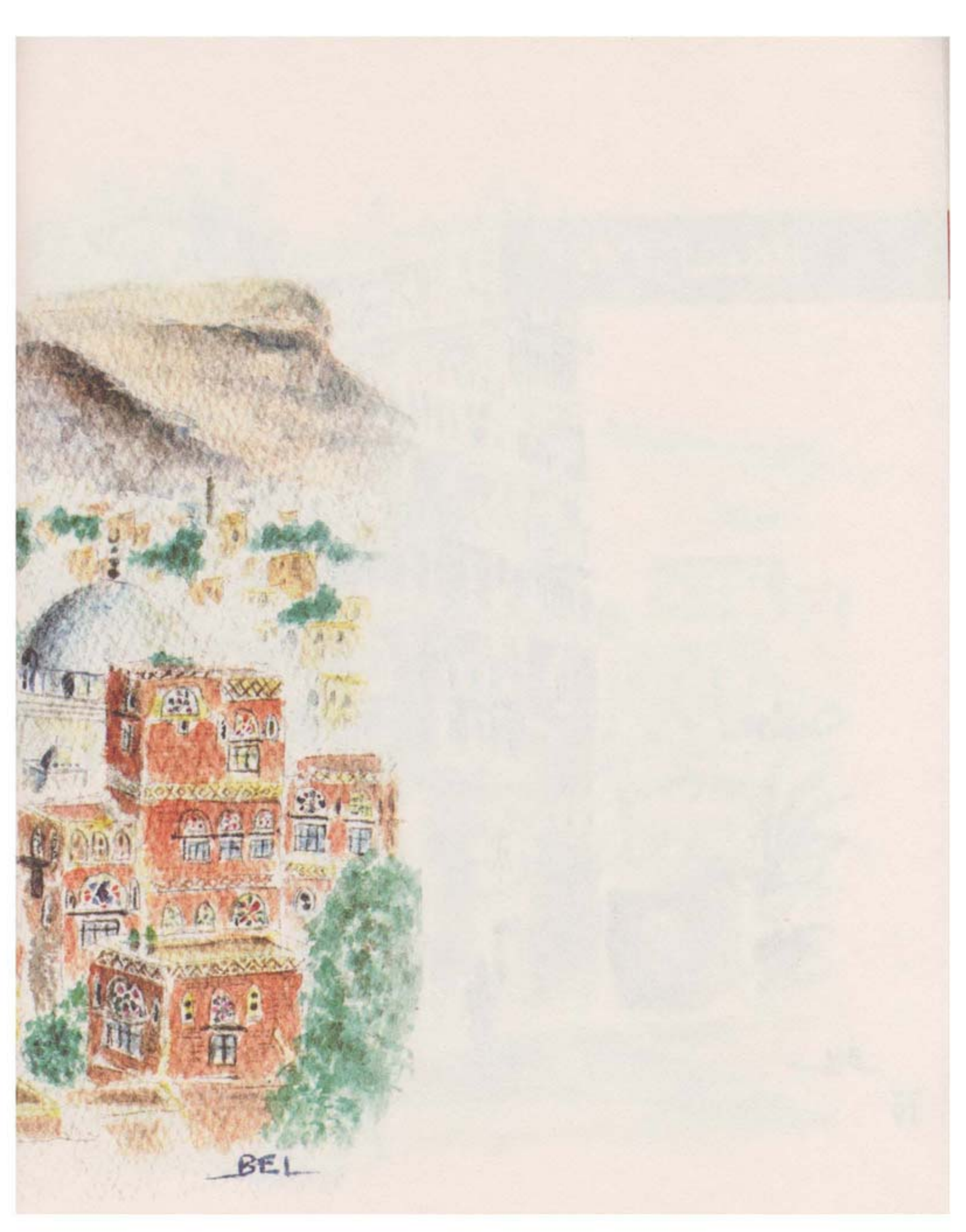
Espace Reine de Saba

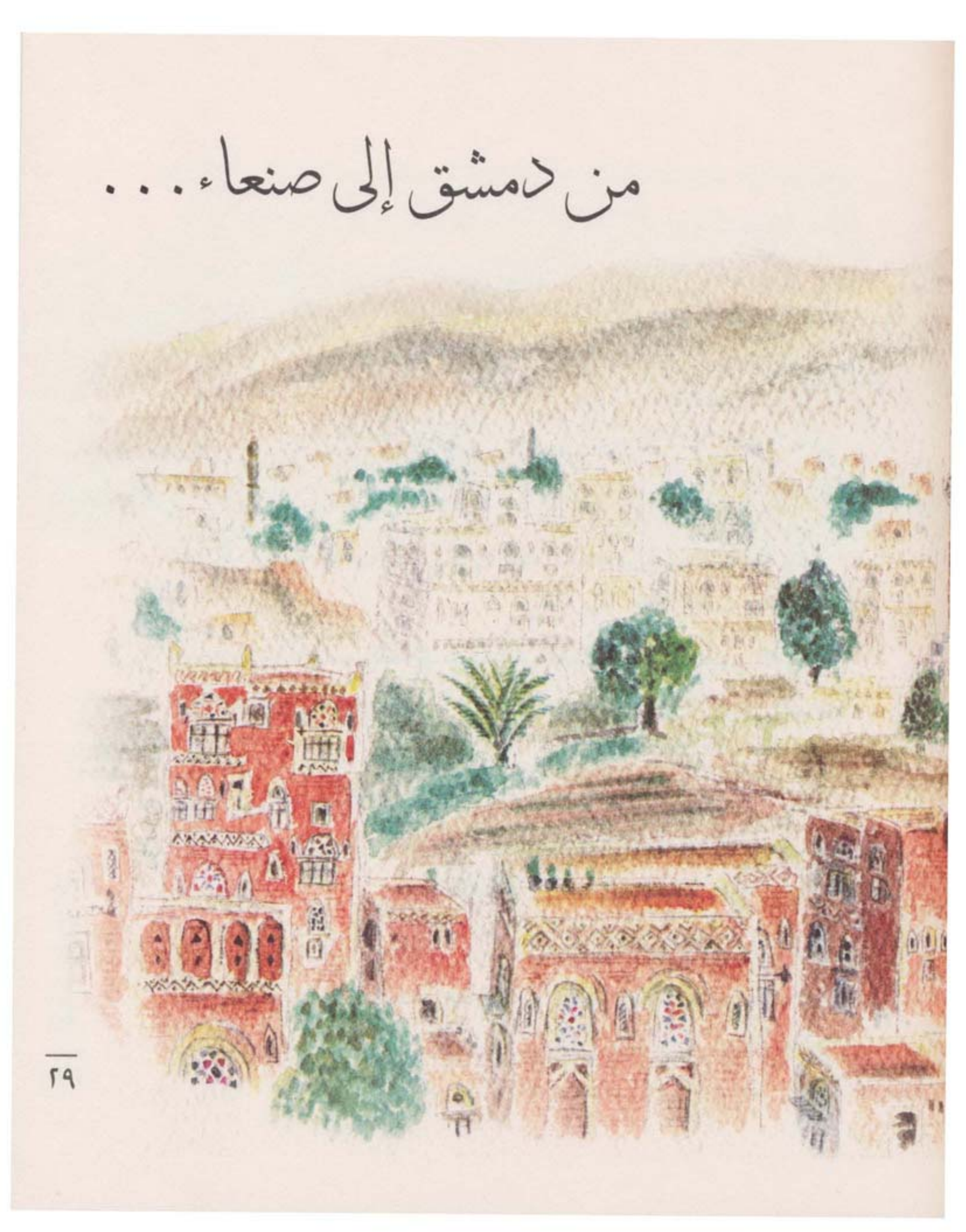


الفصل الأوّل

صنعاء...
حوت كلّ فن...


BEL


BEL



من دمشق إلى صنعاء...

رغم العدد الكبير من رحلات الطيران التي قمتُ بها في حياتي، مازالتْ لحظات هبوط الطائرة.. تثير قلقي.

لكن قلقي يومها كان مُضاعفاً.. فالهبوط في مطار صنعاء المتواري بين ثنايا الجبال، بارتفاعها الذي يزيد على ٢٢٠٠م فوق سطح البحر، لايشبه الهبوط في المطارات الأخرى.

كان على الطيّار البارع أن يناور مخترقاً السحب السوداء.. وأن يواجه بثبات اهتزازات المطبّات الهوائية، قبل أن يهبط بنا على المدرج، مجتازاً ما يُعتبر اختبار ملاحة من الدرجة الممتازة.

أخيراً على الأرض...

ثلاث ساعات ونصف تفصل دمشق عن صنعاء، المدينتين التوأمين والنقيضين.



فالمدينتان تتحدثان بمفردات معماريّة إسلاميّة، وتتباهيان بنفائس المساجد والحمّامات والخانات والبيوت الجميلة، تاج دمشق مسجدها الأمويّ، وتاج صنعاء مسجدها الكبير، والمسجدان من أوائل مساجد الإسلام... وللمدينتين ذات الإطلالة المؤثّرة من بعيد.. مئات المآذن المتطاولة نحو السماء.. تمتدّ مشتاقة إلى الله.

ما أنّ تدخل أياً منهما وتطابق قدماك مواطئ أقدام العظماء الذين مرّوا في دروبهما.. حتّى يسري إليك ما يُعتمل داخلهما من طاقات روحيّة كامنة.

ما زال لكلتي العاصمتين الموغلتين في القدم قلبٌ نضِر ينبض بالحياة،

يتفرّع داخله شريان "الحميديّة" في دمشق و"الملح" في صنعاء... وربّما كان نهوض الاثنتين على أكتاف التجار قد أفرز تلك العادات والتقاليد والمفاهيم المشتركة بينهما.

دمشقُ شرَّعت أبوابها لكلّ الجنسيات والأعراق والأفكار، فتعاقبت عليها السلطات والأقوام لتضفي على شخصيّتها الواضحة نكهات الحضارات الأخرى ولم تتنازل أبداً عن لقبها كعاصمة، أمّا صنعاء التي أوصدتْ بوّاباتها دون رياح التغيير وحصّنت نفسها ضد الغزاة (حتّى سُمّيتْ اليمن بمقبرة الأناضول)[17]، فلم تعرف غير صورتها الأولى واحتفظتْ بشخصيّة فريدة صرفة منتزعة لقب "عاصمة" مرّات عدة في التاريخ.

اتّكأتْ دمشق على "قاسيون"، احتضنتها الغوطة الفيحاء وعانقها بردى، في حين استلقتْ صنعاء في فيء جبال "نُقم" و"ظفار" و"عيبان"، وتسللتْ المساحات الخضراء داخلها في "مقاشم" المساجد وروّت "السائلة" قلبها... وللأسف عانت المدينتان في العقود الأخيرة من اجتياح الاسمنت لأخضريهما...

لكلتيهما قلعة، وإن كانتْ صنعاء القديمة بأكملها قلعة داخل سورها الحجريّ ببواباته السبع[18] التي بقي منها "باب اليمن" جنوباً، بينما

(١٧) لم يتمكّن العثمانيّون من الاستقرار في بلاد اليمن التي فتحوها سنة ١٥٣٨م/٩٤٤هـ أكثر من قرن واحد، بسبب الثورات والمقاومة العنيفة التي قابلهم بها الشعب، فغادروها عام ١٦٣٥م/١٠٤٤هـ، ولم يعودوا إليها إلا في منتصف القرن التاسع عشر ليقيموا حكمهم فيها قرابة نصف قرن آخر، تحوّلت فيه إلى مقبرة لأبناء الأناضول.

(١٨) باب اليمن، باب ساتان، باب شعوب، باب الشقاديف، باب الروم، باب القاع، باب البلقة.

يتخلل سور دمشق القديمة بوّابات سبع[١٩]، يُقال إنّه من أحدها سيخرج المسيح الدجال ذات يوم!.

تسامقتْ بيوت صنعاء بتكويناتها الشاقوليّة نحو السماء، انفتحتْ بجرأة على البساتين والساحات.. لتوفّر في مساحة الأرض الزراعيّة وتلبّي حاجات الدفاع الحيويّة في حياة اليمنيين، في حين عمدتْ بيوت الشام إلى التناثر الأفقيّ المريح حول فسحات سماوية[٢٠] ظللتها الأشجار وعطّرتها الورود...

وبإيمانها بـ"الجوهر لا المظهر"، طوّقت الواجهات الدمشقيّة البالغة التواضع والبساطة حميميّة تتابع قاعات وفناءات، أسقط المعمار المبدع في جنباتها جُلّ روحه زخارف وألوان وتفاصيل، بينما "احتفلت" واجهات البيت الصنعاني بـ"مهرجان" من الزخارف والنقوش، لتستعرض كلّ زينتها في الخارج، خشب محفور ونقوش ورسوم جصيّة بيضاء.

بثوبها المُحاك من حجارة البازلت وطوب الطين المشويّ، نجحتْ صنعاء أن تفرض شيئاً من شخصيّتها حتّى خارج أسوارها القديمة، فزُيّنت واجهات المباني الصنعانيّة الحجريّة الحديثة بالقمريات والزخارف البيض المميّزة، بينما انقطع تواصل دمشق مع هويّتها وبيوتها الطينيّة

---

(١٩) عند بناء سور مدينة دمشق في العهد الروماني، تم تزويده بسبعة أبواب، تهدّم بعضها وأُنشأ آخر في العهود اللاحقة، وبقي منها إلى اليوم ثمانية أبواب هي: باب توما، باب الجابية، باب كيسان، باب السلام، باب الفرج، باب شرقي، باب الفراديس، باب الصغير، وهناك أبواب مختفية مثل: باب الجنيق، باب النصر.

(٢٠) وربّما كنّا نستطيع تلمس شيء من الشبه في مباني حيٍّ بير العزب القديم في صنعاء والتي حملت تأثيرات معماريّة عثمانيّة، سيّما في تصميم غرفة الاستقبال العامّة في البيت التي تطلّ على البستان المحيط بالمبنى بفتحات واسعة مواجهة لنافورة تتوسط شرفة واسعة.

بفراديس فسحاتها السماويّة خارج أسوارها..

واعترافاً بعراقة مدينتين ظلّتا على الدوام مصدر إشعاع علميّ وفقهيّ، سجلت اليونسكو دمشق في عام ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ وصنعاء في عام ١٩٨٣م/١٤٠٣هـ على لائحة التراث العالميّ، وزُفّت صنعاء عاصمة للثقافة العربيّة في عام ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ، لتعقبها دمشق في عام ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ.

ولستُ وحدي من يربط بين وجهيّ دمشق وصنعاء، فقد قال أحمد القلقشندي[٢١] عن هذه الأخيرة قبل ٦٠٠ عام تقريباً: "هي من أعظم مدن اليمن وبها أسواق ومتاجر كثيرة، ولها شبه بدمشق لكثرة مياهها وأشجارها، وهي كرسيّ ملوك اليمن في القديم".

والبردّوني يتغنّى بالعلاقة بين صنعاء ودمشق بل ومصر أيضاً:

ها نحن نبني فوق هامة مأرب

وطناً ونبني ألف صرح مرمري

وتعانقت صنعا ومصرٌ وجِلّقٌ

فيها عناقَ الشوق والحُبَّ البري

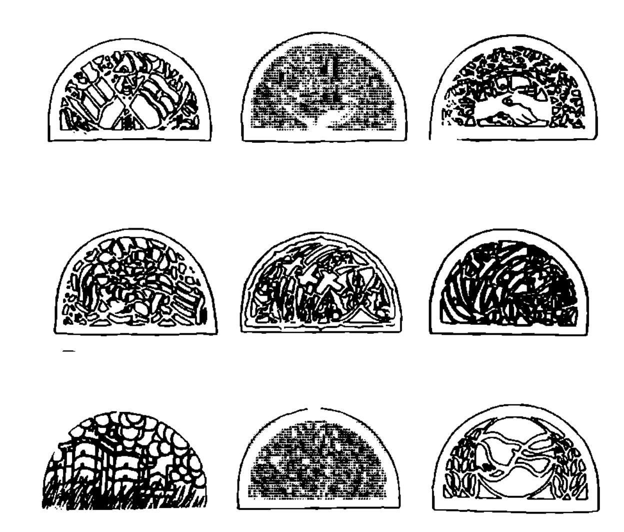
وجرى على النيل المصفّق صنْوُه

بَرَدى فصفّق كوثرٌ في كوثرِ

(٢١) أحمد القلقشندي: هو أبو العبّاس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي الفزاري، ولد سنة١٣٦٤م/ ٧٦٥ هـ، درس في مصر، التحق بديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ١٣٨٩م/ ٧٩١هـ، وفرغ من موسوعته الضخمة "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" سنة١٤١١م/ ٨١٤هـ، وله المؤلف الهام "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب".

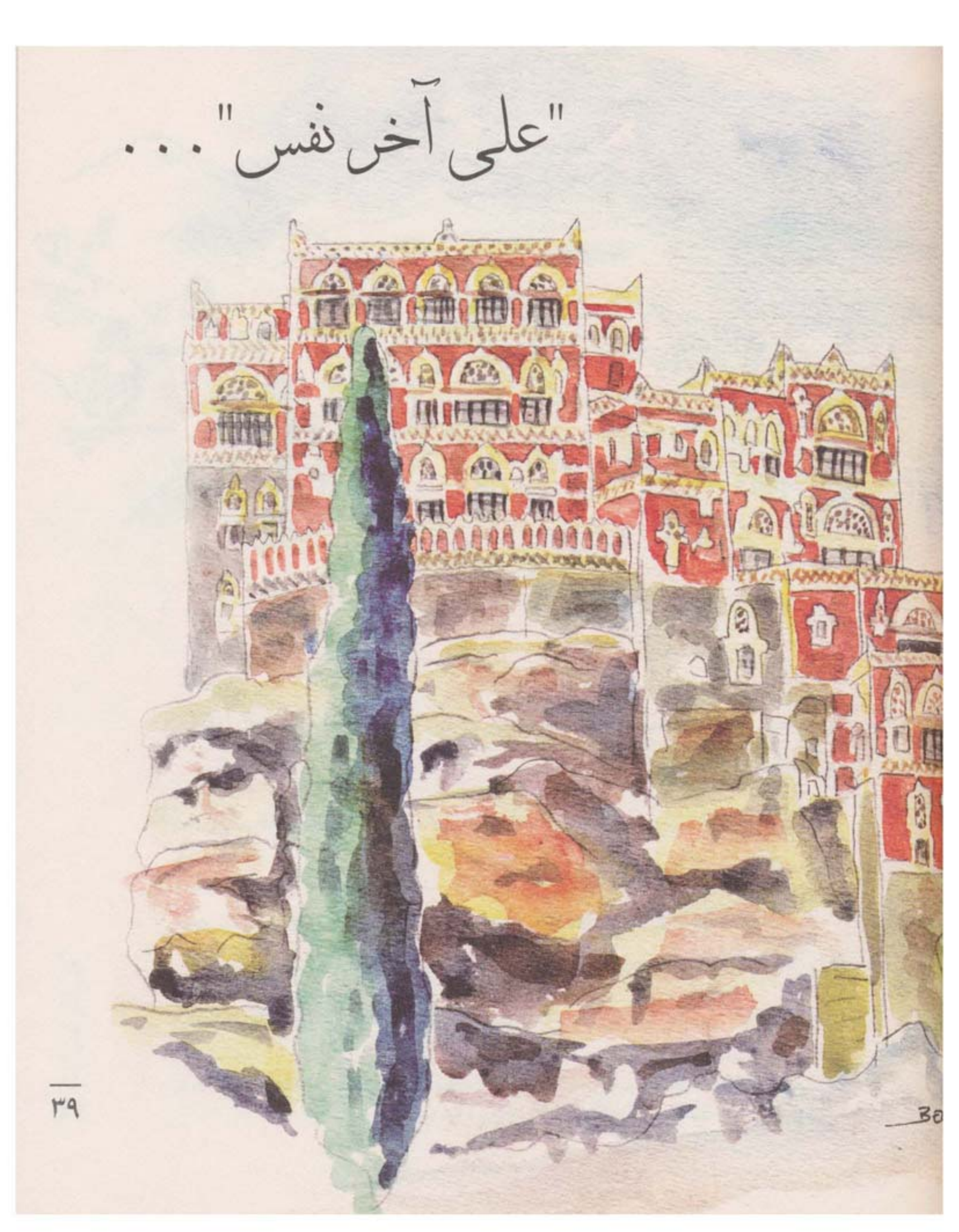
أحبُّ المدينتين.. وأجد في كلّ منهما بعضاً منّي.. وأشعرني محظوظة بعلاقتي الوثيقة ببلدين خصَّهما الرسول صلّى الله عليه و سلّم بدعائه: "اللهم بارك لنا في شامنا و يمننا".

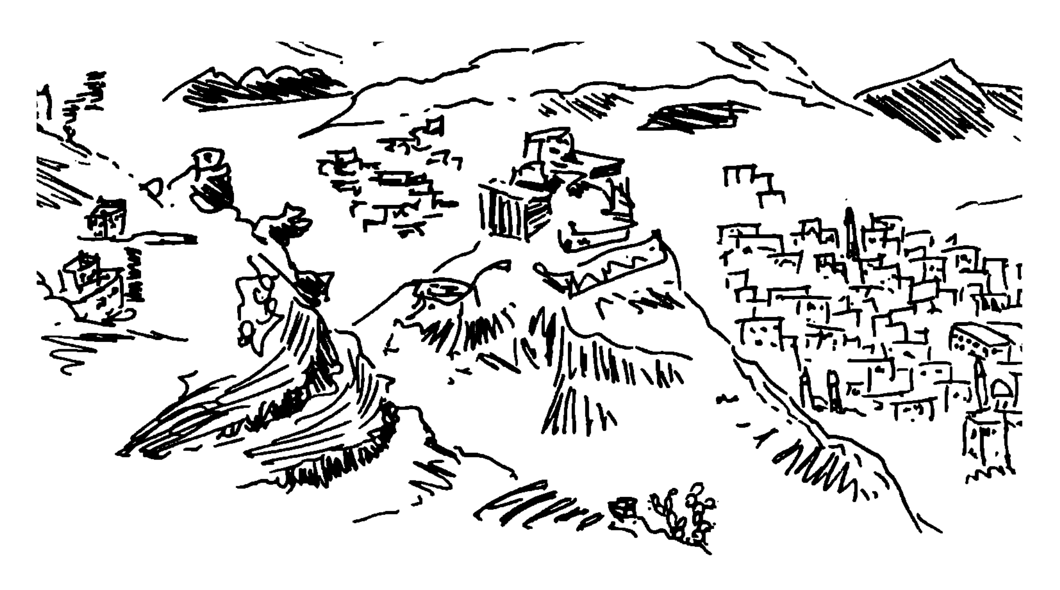
ولكن، ولأن أيّاً منهما لاتشبه اللاذقية.. مدينتي الساحليّة الصغيرة ببساطتها وعفويتها، لم أُفلح -رغم الصحبة الطويلة- في لمس الأعماق الحقيقيّة لأي منهما.





"على آخر نفس"...





حينما وصلنا الفندق كان علينا أن نرتّب حاجاتنا وننام، ولا أظنني نمتُ تلك الليلة.

كانت الفكرة تثيرني وتتعبني.. أنا في صنعاء القديمة القديمة.. أريدها كلّها.. كظمآن في صحراء على مشارف واحة.

من نافذة الفندق تبدو صنعاء القديمة حلماً، تستلقي هنا، منذ سبأ قبل آلاف الأعوام، بل منذ بناها -كما يُقال- سام بن النبي نوح.

وصنعاء[٢٢].. أو "أزال" -وكلاهما بمعنى الحصينة المنيعة- متحف

(٢٢) صنعا، مصنعة، مصانع، صنعة، مصنعة: معناها حصون باللغة الحميرية القديمة، وفي القرآن الكريم: "وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ" (١٢٩) سورة الشعراء.

بحجم مدينة.. مجسّم عملاق يشبه المجسمات الجصيّة الصغيرة لعمارتها العجيبة التي طالما فرحتُ بها مختبئة بين أكياس الزبيب واللوز وأطواق العقيق اليماني وعلب العسل وهدايا القادمين من اليمن.

كانت الفكرة التي أرّقتني "من أين أبدأ؟، وكيف أستطيع أن أرى كلّ شيء في بضعة أيام"؟.

أذان الفجر.. بداية يوم جديد.

حينما طلع الصباح أخيراً، كنتُ قد وجدت جواب: سأبدأ من خارجها حتّى أصل قلبها، كي أستوعب -تدريجيّاً- جمالها.

من خارجها أي من قصر دار الحجر وشبام كوكبان.. وقبلهما من فوق جبل "عصر".

المعماريّ -بشكل خاص- لا يستطيع التفاهم مع مدينة لم يرَ مخططاتها أو صورتها الجويّة.. ما لمْ يُشرف عليها من علو.. كان لا بدّ إذاً من صعود جبل "عصر" الذي يحتضن صنعاء من غربها، لأراها ككل فأفهمها.. كما أحتوي دمشق كلّها وأفهمها أكثر من فوق جبل" قاسيون".

ومنظر صنعاء من الأعلى مختلف.. مخطوط فريد لكاتب خلّاق عاشق للتفاصيل.

من عليائها.. تطلّ صنعاء بكبرياء على الهضاب والجبال.. مرآة لمبدعها... ممتلئة بذاتها.. متميزة عن قريناتها.. السهل الممتنع.. إذ يعسر اختراقها، لكنّك تمتلكها حين تُجيد قراءتها.



من هذا المكان مارستُ متعتي كمعماريّة في استشفاف خطوط وجه المدينة، حاولتُ أن أرسم بذهني الملامح العامّة لشخصيّتها، وهذا ما لا أقرّ عيناً في أيّ مدينة أزورها حتّى أفعله.. أحببت نسيجها المتلاحم الحميم كمعظم المدن العربيّة القديمة، ولفت نظري تخلله بفراغات واضحة بعضها خضراء وبعضها ساحات.

أما البساتين الخضراء فقد عرفتُ لاحقاً أنّها "مقاشم"(٢٣) المساجد التي تمدّها بمياه الآبار، وتستوعب تصريف مياهها، وغالباً ما تضمّ أشجاراً مثمرة كالتين والمشمش وأنواع الخضار التي يستفيد منها سكان الحارة المحيطة بالمسجد، رئات للأحياء الصنعانيّة المكتظة، يمتّع الجالسون في "المفارج"(٢٤) بطبيعتها الخضراء أنظارهم.

---

(٢٣) المقشامة أو المقشم: بستان ملحق بالمسجد، يكون فيه بئر الماء و تصرف إليه المياه المستخدمة، ويستفيد السكان من نتاج أشجاره، وهي رئة للبيوت المحيطة.

(٢٤) المفرج: غرفة مخصصة للاجتماعات وتناول القات عادة في البيت الصنعاني، تطل نوافذها =

أمّا الساحات فتتوسط الأحياء، والساحة أو "الصرحة" أو "الرحبة" تسمّى عادة باسم الحيّ أو حارته الكبرى، وهي ميدان اجتماع الأهالي للتشاور وحل المشاكل، ومكان زفّة العريس وبداية تشييع الجنائز ومحط الأحمال عن الدواب، وساحة لعب الأطفال، وتجمّعات الأعياد والمناسبات.. وهي كذلك ميدان لترويض الخيول الصغيرة وتعفير الحمير، وتجميع الماعز قبل سراحها إلى المراعي خارج المدينة.

نتمهّل، في نزولنا من الجبل، لقراءة الفاتحة أمام صرح الشهيد المصريّ الذي بُني تخليداً لمئات من شهداء الجيش المصري الذين حاربوا في اليمن إلى جانب الجمهوريّة في حربها ضد الإمامة في بداية ستينيّات القرن العشرين[٢٥].

وعالياً فوق "عصر" أيضاً شُيّد النصب الصيني تكريماً للكثير من مهندسيهم وعمّالهم الذين قضوا في اليمن، والصينيون-بالمناسبة- هم أبطال شقّ الطرق في هذا البلد ذي التضاريس الوعرة، أبتسم وقد توارد إلى خاطري ما رواه لي صديق يمنيّ حول مهندس صينيّ عمل لفترة طويلة في مشاريع البُنى التحتيّة في اليمن.. كان "شانغ" المهذّب يردّ دائماً على

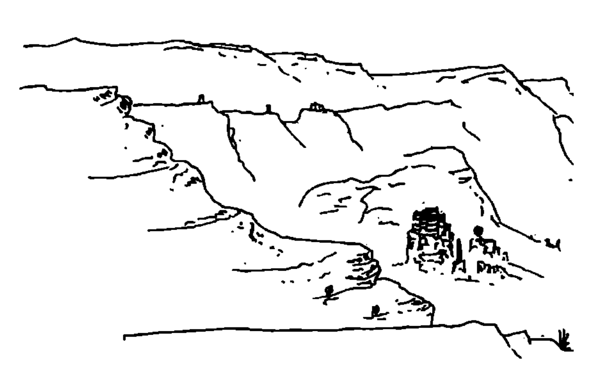
= الواسعة على الاطلالة الأجمل من المنزل الذي تكون عادة في أعلاه.

(٢٥) أرسلت مصر كتيبة قوّات خاصّة مصريّة (صاعقة) مهمّتها حراسة العقيد عبد الله السلال، ثم تسارعت الأحداث ووجد الرئيس جمال عبد الناصر نفسه مضطراً لإرسال المزيد من القوات لمواصلة دعم الثوار، وتصاعد عدد القوات المصرية في اليمن من ٥،٠٠٠ جندي عام ١٩٦٣م /١٣٨٣هـ، الى ٥٥،٠٠٠ جندي مصري في نهاية عام ١٩٦٥م/١٣٨٥هـ، وقد تصاعدت التحذيرات معارضة إرسال القوّات المصرية الى اليمن، ومقترحة الاستعاضة بدعم الضباط الأحرار اليمنيين بالمال والسلاح، ثم انسحب الجيش المصري عام ١٩٦٧م /١٣٨٧هـ، بعد اكتمال مهمّته في اليمن.

عبارات التقدير اليمنيّة بقوله "نحن "نتألّم" منكم" وهو يقصد "نحن "نتعلم" منكم"، لأنّه -كصينيّ- لم يكنْ قادراً بالطبع على نطق حرف العين(٢٦) .. وبعد أن خبرتُ بنفسي بعض تلك الطرقات الضيّقة المعلّقة على أطراف الجبال اليمنية الشاهقة حيث لا تكاد تجرؤ على النظر إلى الأسفل.. فأنا شخصيّاً أميل إلى الاعتقاد أنّ شانغ وزملاءه ربّما كانوا يقصدون المعنيين معاً.. ويستحقّون منّا أن نترحّم على أرواحهم..

اختطّتْ صنعاء لنفسها، أسوة بكثير من المدن الكبيرة، طريقاً عريضةً تحيط بها دائرياً: سواراً يسهّل على الناس التنقّل بين أطرافها دون ولوج قلبها المزدحم، نستقلّه اليوم في مشوارنا إلى قصر دار الحجر على بعد ١٤ كم شمالي غرب صنعاء.

قصر أُشيد -منذ ثلاثمئة سنة- على صخرة جرانيتيّة ضخمة (ولذلك سمي بدار الحجر) في سفح "وادي ضهر" حيث تلتقي السيول؛ لتخلق واحة خضراء تزيّنها بساتين الفاكهة، ولاسيما الرمّان والأعناب، وتجري من تحتها الجداول والسواقي، والوادي -الذي اصطفاه الملوك والحكّام منذ القدم منتجعاً لما يتمتع به من جمال وتنوّع طبيعي- عرف



(٢٦) حتّى في اليمن هناك مناطق لا ينطقون حرف العين بها، كسكّان تهامة (الحديدة).

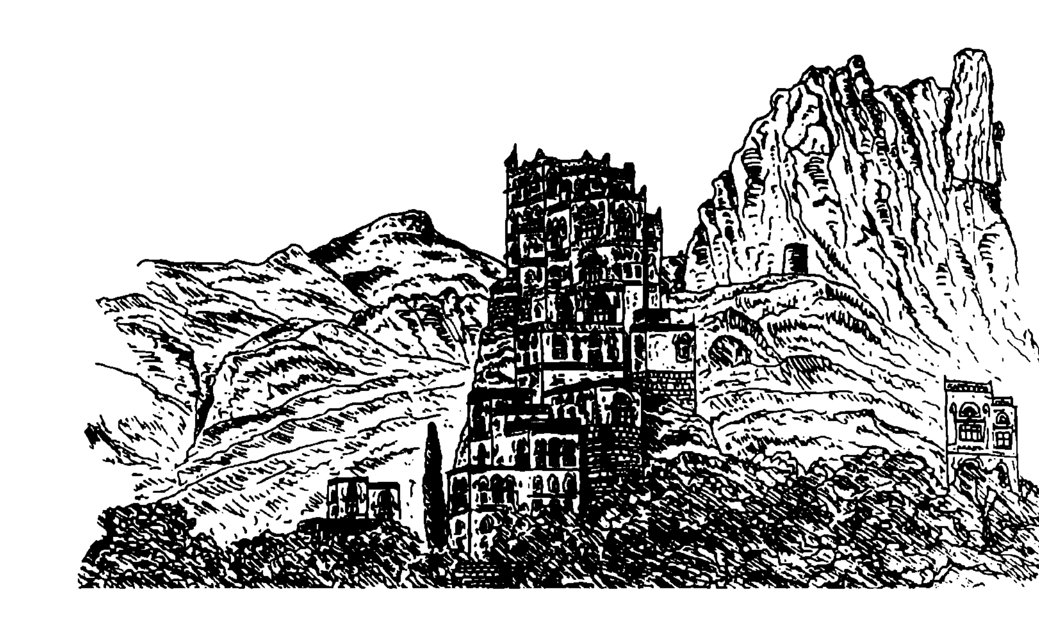
الكثير من القصور[٢٧] التي بناها حكّام اليمن المتعاقبون[٢٨].

يتدرّج قصر دار الحجر بأدواره السبعة متناغماً مع تكوين الصخرة الطبيعيّ، بين جنباتها نُحتتْ حجراته الـ٣٥ بنقوشها البديعة وزخارفها الملوّنة، وفي أعماقها حُفرت المخازن الأرضية والدهاليز المزدانة بالأعمدة

---

(٢٧) وأبرزها قصر فدة في جنوب الوادي، وهو القصر الذي هدمه الأتراك بعد قدومهم الثاني إلى اليمن منتصف القرن التاسع عشر وقصر دورم شرقيه، وقصر منيف غربيه، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

(٢٨) دخل الإسلام اليمن في العام ٨ للهجرة (٦٢٩ للميلاد)، وظلّ تحت حكم الخلافة الراشديّة والأمويّة والعباسيّة حتى حكم المأمون، حيث اشتدّ ظلم الولاة فاستقلّت اليمن دويلات، ولم تتوحّد إلّا في ظلّ الدولة الصليحيّة والرسوليّة، وحكمها الأئمّة الزيديّون لمدّة ١٢٠٠ سنة بفترات تقطّعت بتدخّلات منها الخلافة العثمانيّة، التي احتلّت اليمن لأوّل مرة عام ١٥٣٨م/٩٤٥هـ، وتمكّن الإمام محمّد الملقّب بالمؤيّد بن القاسم من طرد الأتراك من اليمن عام١٦٣٥م/ ١٠٤٥هـ، لتكون بذلك أوّل ولاية عربيّة تخرج عن فلك الدولة العثمانيّة (التي ستعود إلى اليمن ثانية عام١٨٥٠م/ ١٢٦٦هـ أي بعد أكثر من قرنين من الزمان)، وبخروج الأتراك تمهّد الطريق لتوحيد اليمن للمرّة الثالثة في الزمن الإسلامي، على يد الإمام المتوكّل على الله إسماعيل بن القاسم أخو المؤيّد السالف الذكر الذي مدّ سلطانه إلى جميع بقاع اليمن من مكّة شمالاً إلى عُمان جنوباً، واستمرّت هذه الدولة موحّدة أكثر من مئة عام لتواجه الحملة العثمانيّة من الخارج والأطماع الاستقلاليّة في الداخل مما أدّى إلى انحسارها في الإقليم الشمالي الغربي. ثم تعددت الحملات العثمانيّة حتى انتهتْ بنهاية الدولة العثمانيّة نفسها وعقدها مع الإمام يحيى حميد الدين صلح دعّان ١٩١١م/١٣٢٩هـ وتسلّمه الحكم ليصبح الرجل الأقوى في شمال ووسط اليمن باستثناء المناطق الجنوبيّة والشرقيّة التي كانت واقعة تحت الاحتلال الفعلي أو الحماية البريطانيّة منذ عام ١٨٣٩م/١٢٥٥هـ، وانتهى حكم الإمامة في اليمن الشمالي بثورة ١٩٦٢م/١٣٨١هـ التي نقلته إلى النظام الجمهوري. بالمقابل في جنوب اليمن كان الاحتلال البريطاني قد أنشأ عام١٩٥٩م/ ١٣٧٩هـ (اتحاد إمارات الجنوب العربي) المؤلّف من ست دويلات واتسع ليضم سبعة عشر دويلة وعُدّل اسمه إلى (اتحاد الجنوب العربي) ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ، واشتدّت الثورة التي اندلعت ضد البريطانيين عام ١٩٦٣م/١٣٨٣هـ حتى نال جنوب اليمن استقلاله الرسمي عام ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ، وهو ما مهّد لقيام دولة اليمن الديمقراطيّة الشعبيّة، واتّحد اليمنان لتكوين الجمهوريّة اليمنيّة عام ١٩٩٠م/١٤١٠هـ.



والعقود الحجريّة، وكذلك الأدراج المتعددة ببراعة ودقّة يدعو للعجب..

وفي "المفرج" البهو الواسع.. بسقفه العالي الذي زيّنت إطاره الزخرفة الجصّية المُتقنة، حيث اعتاد الإمام أن يجلس وضيوفه ليطلّوا من النوافذ الواسعة على الأحواض المائية المدرّجة المبنيّة بإحكام هندسي من صخور "الحبش الأسود"، وما تحتها من مساحات خضراء شاسعة تذيّل رداء الصخرة العملاقة، هناك.. جلستُ مبهورة أتأمّل كيف تخلّد العمارة تاريخ الحكّام والملوك والشعوب، وتعكس مفاهيم وقيم عصورهم، فيذهبون وتبقى أصدق ما يعبر عنهم، على رأي الصنوبري[٢٩]:

(٢٩) الصنوبري: شاعر ببلاط سيف الدولة، القرن الرابع الهجري، يعتبر شاعر الطبيعة الأول في التاريخ العربي، توفي عام ٩٤٦م/ ٣٣٤ هـ.

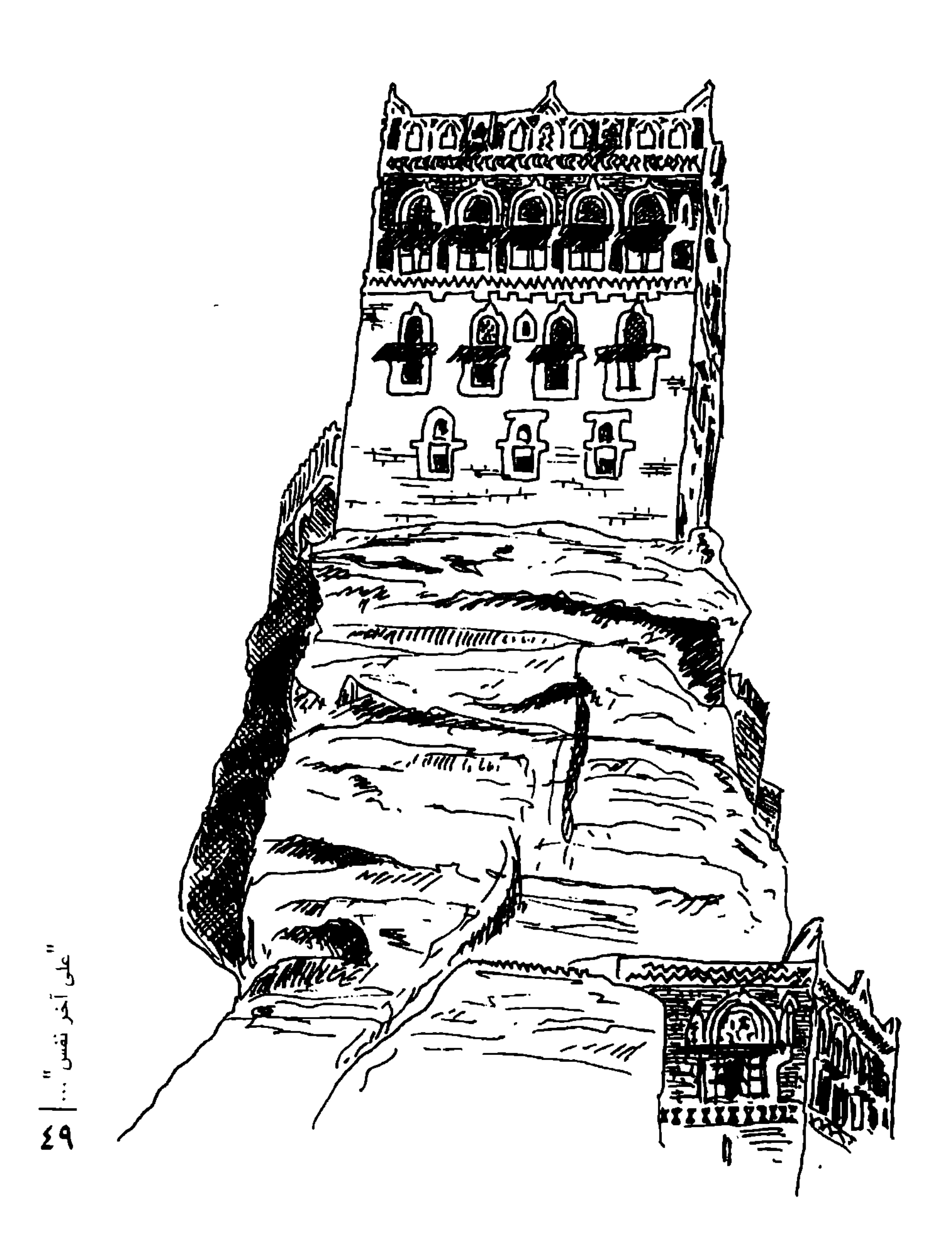
منازلُ قومٍ حدّثتنا حديثهم   ولم أرَ أحلى من حديث المنازل.

في أواخر القرن الثامن عشر الميلاديّ، وبأمر من ملك اليمن حينها الإمام المنصور علي بن العباس، قام المعماري والفلكي والشاعر "علي بن صالح" بتصميم دار الحجر -أو قصر الرمّان كما يدعونه- على أنقاض معبد قديم، ومن يومها يُحيك اليمنيون حول هذا القصر الضخم الذي طالما صمد في حالات الطوارئ بما فيه من آبار ومخازن مؤن تؤهله للاكتفاء الذاتي- عديداً من الخرافات(٣٠) ، ويُطلقون عليه اسم "قصر العجائب"، معتبرين أولى أعاجيبه الكثيرة موقعه المحصّن وبوّابته الكبيرة بشجرتها الوارفة "التالوقة" المنتصبة على يمينها منذ أكثر من ٧٠٠ عام.

أما أنا فأضع في مقدّمة أعاجيبه سحره وجاذبيته التي تُغري السيّاح، فتقنعهم بالإقدام على تسلّق كلّ تلك السلالم الحجرية المتعرجة اللامتناهية من أسفل المبنى المدهش إلى أعلاه بحماسٍ وإقدام، وكم أسعدني أنّ نزولها لم يحمل مشقّة الصعود.. فالحق -لا أخفيكم- أنّي كنتُ قد وصلتُ أعلى القصر "على آخر نفس"...

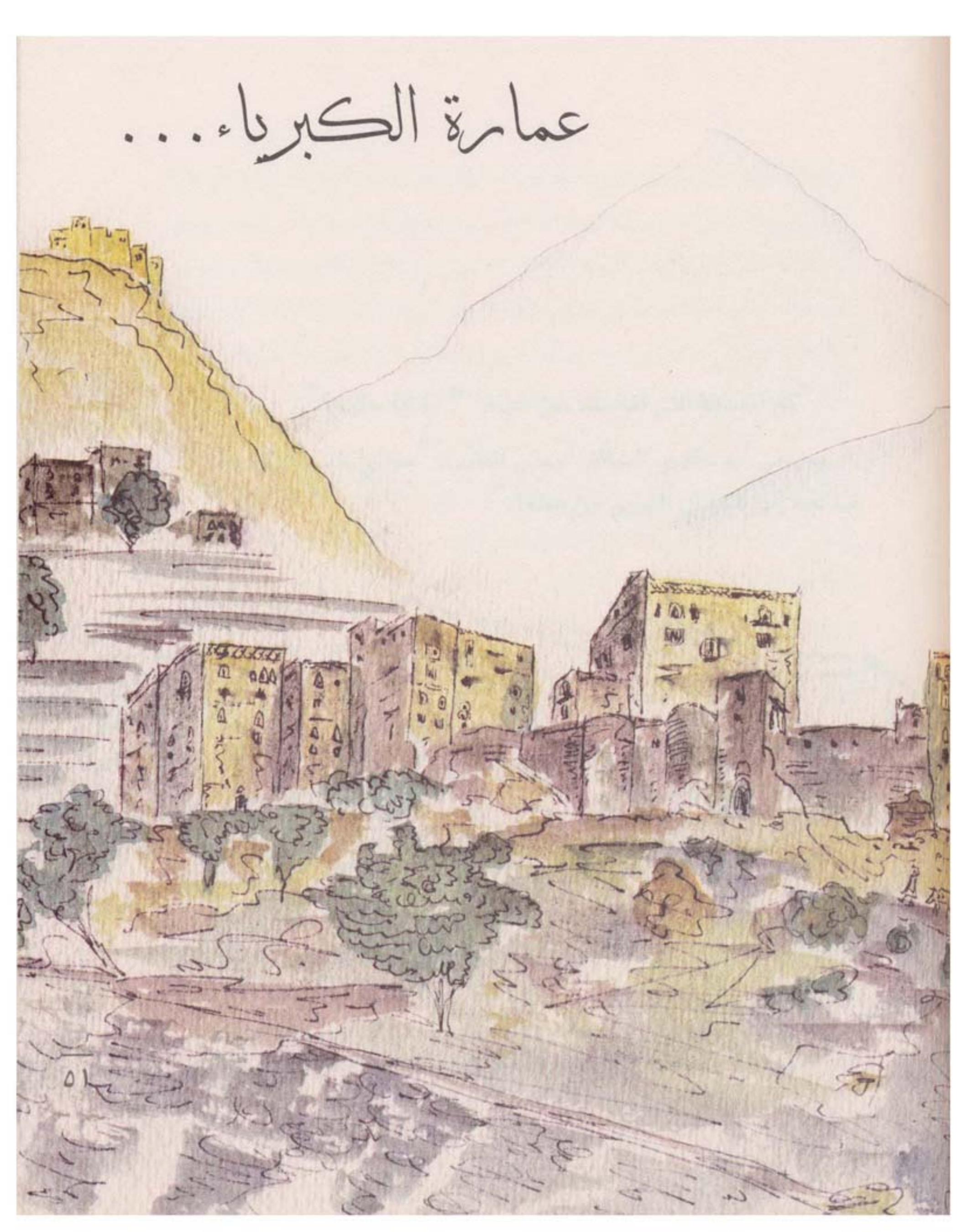
---

(٣٠) بعض المسنّين من أبناء المنطقة يقولون إن القصر ظلّ بعد مقتل الإمام المنصور فيه مهجوراً لسنوات طويلة، وذلك يعود إلى الاعتقاد الذي سيطر على الأئمة المتعاقبين على حكم اليمن، وهو أن هذا القصر "نحس على الأئمة"، وعلى الرغم من ذلك بنى الإمام يحيى -الذي حكم اليمن عقب حكم الأتراك- في الوادي قصرين لنفسه، وقبل سنوات من وفاته، قرر تحطيم الأسطورة، فقام بترميم قصر الحجر من جديد، وأقام فيه أدواراً إضافيّة من الياجور (الطوب الأحمر)، وشيّد إلى جواره مسجداً أسماه (مسجد المتوكل)، وذلك كي يقيم فيه مع أهله في فصل الخريف من كل عام.





عمارة الكبرياء...



-"كم المسافة التي تفصلنا عن شبام[٣١] يا أبا حكيم؟".

يجيبني أبو حكيم، السائق اليمني الطيّب: "حوالي خمسين كيلو متر.. سنتّجه إلى الشمال الغربي من صنعاء".



(٣١) شِبام: اسم لعدّة مدن في اليمن ومنها: شِبام حراز، شبام كوكبان، شِبام القصّة في الجوف، شبام الغراس، شبام حضرموت، وهذه الأخيرة يُعتقد بأنّها سُمّيت باسم مِلكها شبِام بن حارث بن حضرموت بن سبأ الأصغر.

ها نحن داخل السيّارة السوداء العالية، أبو حكيم وفوزيّة وأنا، وفوزيّة هي السيّدة اليمنيّة اللطيفة التي تطوّعت لمرافقتي خلال زيارتي لليمن، وجهها المبتسم دائماً، الملوّح بسمرة خفيفة لا يشي بحقيقة أنّها في نهاية عقدها الخامس، علّمتْها الحياة ما عوّضها عن عدم استكمالها التحصيل العلميّ.. وأهم ميزاتها بالنسبة لي أنّها صديقة صبور، لطيفة المعشر، تتفهم تَوْقي الشديد لرؤية كلّ ما في اليمن، وتجيب بصبر على أسئلتي التي لا تنتهي.

نحن الثلاثة إذاً في طريقنا من صنعاء إلى شِبام.. ولكنْ مهلاً.. في اليمن "شِبامات" عدّة.. مدن وقرى، وهذه ليست شِبام حضرموت التي سأحدّثكم عنها لاحقاً.. بل شِبام أخرى.. شِبام كوكَبان (أو شبام أقيان أو حِمْيَر).

وربّما كانت أوجه الشبه بين الشبامين هو سبب تطابق تسميتهما، فكلتاهما تزهوان بأبنيتهما العالية منذ مئات السنين.. وإن كانت شبام كوكبان مبنيّة من الطين المشوي (الآجر).. في حين شُيدت شبام بالطين المجفف بأشعّة الشمس (اللَّبِن) في وادي حضرموت.

بُنيت شبام حضرموت على تلّة وسط وادي حضرموت، واختارت شبام كوكبان بدورها حضن جبل (كوكبان) من حيث تطلّ على واديي النعيم والأهجر.. ربضتْ هناك منذ زمن طويل.. ربّما منذ القرن السابع قبل الميلاد كما تشير النقوش المدوّنة بخطّ المسند.

يتلوّى الطريق وسط هضاب عالية، أعلاها -وأعلى جبال الجزيرة

العربيّة قاطبة- جبل النبي شعيب[٣٢]، كتلها الضخمة تمنحني شعوراً بأنني في عالم أسطوريّ أحكمت تفاصيله بُغية الإبهار، نخترق السهول والمدرّجات البديعة التي نحتها اليمنيون على سفوح الجبال بمهارة ودأب مذهلين، فكّرتُ أنّ النقوش "افترشت" كلّ شيء في هذه البلاد. يبدو أنّ النقش هواية يمنيّة يمارسها الجميع بمهارة هنا.. حتى الطبيعة، يوحي لي بذلك الجبل الضخم الذي مررنا به والذي حفرتْ الطبيعة الثقوب والفتحات على وجهه وسُمّي لذلك ب"المنقّب".

في نهاية سهل "قاع المنقب"، و عند مفترق الطرق، نتجاوز يافطة كُتب عليها: "حبابة-ثُلا"، باتجاه شبام، عرفت من فوزيّة أنّ الأولى يشتهر أهلها بالتجارة، أمّا بلدة ثلا فهي مشهورة بحصنها القديم، للأسف لن يكون لدينا الوقت اليوم لزيارة أيّ منهما على كلّ حال.

أخيراً... بدتْ شبام كوكبان أو «يحبس» -اسمها الحميريّ القديم- متألّقة كعقد على جيد جبل كوكبان، ملامحها مازالتْ تحكي بقايا مجدها يوم كانت "شبام يعفر" عاصمةً

(٣٢) وارتفاعه يتجاوز ٣٧٠٠م، وتكتسي قمّته بالثلوج في أيّام الشتاء الباردة.

لدولة "آل يعفر"[٣٢] الحميريين قبل عشرة قرون، أمّا قمّة الجبل فتحتلّها مدينة "كوكبان" منبع الفن والشعر والأدب.



واليمنيّون -بالمناسبة- اعتادوا أن يبنوا في أعلى الجبال، لأسباب دفاعيّة ونفسيّة أيضاً، وربّما توفيراً لمساحة الأرض الصالحة للزراعة، قرىً يُبدع الشاعر السوريّ سليمان العيسى -الذي عاش سنوات طويلة في اليمن وعشقها- حين يُصوّرها ب"أعشاش النسور"...

تجتاز بنا السيّارة بوّابة سور البلدة... فعلى الرغم من أنّ موقع شبام كوكبان محصّن تحصيناً طبيعيّاً، أضاف عليها (آل يعفر) مزيداً من التحصينات الدفاعيّة كالأسوار إلى جانب القصور والمساجد والحمّام

---

(٣٢) دولة "اليعفريين" أو "الحواليين": ظهرت عام ٨٢٨م/ ٢١٣هـ، اتسمت بأنّها دولة علم وعمران، فازدهرت فيها جنان المعارف وأينعت ثمار العلوم، وأنجبت في أيّامها مفخرة اليمن الهمداني، والمحدث الكبير يحيى بن عبد الله بن كليب الحميري، وعُبّدت جميع طرقات مملكتها.

القديم والسوق الذي نخترقه مارّين أمام "السمسرة"[٣٤] القديمة، قبل أن تشير "فوزيّة" بيدها تلفت انتباهي إلى الجامع الكبير الذي يرجع للقرون الأولى للهجرة، المُحتفظ منذ اليعفريين وحتّى اليوم بعناصره المعماريّة وزخارفه الجميلة المنقوشة على خشب مصندقات سقفه.

أكثر من ستة آلاف شخص يسكنون هذه البيوت التي تحمل بعض أحجارها الضخمة نقوشاً قديمة، فوزيّة تقول: إنّ معظم بيوت بلدتي شبام وكوكبان بطرازها المعماريّ المميز قد بُنيت بأحجار جُلبت من المعبدين القديمين أعلى الجبل، وتسوق برهانها: "لذلك تلحظين تباين أحجار المباني مابين حجارة أثرية وأخرى منحوتة حديثاً".

في أعلى الجبل وقفتْ بنا السيّارة... ترجّلنا، ندع لعيوننا أن تؤدي صلاتها في تأمل المنظر الساحر.. الجبال الشاهقة والوديان السحيقة..

تمنيتُ لو كان لدينا الوقت لزيارة محافظة "المحويت" كلّها وقد سمعتُ مراراً عن طبيعتها الخلّابة، وها هو الدليل أمام عيني على مشارف مدخلها الشرقي تقريباً.

على اليمين أعلى جبل اللو (أو ذخار) المواجه، بدتْ بلدة كوكبان فوق سلسلة من المدرّجات الخضراء، أسفلها المشهد الفريد لكهوف المقابر التي نُحتت في الصخور، تابعتُ ببصري الطريق المتعرّجة الصاعدة إلى القمّة.. على هذه الدرب طالما حجّ سكّان المدينة إلى حيث كان هناك يوماً

(٣٤) السمسرة: وهي الخان في العمارة التقليدية، مركز تجمّع البضائع والقوافل والتجّار.

-كما تشير النقوش- المعبدان الكبيران للإلهين «المقة»[٣٥] و«عثتر»[٣٦]، وحيث يوجد اليوم بوّابة مدينة كوكبان.

ها أنذا أُطلّ على العالم من فوق ارتفاع ٢٤٥٠م تقريباً عن سطح البحر، أثارتني الفكرة.

المشهد لوحة فائقة الجمال بألوانها وتفاصيلها ومقاييسها العملاقة.. هنا تتجلى الحقيقة بخلودها وعظمتها.. الآن أدرك لماذا أفرزتْ هذه المنطقة الشعراء والفنانين[٣٧]... مشاهد كفيلة بإنطاق الحجر، فما بالك باليمنيين وهم "أرقّ قلوباً وألين أفئدة"؟!.

---

(٣٥) الإله المقه: الإله (ال م ق ه) أو (ال م ق ه و)، إله سامي قديم، عُرفت عبادته لدى اليمنيين (فترة ما قبل الميلاد والقرون الأولى الميلاديّة)، مُثّل برموز عدة منها القمرُ والشمسُ، والثورُ والهيئةُ المذكّرة للإله، وهو إله الخصب، أو النظام، أو إله الوعل، أو الإله المرضع أو الحامي أو إله النور. كان يحتلّ المرتبةَ الثانيةَ في صَيغ الدعاءِ بعد الإله عثتر والتي عادةً ما كانت تُخْتَتم بها النقوش. كان في بداية الأمر إلهاً لقبيلة سبأ ثمّ انتشر مع توسّع سلطتها حتّى أصبحت مملكة، وأقيمت له المعابدُ في صرواح عاصمتهم الأولى ومأرب عاصمتهم الثانية وبقيّة المناطق اليمنيّة، كما أوقفت له الأراضي والضياع الزراعيّة. نقل اليمنيون القدماء عبادةَ الإله المقه معهم إلى الحبشة في أوائلِ الألفِ الأوّل ق.م.

(٣٦) الإله عَثتر: إله ساميٌّ قديم (الألف الأوّل والثاني قبل الميلاد والقرون الميلاديّة الأولى)، وُصف بعدّة صفات ترتبط بالحياة والزراعة والريّ والماءِ والأمطارِ والحيوانات وأحياناً بالمقاتلِ، وربّما يمكن تفسيرُ انتشارِه ومكانته المتميّزة بصلته الوثيقة بعمليّة الريّ التي كانتْ أهمَّ مسألة حياتيّة في الممالك القديمةِ في جنوبيّ الجزيرةِ العربيّة. كان الإلهَ عثتر الإله الوطنيُّ للسبئيين في منتصف الألف الثاني ق.م، والإله الرئيسيّ لاتحاد القبائل السبئيّة والمعينيّة والقتبانيّة في بداية الألف الأوّل قبل الميلاد، وقد احتفظتْ الأقوامُ الثلاثةَ بعد الانفصال بالإله عثتر -إله القمر آنذاك- كإله رئيسيّ إلى جانب إلهها الخاص، وكانتْ تتوجه إليه كلُ الفعاليّاتِ الطقسيّةِ من الموظفين والحكام الكهنة، بينما كان (ال م ق ه) الحامي هو الذي يحمي عامةَ الناس.

(٣٧) ظهر من شبام كوكبان العديد من الفنانين والأدباء، ومنهم الثلاثي الكوكباني الذين كانوا من نجوم الغناء في اليمن في الستينيات من القرن العشرين، والفنّان محمّد حمود الحارثي.



لا أدري لماذا تواردتْ إلى ذهني فجأة أغنية حفظتها قديماً، سيطرتْ عليّ "سائليني يا شآم" بإلحاح، فاستسمحتُ فيروزيّة الصوت والشاعر سعيد عقل وأنا أردد بخشوع -بعد تحريف يتناسب واللوحة التي وجدتني داخلها- "وأين في غير "شبام" يُطرب الحجر".

كي أحتفظ بكل هذا السحر... أضبط آلة التصوير استعداداً لالتقاط بعض الصور.. ينتشلني من أفكاري الشاعريّة صوت أبو حكيم يشرح بحماس: "سقط أكثر من زائر من هنا ولاقوا حتفهم!" يقولها مبتسماً ويتطاول بعنقه لينظر بفضول إلى هاوية الوادي السحيق تحت أقدامنا.. كأنّه يبحث عن بقايا هؤلاء المساكين.

لا حول ولا قوّة إلّا بالله... سامحك الله يا "أبو حكيم".. أفسدت عليّ جمال اللحظة، عبثاً أحاول التركيز مجدداً على آلة التصوير واستعادة تسلسل حبل أفكاري.. فالفكرة أقلقتني.. شعرتُ بالدوار وهربتُ إلى السيّارة.

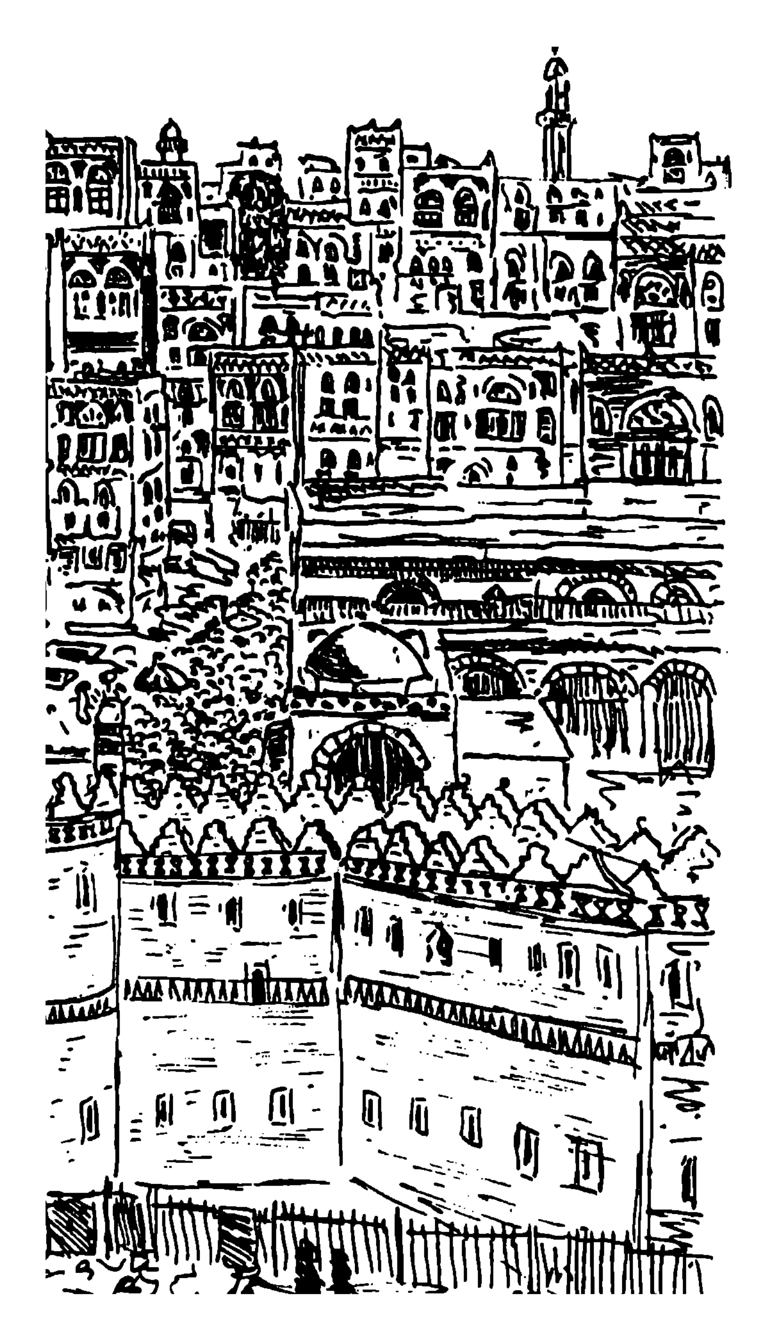
في طريق العودة إلى صنعاء.. المشهد الرائع لغروب الشمس بين التلال، اللون الأرجواني أضفى على كلّ شيء مسحة جمال هادئة، السيّارة تدور وتدور، تنزل ودياناً تبدو بلا قاع، فتبتعد القرى التي تربض فوق القمم لتزداد شموخاً ومنعة، تذكّرتُ مقولة الكاتب المصري فهمي هويدي(٢٨): "تتناثر القرى اليمنيّة فوق قمم الجبال في تكوينات لا يمكن لأحد أن يتصوّر أنها من صنع البشر، لا في الجمال، ولا في الموقع، ويدهشك، كيف حمل اليمني بجسده النحيل وسيقانه الرفيعة كتل الحجر إلى ارتفاع ثلاثة آلاف متر فوق سطح الأرض، لا ليبني قصراً أو معبداً، ولكن ليُنشئ قرية بأكملها، بل عديداً من القرى، ولا يكتفي بذلك، بل يعمد إلى تزيين واجهات بيوت تلك القرى بالأحزمة والحجارة الملوّنة، وعقود الزجاج المعشّق!".

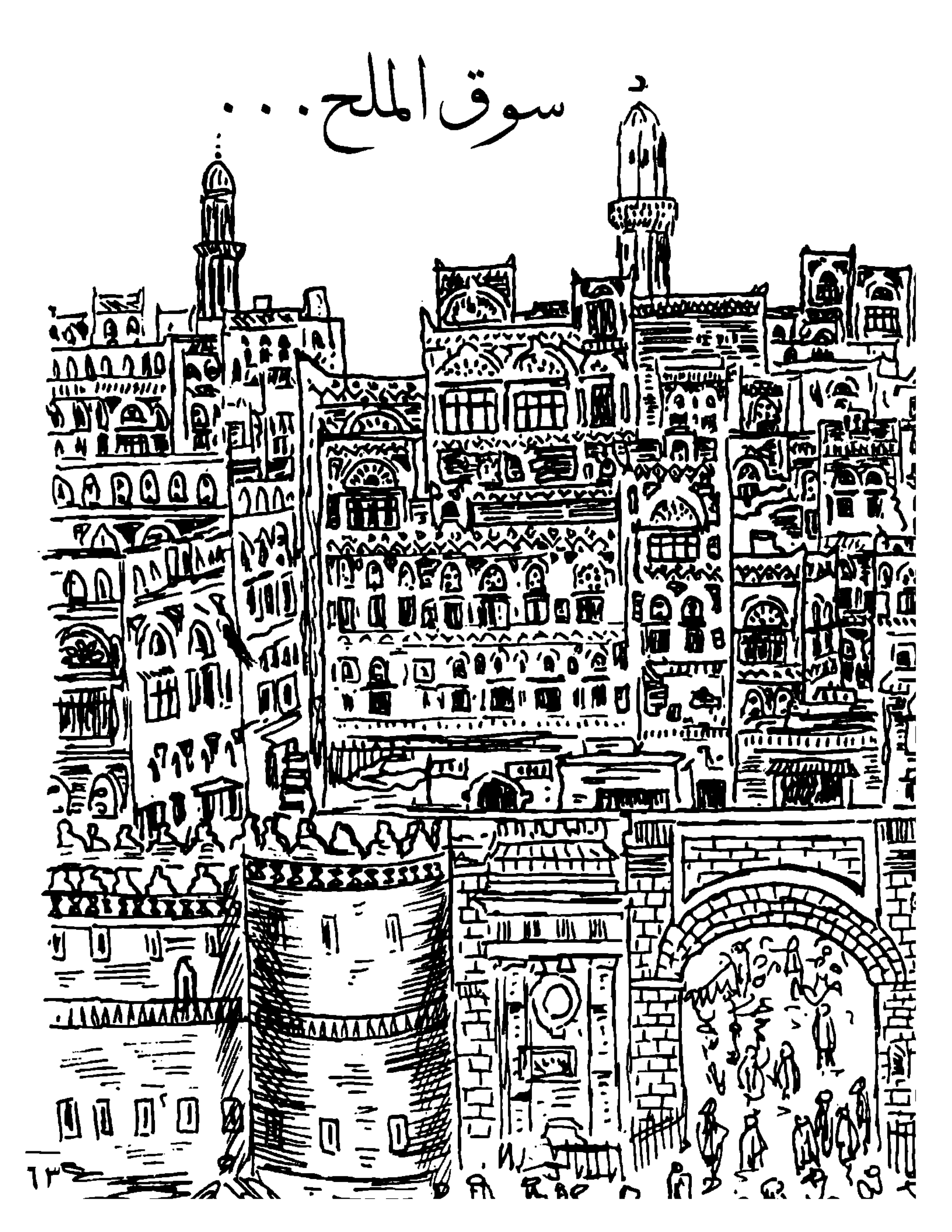
---

(٣٨) فهمي هويدي: صحفي وكاتب مصري معاصر، (مقال "العمارة اليمنية تتحدى"، مجلة العربي العدد ٢٤٦ عام ١٩٧٩م/١٣٩٩هـ).



عمارة اليمنيّ صورة روحه.. تشبهه.. تعكس كبرياءه وشموخه، تشفّ عن حسّه الدفاعي المتوقّد دائماً نتيجة ظروفه التاريخية.. تجسّد قوّته وعناده.. وفي ذات الوقت تشي بطوفان الحنان والرقّة الكامنتين في أعماقه، يبثّهما في تفاصيل مُبدعة ينقشها على وجه عمارة تبدو مثله: قاسية في خطوطها الرئيسة... مُرهفة في دقائق حناياها.




سوق الملح...

لا بُدّ من صنعا وإنْ طال السفر
وإنْ تحنّى كلّ عود وعقر

وها أنا في صنعاء... "أمّ اليمن وقطبها وإحدى جنّات الأرض" على حد تعبير الهمداني[٣٩] ... "أتشرّب" روحها شيئاً فشيئاً...

و"روح" المدن القديمة متشابهة، شيء ما يستولي عليك ما أن تلج من إحدى بواباتها، وأجمل مكان تدخل منه صنعاء القديمة هو "باب اليمن"، مدخل صنعاء القديمة الجنوبيّ منذ مئات الأعوام.

تأمّلت الطابع المعماريّ الفريد للبوّابة العملاقة التي جُددت آخر مرّة على غرار "قصر دُلْما بهجة" بوّابة الباب العالي في اسطنبول، البناء الضخم يُشكّل -بلا شك- علامة فارقة في السور الحجريّ الذي يلفّ صنعاءَ القديمةَ

(٣٩) الهمداني: هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود بن سليمان الأرحبي البكيلي الهمداني، موسوعي يمني معروف ب"لسان اليمن"، ولد بصنعاء سنة ٨٩٣م/ ٢٨٠هـ وتوفى في ريدة. اشتهر بالعلم والتأليف الغزير، فكتب "الإكليل" بأجزائه العشرة، وكتاب "صفة جزيرة العرب"، و"اليعسوب" و"الأيام والقوى" و"الزيج" و"شرح الدامغة" وغيرها.



بشكلٍ متعرّج (يُشبهُ شكَل الرقم 8 باللغة الإنجليزيّة أو بالأرقام العربيّة القديمة)، بطولِ أكثرَ من ستّة كيلومترات وارتفاع ثمانية أمتار.

من "باب اليمن" ألجُ عالماً طالما تقتُ إليه.. أعبره من خلال قسمه الأوسط، رفعتُ رأسي بشموخ وأنا أتخيّلني أحد فرسان جيوش الفاتحين التي انطلقت من خلاله إلى أصقاع الدنيا، أترجّل عن حصاني الوهميّ في ساحة تليه، تتفرع منها دروب صنعاء القديمة المرصوفة كلّها بالحجارة، كما ذكر ابن بطوطة "فإذا نزل المطر غسل جميع أزقّتها وأنقاها".

وصنعاء القديمة -التي كانت محطّة أساسيّة على طريق التوابل بين عدن ومكّة الذي حلّ محلّ طريق "اللبان" شرقي اليمن والمشهور منذ عصور ما قبل الميلاد- طالما اشتهرت بأسواقها..

وفيها اليوم ٤٨ سوقاً متخصصاً تضم أكثر من ١٧٠٠ محلّاً تجاريّاً، ولكلّ حرفة أو بضاعة هامة سوق خاصّ بها، فهناك سوق البزّ أو القماش، وسوق الحرير، سوق المبساطة أو القملة (الملابس القديمة)، سوق اللقمة، سوق الخريف (الفواكه)، سوق العنب وسوق الزبيب، سوق القات، سوق العلف، وسوق البقر، وسوق الحِبّ، وسوق الفتلة، وسوق الفضّة، وسوق النحاس، سوق الجنابي (الخناجر) وسوق العِسْوَب (الأغمدة)، سوق المخلاص، سوق النظارة، سوق الجديد وسوق الخياطة، وسوق الكوافي (أغطية الرأس)، سوق الحنّاء، سوق المصاون (البراقع والأقنعة) وسوق العطارة وسوق الجصّ (الجبس) والمفرقعات، ومن أشهرها وأقدمها على الإطلاق سوق الملح وهو أبهر قلب صنعاء.

"سوق الملح؟"، أسأل فوزيّة التي حاولتْ إضفاء وقار المعلّم على صوتها وهي تجيبني: "ربّما أتى الاسم من شهرة السوق بتجارة التوابل والبهارات"، ولكنني عرفتُ لاحقاً أنّ المؤرّخ أبو محمد الحسن الهمداني في كتابه «الإكليل» أورد أن التسمية كانت في الأصل سوق المُلَح (بضم الميم وفتح اللام) أي سوق كلّ ما هو جميل ومليح، وصُحّفتْ التسمية لاحقاً وصارتْ سوق المِلح (بكسر الميم وتسكين اللام).

روائح وألوان وأشكال وبشر تتدافع كلّها وسط أصوات تتعالى وتنخفض، زحام انخرط فيه وأعود مئات السنين إلى الوراء، فسوق هذه المدينة ما زال حريصاً على كثير من معالمه التاريخية وتكويناته الخاصة، منفصلاً بضوضائه عن هدوء وخصوصيّة الأحياء السكنيّة، وهو يحتفظ -ككثير من أسواق المدن العربيّة الإسلاميّة العريقة- ببعض حمّاماته القديمة،

كحمّام السلطان، وحمّام شكر، وحمّام الطواشي، وحمّام الميدان، وحمّام الجلاء، وحمّام المتوكّل، وكذلك "سمسراته" أو خاناته السلطانية.

في صنعاء القديمة -التي طالما كانت مقصداً للتجار من داخل اليمن وخارجها- أكثر من ثلاثين سمسرة أو جُمرك، وهي ما نعرفه في دمشق بالخان أو مركز تجمّع البضائع والقوافل والتجّار، وكان لهذه السمسرات -كما كان لسوق صنعاء كله- قانون يعرف بـ "قانون مدينة صنعاء"، وهو مجموعة من الضوابط والقواعد المتعلّقة بأسواق صنعاء، الأسعار والأجور

ومعايير الرقابة والجودة وتنظيم جماعات الحرف المتخصصة ومسؤوليّة العُقّال أو المشايخ وضوابط الأمن والحماية، وكذلك نظام شرطة خاص للحراسة برئاسة شيخ الليل، يضمن أمن السوق ومنطقته ليلاً.

وتجري في هذه السمسرات عمليّات التخزين والبيع والشراء والتبادل التجاري، بعضها كان يقوم بدور البنوك كتبادل وحفظ العملات الفضيّة والذهبيّة والنقود مثل سمسرة "محمّد بن الحسن"، وبعضها كانت نُزُل تُقدّم خدماتها للمسافرين والتجار ودوابهم وأمتعتهم مثل سمسرة "سمينة"، فيما تخصصت بعض السمسرات بتجارة سلع معينة مثل سمسرة "الشامي" المخصصة لبيع البنّ اليمنيّ المشهور، وكذا سمسرة الزبيب التي لاتزال حتّى اليوم تبيع مختلف أنواع الزبيب اليمنيّ المعروف بجودته، والذي يقدّم عادة للضيوف مخلوطاً باللوز البلديّ الصغير.. وليس أطيب من طعمهما معاً.

أستمتع بقضم حفنة منهما دسّتها فوزيّة في كفّي، بينما أنقّل البصر

بين تلال الزبيب المتنوّعة الألوان والأحجام المرصوصة أمام دكاكين الخان حولي.. فمن بين أصناف العنب اليمنيّة الكثيرة -التي تتنوّع أشكالها وألوانها ومذاقاتها وتزيد عن حاجة الاستهلاك- هناك أصناف معينة تُجفف لتُحوّل زبيباً يملأ الأسواق طوال العام، ويُصدّر بعضه إلى الخارج، أما الأعناب الأقلّ جودة فتُعصر في البيوت لإنتاج الخلّ أو منقوع الزبيب الطيّب ومشروبات شعبيّة أخرى.

وبالمناسبة فالعنب اليمنيّ من أجود أنواع العنب في العالم، وربّما لأنّه من أهمّ ما اعتيد جلبه من اليمن.. شاع المثل العربيّ الذي يُقال لمن عاد خائباً دون مأربه "لا طال بلح الشام ولا عنب اليمن".

ولأنّه موجود منذ القديم في هذه البلاد فهو متجذّر في تراثها وتقاليدها، ومعظم من كتبوا عن اليمن قديماً وحديثاً أوردوا ذكراً للعنب في كتاباتهم[٤٠].. فهو يُطلّ من كل ما فيها.. حتّى من أغانيها وأشعارها ونقوشها.. واسمعوا الفنان أحمد قاسم يغني كلمات الشاعر علي محمد لقمان[٤١]:

---

(٤٠) كأبي محمّد الحسن الهمداني في كتابيه "صفة جزيرة العرب" و"الإكليل"، والعلامة السوري المهندس أحمد وصفي بعد زيارته لليمن عام ١٩٣٦م /١٣٥٥هـ. وكذلك في كتاب "رحلة في بلاد العربيّة السعيدة من مصر إلى صنعاء" لنزيه العظم. وفي وصف اليمن وعاصمتها صنعاء ضمن كتاب "ملوك العرب" للأستاذ اللبناني أمين الريحاني المتوفى في ١٩٤٠م /١٣٥٩هـ، وغيرها.

(٤١) علي محمّد لقمان: نجل الكاتب والمحامي محمّد علي لقمان، ولد في كريتر (عدن)، سنة ١٩١٨م /١٣٥٥هـ وتوفي في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٨م/١٣٩٨هـ، شاعر غنائي معروف له العديد من الدواوين والمسرحيّات الشعريّة، أصدر أول مجموعاته الشعريّة عام ١٩٤٤م/١٣٦٣هـ، بعنوان "الوتر المغمور"، وأتبعه في العام التالي بمجموعته الثانية "أشجان في الليل"، وصدرت له أوّل مسرحيّة عام ١٩٤٨م/١٣٦٣هـ "بجماليون"، وخلال الفترة من ١٩٤٤م /١٣٦٣هـ إلى ١٩٦٩م/ ١٣٨٩هـ، صدرت له ثماني مجموعات شعْريّة، إحداها باللهجة العدنيّة، وسبع مسرحيّات شعريّة، وكتابان أحدهما في الشأن =

من كم تبيعوا العنب
حالي العنب حالي[٤٢]
وأصله عزيز غالي
يارازقي كم لنا في العمر نتمنى
نسهر على حبّنا بالعود والمغنى

وكذلك أبو بكر سالم[٤٣] حين يغنّي بكلمات الشاعر حسين المحضار[٤٤]:

صبر على الصبر ساعة
عسى بعد الصبر تشرب من الحالي[٤٥]
والصبر عند العرب طاعة

= السياسي، والآخر حول "فتاة الجزيرة" التي أسسها والده محمد علي لقمان.

(٤٢) حالي: أي حلو الطعم، والأبيات تواري غزل للحبيبة.

(٤٣) أبو بكر سالم بلفقيه: مغني مشهور من أصل يمني حضرمي، عمل في عدن كمدرّس، قام بتطوير الغناء الحضرمي، هاجر إلى السعودية واستوطن هناك وعمل في التجارة.

(٤٤) الشاعر حسين أبو بكر المحضار: ولد في مدينة الشحر عام ١٩٣٠م/١٣٤٩هـ، وتوفي فيها عام ٢٠٠٠م/١٤٢١هـ، نشأ في أسرة معروفة في حضرموت فهو حفيد الشاعر الشعبي المعروف حسين بن حامد المحضار، وجدّه لأمه الشاعر الشعبي المعروف أيضاً صالح بن أحمد خمور. له الكثير من القصائد المغنّاة، منها: دموع العشّاق، ابتسامات العشّاق، أشجان العشّاق، وحنين العشّاق.

(٤٥) الشاعر حسين المحضار يستخدم كلمة (الصبر) مرة بمعنى نبات الصُبر، ومرة بمعنى (الصَبْر)، بمعنى أنك لو صبرت على مرارة الصُبُر وشدة المصائب سوف تنال المراد وتشرب من الحالي، ويشيد بما هو معروف عن العرب من شدة صبرهم على المصائب إلى درجة أنه يشبّه ذلك بالطاعة، حيث تحثّ بعض آيات القرآن على الصبر وتشيد بفضائله، وما يناله الصابر من جزاء على صبره... وهي كثيرة في القرآن.

وعقب الصبر مضمونه
يازارعين العنب لِمَ تبيعونه؟!

تُخبرني فوزيّة: "مذاق العنب اليمنيّ خاص وشهيّ للغاية، وبعض أنواعه حلوة الطعم إلى درجة أنّ العصفور قد يترنح أرضاً أثر تذوّقها متأثراً بتخمّر سكرها الشديد.. ولو جئتِ اليمن في يوليو (تمّوز) ستجدين في أسواقه مهرجاناً من أصناف وألوان العنب اليمني التي تنتجها المزارع المنتشرة في مختلف أرجائه، لا سيّما صنعاء(٤٦) التي تصدّر سنويّاً زهاء ثمانين بالمئة من الإنتاج اليمنيّ العام للأعناب، وكذلك منطقة صعدة ونواحي الجوف ورداع".

ورغم صراعه مع القات، فعدد أصناف العنب الذي ما زال يُزرع في اليمن -وفقاً للموسوعة اليمنيّة - يصل إلى مايقارب الـ٦٠ صنفاً(٤٧)، بألوانه الثلاثة الرئيسة العسليّ (الأبيض) والأحمر والأسود(٤٨)، والتي

(٤٦) ومن المناطق المشهورة بزراعة العنب حول صنعاء الروضة وبنو حشيش.

(٤٧) أربعون منها تمّت تسميتها في كتاب "بلوغ المرام في شرح مسك الختام"، الذي ألّفه حسين بن أحمد العرشي، وهي: الأشهب، أصابع زينب، أطراف العذارى، البياض، بيض الحمائم، التبوكي، التربي، الجرشي، الجوزة، الجوفي، الحاتمي، الحبشي، الحسيني، الحمنان، الحلواني، الدُربُج، الدوالي، الذيبيني، الرومي، الزيتون، الزيدي، السكّر، القبّر، السيسبان، الشامي، الضروع، العذارى، العرقي، عيون البقر، القزاقز، القهمي، الكشمش، القوارير، المختم، الملاحي، الناهر، النشاني، النهر، النواسي، والوادي. ويذكر الهمداني في الجزء الثامن "الإكليل" ثمانية عشر صنفاً، منها خمسة لم ترد ضمن الأربعين اسماً أعلاه، وهي: السواد، الزيادي، الأمعر، الفارسي، والرازقي.

(٤٨) يوضح محمد بن علي الأكوع أن أجود أنواع العنب اليمني هي: الروضي والخولاني والرداعي والسواد، وأجوده الصعدي، والأحمر الملاحي، ولعله الحاتمي، والنواسي، والعيون، والضروع والقوارير. والسيسبان، والدوالي والرازقي.

يندرج تحتها أسماء عدّة، ومن أشهرها البياض والعاصمي والجبري والرازقي (وهو المفضّل في صناعة الزبيب)، وقد قال فيه ابن الرومي يوماً:

ورازقـي مخطّـف الخصـور
كأنّـــه مخـــازن البلّـــور
ألين في اللمس مـن الحريـر
وريحـه كمـاء ورد جـــوري
لـو أنّـه يبقـى على الدهور
لقرطقـوه للحســان الحـور

ومازال الرازقي ملك العنب، فبعد مرور ألف ومئتي سنة من ابن الرومي، ها هم اليمنيّون يتغنّون بالعنب الرازقي مع الفنّان فيصل علوي(٤٩) بشعر "القمندان"(٥٠):

---

(٤٩) فيصل علوي: فنان يمني ولد عام ١٩٤٩م/١٣٦٨هـ في لحج، كانت له شعبية كبيرة من طريقة غنائه العفوية البسيطة، ويعتبر من الرعيل المجدد للحركة الفنية في لحج إذ طوّر أداء الأغنية اللحجية، ونهل الكثير من فن "القمندان"، وهو من البارزين الذين أثروا المكتبة الفنية اليمنية بالعديد من الأغاني العاطفية والوطنية التي ألهبت المشاعر والأحاسيس على مدى أربعة عقود من الزمن على مستوى اليمن والخليج العربي، سجّل أول أغانيه في إذاعة عدن عام ١٩٥٨م/١٣٧٧هـ، توفي في فبراير ٢٠١٠م/١٤٣١هـ.

(٥٠) أحمد بن فضل بن علي بن محسن العبدلي "القمندان": ١٨٨٦-١٩٤٣م/ ١٣٠٣-١٣٦٢هـ أحد أمراء لحج الذين اختاروا الفن ومضوا في طريقه، فهو شاعر وملحّن وأمير ومزارع، استغل إمكاناته من أجل تطوير فن الطرب والرقص والشعر و"البستنه"، أحد المبدعين الذين أثروا الحياة الغنائيّة في اليمن، صمم أيضاً بعض الرقصات الشعبية، أحبّ البسطاء من الناس، فأحبه كل الناس، ترك تراثاً هاماً من الشعر وألّف كتاب "هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن".

عرف الند[٥١] والعود فاح
باسمر[٥٢] هنا للصباح
وباشلك[٥٣] على عاتقي
حالي واعنب رازقي[٥٤]

من سمسرة الزبيب إلى سمسرة الفضّة التي حرصتُ على زيارتها... ألسنا في مملكة الفضّة؟!

داخل المبنى القديم تمتعتُ بروعة الإبداع الحرفيّ التراثيّ اليمنيّ، هنا تُصنع وتُباع وتُشرى المصوغات والحلي والتحف والمشغولات الفضيّة التي استطاعت بمرور الزمن أن تصبح -على مستوى العالم- حرفة يمنيّة بامتياز.

أدخل دكاناً صغيراً، لا أرى البائع للوهلة الأولى، ثمّ -بعد أنْ اعتادت عيناي الظلّ- لمحته متربّعاً في الركن فوق البساط الملوّن الجميل الذي يتفننون بصنع أنواع[٥٥] عديدة منه في مختلف مناطق اليمن...

من وجنته المنتفخة أدركتُ أنني أمام القات، اللعنة التي تتبعك في كلّ مكان من اليمن.

(٥١) العرف: الرائحة العطرة. الند: نوع من أنواع البخور.

(٥٢) باسمر: سأسهر.

(٥٣) باشلّك: أي سآخذك معي.

(٥٤) الرازقي: من أجود أنواع العنب اليمني.

(٥٥) كالدريهمي، الحوك، بيت الفقيه، منظر، زبيد، المراوعة، الحديدي وغيرها.

يبدو البائع مسترخياً إلى درجة أنّه لم يأبه بقدومنا، حاولتُ أن أستفسر منه عن بعض المعروضات فصُدمت بردوده غير المشجّعة.

على الحائط لمحتُ خنجراً فضياً ذا حزام قماشيّ أخضر اللون مطرّزاً بأسلاك الفضّة، قلتُ لفوزيّة: "يمكن أن يكون هديّة جميلة أعود بها من صنعاء".

"هل لديك المزيد من الجنبيّات؟"، بادرته وفي ذهني رؤية خيارات أخرى منها، لكنّه هزّ رأسه بالنفي مباشرة وقال: "ليس لديّ أيٌّ منها".

أصررتُ بدهشة وأنا أشير بيدي إلى الخنجر المعلّق أمامي "هاك واحد في الركن".

ضاقتْ عيناه وهو يجيبني بعصبيّة حاسماً الأمر: "لا أنصحك بشرائه... فهو سيّئ الصنع".

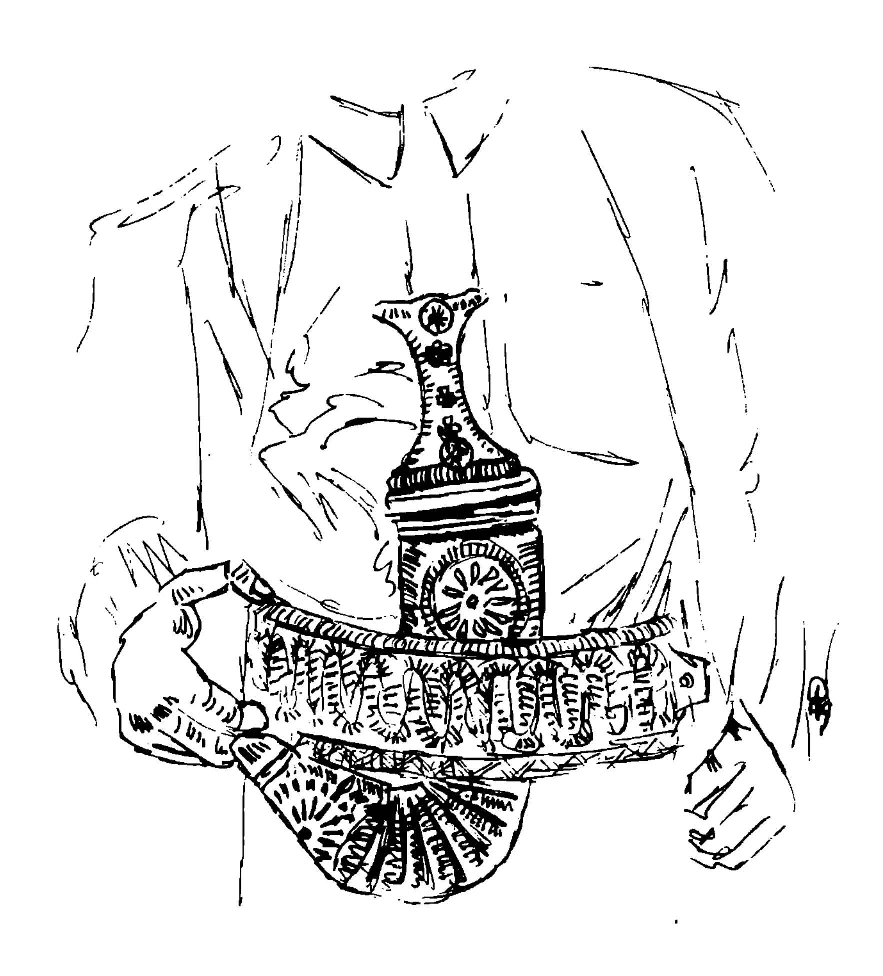
نزلتْ كلماته كالماء البارد على رأسي.. واشتعلتُ بالغضب.. كم يزداد كلّ يوم عتبي على القات ومآخذي ضدّه.

"عجباً.. بائع يرفض أن يبيع بضاعته؟".. علّقتُ بامتعاض.

قهقهت صاحبتي عالياً وهي تدفعني خارجاً قائلة "انسي الأمر.. صاحبنا مخزّن (يمضغ القات)... لن يُغادر مكانه ليقايض نشوته بكلّ مال الدنيا"!.



الجنبية.. زينة الرجال

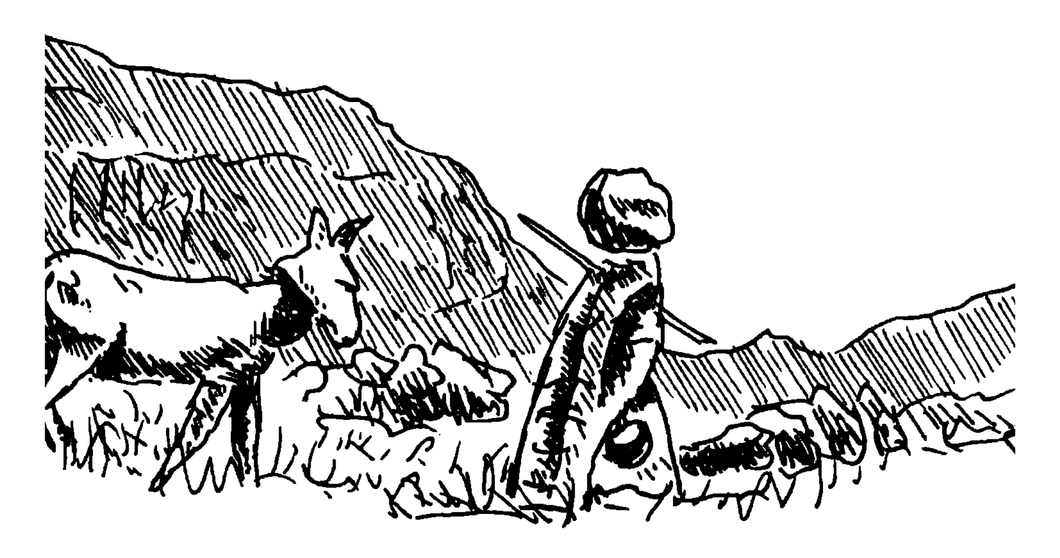


محمّد وحسن -كمعظم شباب صنعاء- دخلا حياة التجارة باكراً، تدرّبا على أيدي تجّار السوق القديم الأكبر سناً، ليكتسبا تلك العيون الخبيرة التي تميّز مباشرة دقّة العمل اليدويّ وقيم الأحجار وأصول النقوش.

الدكّان -كمثيلاتها في سوق صنعاء القديم- غرفة ضيّقة تغصّ بما فيها، الجدران مغطّاة تماماً بالحلي الفضيّة والخناجر والمشغولات التي رُصّت بشكل احتفاليّ مُبهر، تغريك بدخول المكان ثم تسيطر عليك ما أنْ تقبل.

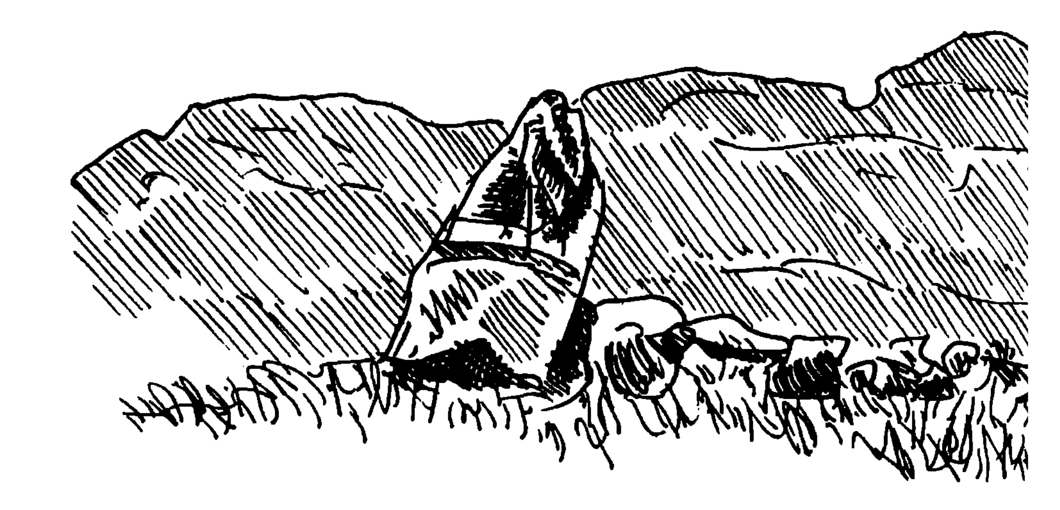
أراقبهما يحاوران اثنين من السوّاح.. الأصوات تعلو وتنخفض في جدال حول الأسعار، يصرّ محمّد وحسن بشدة على أنهما خاسران، قبل أن تأخذ الأسعار بالهبوط إلى أنْ تصل إلى سعر يرضيان به "لأجل خاطرك" مع أنّه -كما يؤكّدان- أدنى من سعر الكلفة.

أشفق على الزبون الذي توحي ابتسامته الراضية باعتقاده أنه نجح في عقد صفقة رابحة.. من يستطيع أن يتغلّب على تاجر صنعانيّ أو دمشقيّ؟ ألم يخرج اليهود -الذين لا يقارعهم أحد في أمور المال- من المدينتين فقراء؟... ثم تسمع الدمشقيين والصنعانيين يحذّرونك "انتبه... اليهودي يهودي ولو أعطاك زناره"!!.



لكي تزداد الصورة وضوحاً هنا، ألخصّها بقصّة الريفي الذي دخل فوق حماره مدينة دمشق، ولم يشتر أحد شيئاً من بضاعته، وحين أدركه الجوع، طرق باب أحد المنازل ليقايض حمله بشيء من الطعام له ولحماره، فأعطوه بطّيخة (حبحب) فقط، ورداً على استهجان صاحبنا قالوا: "ماذا تريد أكثر من ذلك؟ تستطيع أن تأكل البطّيخ وتُطعم حمارك القشور بل وتتسلى أيضاً بقضم البذور"...

أجل.. حقيقةً أنّ أهل دمشق يجيدون "استثمار" كلّ شيء.. وأذكر أن أحد ظرفاء اليمنيين تناول الغداء لدينا في دمشق ذات يوم، وكنتُ قد أعددتُ وجبة شهيّة من "محشي الكوسا"، وهو طبق مكوّن من ثمار الكوسا التي تُفرَغ من محتواها ليُحشى قلبها الفارغ باللحم والرز... توقّف



الضيف طويلاً أمام طبق شرحتُ له أنّه مصنوع من قلب الكوسا (الذي تمّ إفراغه) إذ أننا لا نرميه وإنّما نطهوه مع الثوم و الكزبرة... ابتسم أبو أحمد بمكر قبل أن يستدير إلى الحاضرين ليقول بهدوء: "أرأيتم أيّها السادة؟... لا أحد يستطيع أن ينافس أهل دمشق أبداً... يستفيدون من كلّ شيء... أو بحسب تعبيرهم "يحلبون النملة"... ومنذ ذلك اليوم كلّما التقيت به في أيّ مكان، داعبني بكلماته مبتسماً مُصطنعاً الدهشة: "حتّى قلب الكوسا؟... لا حول ولا قوّة إلا بالله"!.

أتأمّل الواجهة الزجاجيّة، مئات الأحجار الكريمة، وشبه الكريمة من كلّ مكان في اليمن.. "العقيق".. "المرجان".. "الأوبّالين".. و"اليسر" و"الكرب" الأصفر والأحمر و"الكهرمان" وغيرها.

توقّفتُ أمام أحجار الكهرمان (أو الكهرب) الصفراء.. تجذبني دائماً بلونها العسلي، أخرجتُ من حقيبتي قطعة منها كنتُ قد اشتريتها من حضرموت قبل أيّام، أريتها لمحمّد فأطرى عليها مؤكّداً أنّ أهم الكهرمان اليمنيّ في حضرموت، ومنه تُصنع أحلى المسابح التي تحتفظ دوماً برائحتها الذكيّة وتضيء ليلاً، وتُعلّق قطعه الصغيرة في المجالس اليمنيّة والمحلّات للتبرّك بها، ثم ينخفض صوت محمّد كمن يُفشي سرّاً خطيراً: يُقال إنّ "الكهرب" يستعمل أيضاً في صناعة بعض الأسلحة المتطوّرة"!.

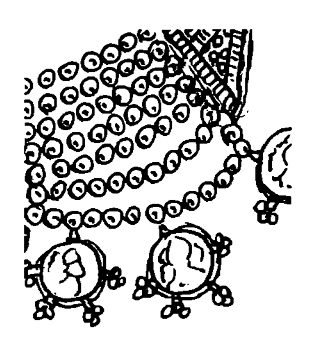
لكنّ للعقيق اليمانيّ حصّته الأكبر بين المعروضات، فهو من أشهر الأحجار شبه الكريمة في اليمن، وقد ذاع صيته في أرجاء العالم؛ لنقائه وصفائه وألوانه النادرة وميزاته في الصلابة ومقاومة الحموض(٥٦)، لذلك فضّله الفرس والروم على العقيق الهنديّ، واقتناه الملوك والأمراء، وهناك من يُرجع سبب شهرته أيضاً إلى حديث يُنسب الى الرسول صلّى الله عليه و سلّم: "تختّموا بالعقيق اليماني فإنّه أوّل منْ آمن لله بالوحدانيّة وشهد لمحمّد بالرسالة".

وبعد طول اعتقادي أن ألوان العقيق تتدرّج بين الأحمر والبني، ها أنا ذا أكتشف اليوم أنّ هناك عقيقاً أبيض "حجر القمر" وعقيقاً سماوياً وعقيقاً أبيض مخططاً (الجزع اليماني) وهو طبقات من لونين ويغلب عليه الأبيض والبني، ومنه العقيق "المشجّر" بأشكال ورسوم طبيعية، وهو

---

(٥٦) لذا تُصنع منه هاونات السحن وأدوات تكسير وخلط المواد الكيميائية. ويأتي معظم العقيق من محاجر في البرازيل والأروجواي، وقد كانت بلدة إدار. أوبرشتين الألمانيّة ولا تزال المركز الرئيس لقطع وصقل أحجار العقيق منذ مئات السنين.

أرقى أنواع العقيق المستخدم في الزينة ويوجد خاصّة في ذمار، وهناك العقيق "المزهّر" وهو ذو لونين أو أكثر منه الأبيض والأسود والأزرق.



ومن العقيق اليماني نوع يُسمّى "الزبرجد الذي "يُبهج القلب" (ويحمل أربعة ألوان الأزرق والأبيض والأخضر والرمادي) وهناك حجر "الدمّ"، حجر "الشمس"، حجر "السجين"، وحجر "الفيروز"، إلى جانب حجر "أضافير الشيطان"، وحجر "عين الهر" و"عين النمر" الذي يلتمع كأعين النمر عند تعرّضه للضوء، ولكلّ حجر قصة ولكلّ لون دلالته و فضله في المرويّات الشعبية...

لم يكن محمّد يحتاج إلى كثير من الفطنة ليدرك ولعي بالعقيق، لذلك استطرد بحماس: "لون يجلب الرزق ولون يقي من العين، ولون يمنح صاحبه الحظّ والجاه، ولون يشحذ العقل ويعطي الفصاحة، وآخر يهب لابسه قوّة النصر على الأعداء، ويملأ القلب شجاعة مقترنة بالفطنة والحذق، ولون يُضفي على حامله الصحّة وتيسير الأمور، لكن أشهر العقيق الأحمر: الرمّاني والكبدي، وهما أجود أنواع العقيق وأغلاها، ويُقال: إنّهما يجلبان البركة"، "وأكثر العقيق" -يوضح محمّد- "يأتي من حضرموت وصنعاء وذمار ولحج حيث ظل إنتاجه طويلاً حكراً على أسر معينة".

ثم دنا منّي وفتح كفّه عن قطعة عقيق مُبهرة ارتسم داخلها شكل طائر... كأنّ رسّاماً محترفاً استطاع الرسم داخل الحجر.. ليقول مفسّراً: "تتكون هذه الصور داخل العقيق -كما يقولون- نتيجة البرق أو عند

هطول الأمطار، ويُقال: إنّ بعض أنواع العقيق يحتفظ بآخر صورة أمامه قبل تصلّبه".. سبحان الله.

تقاطعه فوزيّة التي نادراً ما تحتفظ بمعلومة لنفسها، مخبرة إيّاه بالتفصيل عمّا حصل لنا مع جاره في الدكان السابق، وعن رغبتي بشراء جنبيّة أحملها معي هديّة إلى أصدقاء، فيقودنا محمّد إلى ركن "الجنابي" أو الخناجر، التي يضعها اليمنيّ على جنبه لتصبح جزءاً منه يرافقه طوال حياته، فهي بعض الزيّ التقليديّ اليمنيّ منذ القديم، ورمز براعة أهل اليمن تاريخيّاً في صناعة الحديد والصلب وخاصّة الأسلحة والسيوف.

يشير محمّد إلى مقبض من العقيق البنيّ، موضّحاً أن قيمة الخنجر اليمني أساساً -والذي قد يصل سعره إلى أرقام فلكيّة بحسب مواصفاته- تكمن في الرأس، أي المقبض الذي يتنوّع عادة بين الفضّة والخشب والعاج وحوافر الجمال وقرون الوعول والزراف، إلى أن يصل أغلاه وهو المقبض المصنوع من العقيق أو قرن وحيد القرن (الكركدن أو الخرتيت) والذي يصفو باستمرار دعكه بالزيت ليصبح مع تقادم الزمن صافياً كالبلّور، فيستحقّ عند ذلك لقب "الصيفاني" الذي يبلغ ثمنه أحياناً ملايين الريالات.

مررتُ بأصابعي على تفاصيل الخنجر الجميل المطعّم بالذهب والفضّة، كمعظم الخناجر اليمنية، على المقبض دائرتان معدنيّتان من الحديد (وأحياناً تكونان من الذهب أو الفضّة) هما "الزهرتين"، ويفصل المبسم -وهو شريط زخرفيّ فضيّ- بين المقبض والنصل، وعلى كلّ من وجهي النصل الحديديّ المصقول حُفر خطّ مجوّف يسمح بتسلل الهواء داخل

الجرح لضمان تسمّمه، أما الغمد أو العسيب فعادة ما يُصنع من الخشب الخفيف[٥٧] مثل خشب "البرقوق" أو "العنبرود" أو من خشب الصنوبر والطنب، وهو مغلّف بالجلد الملتف بحبال رفيعة وأنيقة، ويُثبّت الغمد على حزام من الجلد الخالص (وهو أنواع مثل المتوكلي والكبسي والطيري والمرهى والمركزي)، يُزيّن بتركيبات فضية أو مطليّة بالذهب على شكل هلال أو محفظة أو أشكال أخرى... والتطريز الفاخر للأحزمة-ككل الأعمال الدقيقة التي تُشغل بأنامل رشيقة. يتم عادة يدوياً من قبل النساء.

أجذب الكرسيّ الصغير لأجلس، إذ أصبح الأمر متعة حقيقية، محمّد يسهب في الشرح بشغف واضح عن أنواع الجنبيّات وتقاليدها: الجنبيّة أنواع، فبحسب شكلها مثلاً: هناك الجنبيّة "القديمي" والجنبيّة "القصبي" و"الحسيني" و"القبلي".

وللجنبية قيمة اجتماعيّة، فهي "زينة الرجال".. لا يخلعونها حتّى في الصلاة.. يضعون خلفها عادة (أو داخل العمامة)[٥٨] مسواكاً وسكّيناً صغيراً وملقطاً. وارتداؤها محكوم بأعراف قبليّة[٥٩]، تضبط استخدامها،

---

(٥٧) خشب التالوث والعشار هما أفضل أنواع الأخشاب التي يصنع منها الغمد العسيب.

(٥٨) فيما مضى، اعتاد الموظفون الكبار -كالقضاة خاصّة- وضع مجموعة أدوات خلف الجنبيّة وداخل العمامة، والطريف أنّ معظمها يبدأ أسمها بحرف الميم (لذا يدعوها البعض بالعدّة الميمية)، كالملقط و المسواك والمخرز والمشط والمكحلة و المرآة وموس الحلاقة والمحفظة والمحبرة والمبراة والمقلمة والمسبحة و المخيط والملعقة والمقشطة و المقص و غيرها.

(٥٩) ففي كتابه "الطريق إلى عدن"(ما زال مخطوطاً) يتحدّث الرئيس علي ناصر محمّد عن العقوبات التي جرى التعارف عليها كأحكام لمختلف القضايا الخاصة باستخدام الجنبيّة في الشرائع القبلية التي كانت سائدة في القرن الماضي: من يمسك قبضة جنبّيته بقصد سحبها على خصمه لإخافته أو تهديده ولم يُخرجها لوجود مانع حال دون ذلك، يُحكم عليه بغرامة قدرها ١٢ ريال فرنصة =



ليس من اليسير تجاوزها، والحفاظ عليها مرتبط بالكرامة والرجولة، يُقال مثلاً: إنّ مسافراً تعرّض لقطّاع طرق سلبوه ما معه وما عليه من ملابس قطعة قطعة، وحين اقتربوا من عسيبه صرخ قائلاً "إلاّ الخفنق لو سار رأسي" والخفنق هو العسيب... وذهبت مثلاً.

ولأنّ الخنجر -بالنسبة لليمني الذي اعتاد أن يتقلّده على حزام فوق خصره- هو لباس تقليدي أكثر منه سلاح، وتحكمه الأعراف، لذلك قلّما تُسمع حوادث استُخدمت فيها الخناجر، إلّا في بعض المناطق التي يقولون فيها "إنّ الجنبيّة إذا خرجتْ من غمدها لا يجوز أن تعود دون دم"، تسري قشعريرة في أطرافي، وأنا أسمع هذه الكلمات.. لا أحبّ أن أختبر ذلك بنفسي أبداً.

أسأل فوزيّة، وقد جلستْ قربي فوق كرسيّ خشبيّ منخفض، نحتسي

= (ريال ماريا تريزا الفضي) و "مسند وتعشيرة"، حيث يذهب الجاني وقبيلته في موكب قبليّ يسمى "مسند"، يُطلقون النار أمام بيت الشخص المجني عليه كنوع من الاعتذار، وطلباً في مسامحة الجاني، وجرت العادة أن يُرحّب أهل المجني عليه بالضيوف، ويذبحون لهم الذبائح، ويكرمونهم، ويقبلون اعتذارهم، وفي أحيان كثيرة يردّون الغرامة ويكتفون بالاعتذار.

الشاي الساخن الذي قدّمه لنا حسن في أكواب زجاجيّة صغيرة ملوّنة: "منذ متى عرف اليمنيّون الجنبيّة؟"

الإجابة تأتيني من حسن الذي يجذب كرسيّاً لينضم إلينا، وقد خلا المحل في هذا الوقت من غيرنا من الزبائن: "منذ غابر الأزمان.. يبدو أنها وُلدت قبل الميلاد بعدّة مئات من السنين، بحسب ما وُجد في القبور، ارتداها السبئيون أيّام الدولة الحميَرية، وتمثال "معد يكرب"(٦٠) يُظهره وهو يتمنطق بجنبيّته، ومقابض الخناجر اليمنيّة القديمة زُينت بالنقود الحميريّة.

والجنبيّة الجيّدة، يا سيّدتي، تُتوارث،لا يبيعها اليمنيّون حتّى ولو بلغتْ بهم الحاجة والجوع مبلغاً، يتفاخرون بها، فتُنسب صُنعاً ومُلكاً، يقولون جنبيّة صنعها فلان وملكها فلان.. وهناك عائلات معدودة متخصصة في صنع الخناجر الجيّدة (خاصّة في حضرموت)(٦١) اعتادت أن تصنع جنبية واحدة أو اثنتين في السنة حرصاً على دقّة العمل وحفاظاً على سمعة الجنبيّة، ولبعض الجنبيّات القديمة المشهورة قيمتها التاريخيّة كجنبيّة الإمام شرف الدين أحد أئمة اليمن في القرن السادس الهجري، والموجودة اليوم بحوزة عائلة الشيخ عبد الله الأحمر رحمه الله".

(٦٠) تمثال معد يكرب من البرونز، موجود في المتحف الوطني بصنعاء،عُثر عليه عام ١٩٥٢م/١٣٧١هـ بمعبد آوام «محرم بلقيس» بمدينة مأرب العاصمة التاريخية لمملكة سبأ، يعود للقرن السادس قبل الميلاد.

(٦١) تعتبر جنبيات حضرموت أشهر الجنابي، خاصة صنعة «البرامي» وهو رجل يهودي صنع في حياته ٢٥ جنبية فقط.

وإذا كان المكتوب يُقرأ من عنوانه فالخبراء يستطيعون معرفة الكثير عن اليمنيّ من تفاصيل جنبيّته التي تتناسب عادة مع مكانة الرجل وثرائه، يُشير نقش حزام الجنبيّة مثلاً، واتجاه توضّعها على الخصر إلى طبقة حاملها الاجتماعيّة، ففي حين يضعها القبيلي متعامدة مع الخصر باتجاه الأعلى، يضعها القضاة والسادة مائلة لليمين أو اليسار".

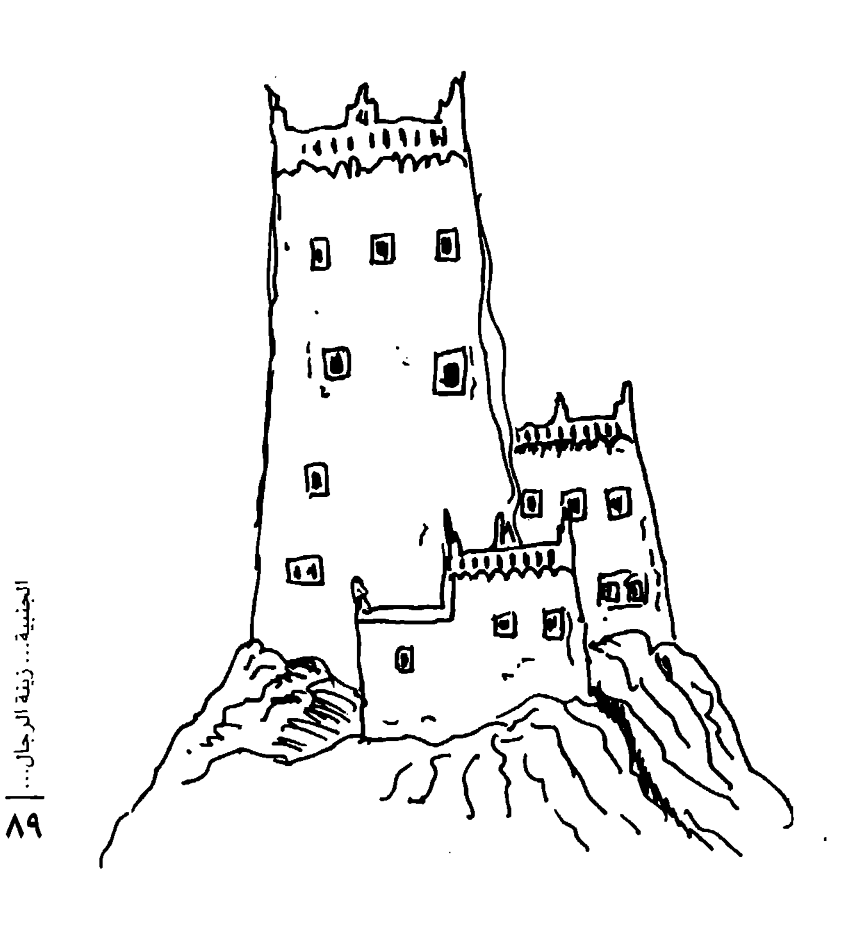
الطريف أنّ بعض اليمنيين يربطون بين المرأة الجميلة والجنبيّة في الشعر والنثر، فيشبهون أنفها ودقّة خصرها وإقبالها في مشيتها بتفاصيل الجنبيّة، بل وحتّى افترار مبسمها عن أسنانها يذكّرهم ببريق النصلة..

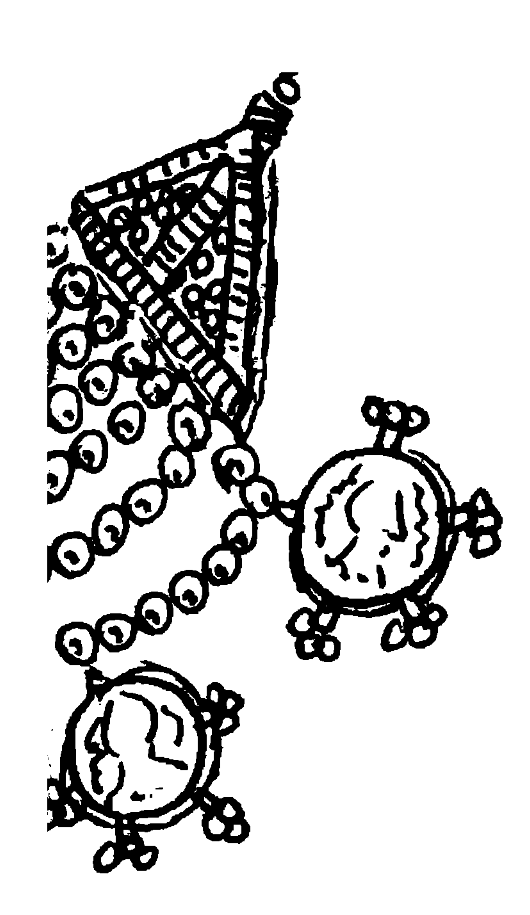
فقط العشق اليمني يمكنه أنْ يجمع هذين الاثنين.. منذ القديم.. منذ أنْ قال فارسهم عنترة بن شدّاد العبسي:

ولقـد ذكرتُـك والرمـاح نواهلٌ
منّي وبيض الهند تقطر من دمي
فـوددتُ تقبيـل السيـوف لأنّهـا
لمعـتْ كبـارق ثغـرك المتبسِّـمِ

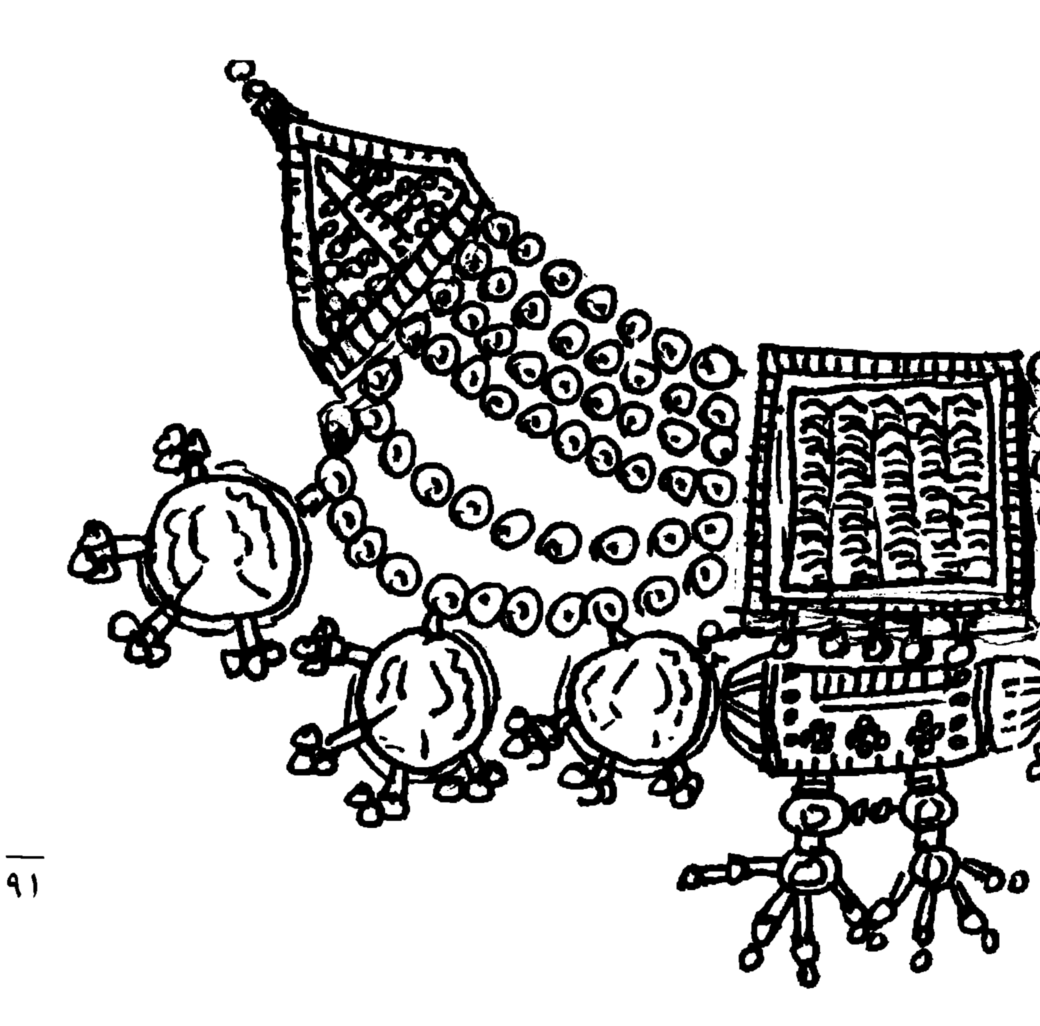
أمّا بالنسبة لي، فالجنبيّة مرتبطة في ذهني بالتماعها تحت الأضواء في أيدي راقصي رقصة "البَرع" الصنعانيّة المشهورة، فنّ الفرح الشعبيّ، يؤدّيها الرجال -خاصّة في الأعراس- بإيقاع سريع على وقع الطبول (الطاسات) الذي يتغيّر بين منطقة وأخرى، وبديع مشهد الراقصين

بزيّهم التقليدي يلوّحون بالجنبيّة مع الإيقاع القوي.. وقد تواكبها البنادق على الأكتاف.. أجل.. بالنسبة لي هذا هو المشهد الوحيد الذي يحلو لي أن أرى الجنبيّة فيه.





بلد منقوش
على الفضّة . . .



وشي الفضّة يلتمع ببهاء فوق البنادق العربيّة القديمة والصناديق الخشبيّة المختلفة الأحجام، غزلان وثعابين تتألّق فوق الفوانيس وأباريق القهوة والمباخر، محافظ ومكاحل للرجال والنساء وأختام و"حروز" فضيّة تُحفظ فيها آيات القرآن الكريم للحماية من الشرّ والعين.. وحتّى الحلي (السكاكين الصغيرة) التي تُلبس خلف العسيب.

أطلتُ التأمّل أمام رفوف وجدران رُصّ فوقها عالم كامل من الفضّة، تشكيلة رائعة من الزخارف والنقوش التي تتفرّد بها فضّة اليمن دون غيرها.

يعتقد كثير من اليمنيين أنّ في الفضّة سرّاً إلهيّاً[٦٢]، ويشغلونها لتكسو كلّ مكان من أجساد النساء، فـ"الدقّة" و"المخانق" و"العنابش" سلاسل لتزيين العنق والصدر، أمّا "المعصب" فهو عصابة للرأس معها "المشاقر" أي أقراط الأذن ويُلبس خاصّة في الأعراس والولادات، البليزق وهي أساور المعاصم، بل وحتّى للأقدام تُشغل الفضّة "كروك" و"خلاخل".

وبأسلوب التاجر الخبير الذي لا يُخفى على منْ سكن دمشق وجاب

---

(٦٢) أوردت كتب السيرة إنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان يلبس خواتم الفضّة، ويقول إنّها حلية أهل الجنّة، واعتادت بعض القبائل أن تضع على سرّة المريض ريالاً فضياً ليُشفى، ويحمله البعض في جيبه لأنّه يجلب الرزق ويعتقدون أنّها تقهر الشيطان وتُذهب السحر أيضاً.

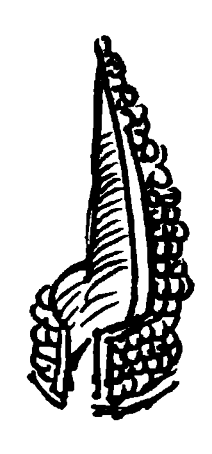
أسواقها، يصرّ حسن على أنّ ما يعرضه لي من قطع لا يُريه إلّا للزبائن "الخاصّين"، ولم أستوعبْ أنّه صنّفني بينهم، رغم أنّ معرفتي به لم تتجاوز بضع الدقائق الأخيرة.

على كلّ، كان حسن -بحدس التاجر- يستطيع أنْ يقرأ إعجابي ببضاعته وربّما قدّر أنّ مقاومتي لشرائها لنْ تطول.

العلبة المخمليّة الزرقاء تُفتح عن عقد رائع، أعجبتني البراعة التي عُشّقت بها عروق الفضّة بالعقيق، أقلّبه بين أصابعي بحرص، وأنا أصغي لحسن يشرح حول أنواع نقوش الفضّة المختلفة، وعلاقة أشكال الزخارف وطريقة الصياغة بالمنطقة أو العائلة التي أنتجتها.

"أعمال الفضّة مشهورة في اليمن منذ ظهور الحضارات اليمنيّة القديمة، معين وسبأ وحمير وحضرموت وقتبان وغيرها، أهمّها الفضّة البوسانية، ويحيى البوسانيّ يهودي يمني له طريقته البارعة في صياغة الوحدات الزخرفيّة الهندسيّة البديعة بأسلاك الفضّة الدقيقة فوق بعض أشكال أغمدة الخناجر (الثومة أو التوزة)، يليها الفضّة البديحيّة وتُنسب أيضاً إلى أحد يهود اليمن، وتختص بالقلائد والمشاذ والشعيلات (الأساور) التي تُعمل بطريقة الصب.

تأتي الفضّة المنصوري في المرتبة الثالثة، أمّا الفضّة الزيديّة التي اشتهر بها صاغة مدينة الزيديّة في محافظة الحديدة، فتعتمد الزخارف النباتيّة والوحدات الزخرفيّة الإسلاميّة،



خاصّة فوق الخشب والسيوف، ثم الفضّة الأكوعيّة نسبة إلى صاغة آل الأكوع الذين تخصصوا في صياغة أغمدة الخناجر.

وفي حين تميّزت أعمال الحرفيين اليمنيين بظهور لفظ الجلالة وأسماء الرسول صلى الله عليه و سلّم والآيات القرآنيّة فيها، مستخدمين أسلوب الطَرْق في صياغتهم للحليّ والنفائس الفضيّة، اشتهرتْ أعمال اليهود بما يُسمى "شغل الفتلة".

"أعمال اليهود؟.. هل مازال هناك يهود في اليمن؟"، أسأل بفضول.

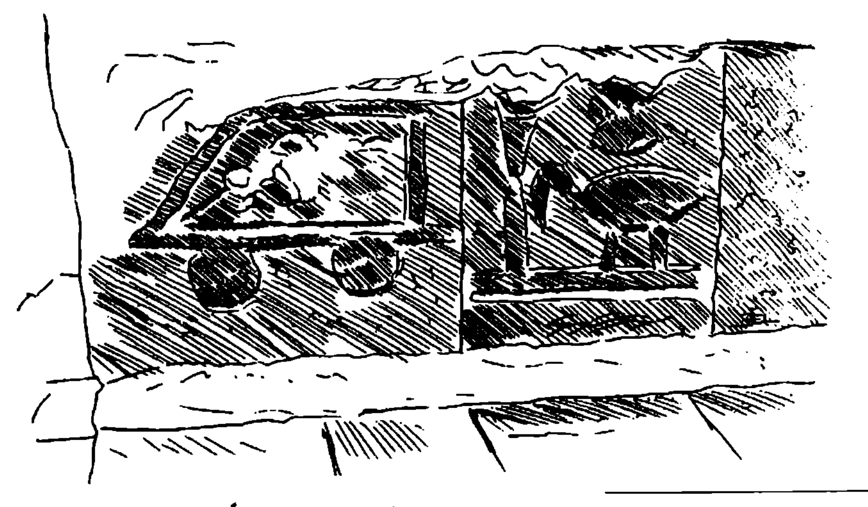
"لم يعودوا كثيرين كأيّام زمان، فقد كانوا في مطلع القرن العشرين عدّة مئات من الآلاف، متعايشين بشكل كامل مع المجتمع اليمنيّ[٦٣] في مدن وقرى عديدة من بينها حضرموت وعدن (حي كريتر والتاجر بنين)، في صنعاء وحدها كان هناك عام ١٩٣٠م/١٣٤٩هـ ٣٩ كنيساً يهودياً، ثم هاجر كثير منهم لفلسطين، حوالي خمسة عشر ألف يهودي هاجروا بين عامي ١٩١١-١٩١٢م/ ١٣٢٩-١٣٣٠هـ، تبعهم عشرات الآلاف بالطائرات من عدن في عمليّة "بساط الريح" أو "بساط سليمان" بين عامي ١٩٤٨-١٩٤٩م/١٣٦٧-١٣٦٨هـ أي بعد إعلان قيام دولة إسرائيل، واستمرّوا بالهجرة، يبلغ عددهم الآن في فلسطين المحتله حوالي ٣٦٠٠٠٠ شخص يتجمّع معظمهم في مدينة "ريحوفوت"، بالمناسبة فاليهود اليمنيّون من

(٦٣) الديانة الرسميّة للجمهوريّة اليمنيّة هي الإسلام.

أكثر الطوائف تمسّكاً بتعاليم التوراة، يتكلّمون العربيّة كلغة دائمة، والعبريّة كلغة دينيّة ويضيفون لها الأحرف العربيّة دون سواهم، ويُعرفون بجمال تلاوتهم الملحّنة للتوراة بالعبريّة والآراميّة والعربيّة.

أطرح سؤالاً ألحّ عليّ فجأة: "ولكنْ... إلى متى يرجع تواجد اليهود هنا؟".

"الروايات تتباين زمنياً حول علاقة اليمن باليهوديّة، من القرن العاشر قبل الميلاد وحتّى أواخر القرن الرابع الميلادي تقريباً، ربّما تعود إلى عهد النبي سليمان حين آمنت الملكة بلقيس[٦٤] بالله وآمن معها شعبها وحمل أبناؤها اليهوديّة إلى الحبشة، ويرى آخرون أنّ البداية الحقيقيّة لليهوديّة في اليمن قد تكون باعتناق الملك اليمني الحميريّ "يوسف ذو نواس" لها تأثّراً بحبرين يهوديين قابلهما بيثرب، وذو نواس هو صاحب



(٦٤) البحث مستمر في الدلائل الأثرية والتاريخيّة، إذ لم يُحسم الجدل نهائيّاً بعد حول تبعيّة ملكة سبأ الوارد ذكرها في القرآن الكريم إلى اليمن.

الأخدود المعروف الذي أُحرق فيه مسيحيّو اليمن ونجران، مما تسبب في حملة القائد المسيحيّ أبرهة الأشرم على غرب اليمن ونجران والحجاز عام ٥٧٠م (عام الفيل)، ثمّ أسلم -مع بدء الدعوة الإسلاميّة- أهل اليمن دون حرب، وأسلم أكثر يهود اليمن وهم من أصل يمني[٦٥].

أسأل مجدداً: "لماذا هاجروا إذاً بعد أنْ استقرّوا مئات السنين في اليمن؟".

تجيبني: "في بداية القرن العشرين لم تواجه المنظّمة الصهيونيّة صعوبة كبيرة في إقناع أبناء الطائفة اليهوديّة بالهجرة إلى "الأرض الموعودة" (فلسطين المحتلة)، بحكم سيطرة فكرة إمكانيّة ظهور المسيح المخلّص -الذي به ومن خلاله ستعود الدولة اليهوديّة في فلسطين- على أذهان يهود اليمن، وقد عرف أبناء الطائفة خلال مختلف المراحل التاريخية ظهور مدّعين بأنّهم "المسيح المخلّص" مثل "يعقوب بن نائانئيل" (القرن السادس الهجري)، و"سبتاي زيفي" (القرن الحادي عشر الهجري)".

نقاشنا حول هجرة اليهود ذكّرني بما قرأته مرّة في مقابلة صحفيّة مع أحمد القريطي، التاجر الصنعاني الذي لعب الدور الأساسي -بموافقة الامام أحمد- بالتعاون مع الوكالة والجمعية اليهودية في تجميع عدة آلاف من يهود اليمن، ونقلهم إلى عدن لترحيلهم إلى فلسطين في عملية

(٦٥) يؤكد عديد من المؤرخين المنشأ العربي لليهوديّة وأن النبي «هود» وقومه «عاد» من أصل العرب اليمنيين، ويهود اليمن قسمان أولا: هارونيين وهم أقليّة من ذريّة أوائل من قدم مع الملك الحميري، ويتولّون تنفيذ الطقوس والشعائر الدينيّة، وثانياً: غير هارونيين، المعتنقون للديانة اليهوديّة من عامة أفراد الناس، ويعترفون بالأسفار الأصليّة الستّة للنبي موسى عليه السلام.



"بساط الريح" ١٩٤٨م /١٣٦٧هـ، روى القريطي الذي تجاوز المئة عام بالتفصيل عن دوره وعن بعض الأحداث والطرائف التي واجهته، ومنها قصّته مع يهود منطقة "آنس" (إحدى مديريات محافظة ذمار) الذين استجابوا للطرح في بادئ الأمر وبدؤوا فعلاً ببيع ممتلكاتهم، ولكن فيما بعد استطاع مشائخ منطقة آنس أن يؤثّروا على يهود منطقتهم وأقنعوهم بأنهم سيلاقون معاملة سيّئة في فلسطين، فأخبروا القريطي بعدولهم عن الهجرة، بل واعتنق كثير منهم الدين الإسلامي، وتركوا اليهوديّة خوفاً من أن يتمّ إجبارهم على السفر إلى فلسطين، فغضب القريطي وأرسل برقيّة إلى الإمام أحمد حميد الدين -بعد جهد أشهر ونفقات ماليّة كبيرة في مهمّة فاشلة مع يهود "آنس"- كتب فيها: "مولانا أمير المؤمنين حفظكم الله، نبلغكم بأن يهود آنس أسلموا والقريطي تهوّد".

وصلتْ البرقيّة للإمام أحمد وقرأها بينما كان يتناول الطعام، فضحك بشدّة حتّى كاد أن يختنق، ولهذا ربّما أمر بسجن القريطي حال وصوله مدينة تعز (التي كانت مركزاً لحكم الإمام أحمد آنذاك)، ثم أطلق سراحه بعد أن عاد للإسلام بحسب شرط الإمام.

وبمناسبة الحديث عن أهل ذمار، يجب أن أخبركم أنّهم معروفون عموماً بخفّة ظلّهم وفرادة تصرفاتهم، فمنذ عدة سنوات مثلاً طلبوا من

الحكومة اليمنيّة تنفيذ بعض خدمات البنى التحتيّة في المحافظة، ومنها مستشفى، ويبدو أن تأخيراً قد حصل لسبب ما في تلبية مطالبهم، وبما أن حكومة هولندا كانت قد تبرّعت بتكاليف بناء مشفى رئيس، وبعض المشاريع في ذمار، فقد خرجت -كما يقولون- مسيرة ضخمة ومواكب سيّارات الذماريين في موكب احتفالي بهيج في يوم العيد الوطنيّ الهولنديّ رافعة أعلام هولندا وهاتفةً بحياة ملكتها.. باعتبارها "المسؤولة الفعليّة عن أهالي ذمار"!.

ومن قصصهم الطريفة أيضاً الجنازة الوهميّة للريال التي مشى مئات الذماريّين فيها خلف تابوت وضعوا فيه ريالاً يمنياً.. كتعبير عن استيائهم من تدهور قيمة العملة النقدية اليمنية.

وقد اعترض أحد الذماريين في المسجد بعد خطبة الجمعة على دعوة الإمام لجمع مساعدات ليهودي من ذمار قرر اعتناق الإسلام، وخاطب صاحبنا المصلّين غاضباً: "أنا مسلم جاهز، وبالتالي أنا أولى بالمساعدة، وما لم أُساعَد، فسأعتنق اليهوديّة وتضطرون حينها لبذل كلّ الجهود والمال لإقناعي بأن أعود لاعتناق الإسلام... ألا تختصرون الجهود وتساعدوني أنا، أفضل لكم؟".

ومن قصص أهل ذمار الطريفة أيضاً أنّ الرئيس عبد الله السلّال[٦٦]

---

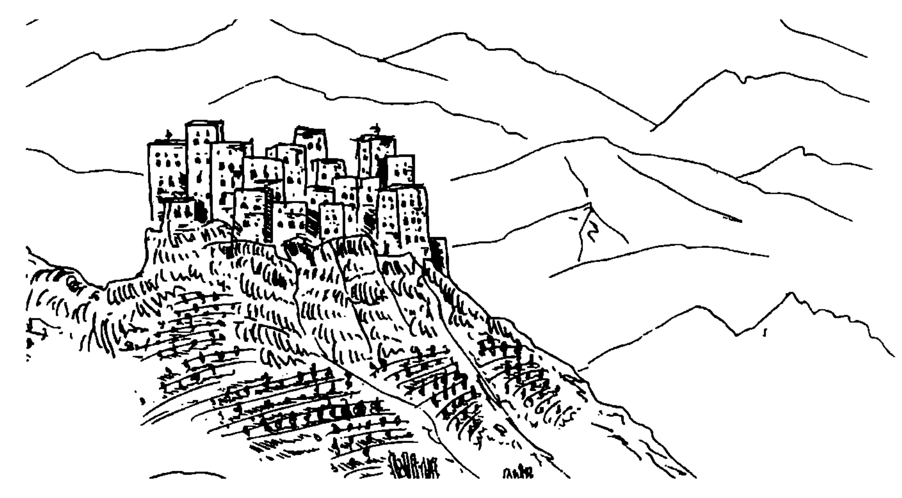
(٦٦) الرئيس عبد الله يحيى السلال: ١٩١٧-١٩٩٤م/١٣٣٥-١٤١٤هـ هو أول رئيس للجمهورية العربية اليمنية في الفترة ١٩٦٢-١٩٦٧م/١٣٨١-١٣٨٧هـ بعد اتمامه المرحلة الثانوية عام ١٩٣٦م/١٣٣٥هـ دخل الكلية العسكرية العراقية وتخرج فيها برتبة ملازم ثان عام ١٩٣٩م/١٣٥٨هـ شارك في الانقلاب الدستوري عام ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ وسجن إثره، أخرجه ولي العهد، سيف الإسلام محمد البدر حميد الدين-الإمام لاحقاً- من السجن. وبعدها أصبح رئيس الحرس لولي العهد وقد كان مشتركا في =

خطب ذات مرّة في الحديدة، وهي مدينة يمنيّة على ساحل البحر الأحمر، فهتف أهل المدينة مطالبين بإنشاء ميناء لها: "مينا مينا يا سلال"، وبعد بضعة أيّام وبينما كان السلّال يخطب في مدينة ذمار والبعيدة عن البحر، قاطعته الجماهير الذماريّة مردّدة "مينا مينا يا سلال"، وكانوا قد سمعوا هتاف جمهور الحديدة عبر المذياع قبل أيام، فما كان من الرئيس السلّال إلّا أنْ أجال النظر فيهم، قبل أن يقول لهم بهدوء وهو يغالب الضحك: "موافق... عليكم البحر وعليّ المينا".

والرئيس السلّال، رحمه الله، هو أوّل رئيس للجمهوريّة العربيّة اليمنيّة بعد حكم الإمامة الطويل، كان معروفاً -إلى جانب الشجاعة والوطنيّة- بالظرف وسرعة البديهة.. ومن نوادره أنّه كان يلقي خطاباً ذات يوم في الجماهير مؤكّداً على أهميّة مواصلة النضال قائلاً "لن نتراجع.. سنبقى نحارب ونحارب حتّى... آخر جندي"، وأنهى جملته بأن خبط بكفّه بحزم على كتف ضابط حراسته المصري على يمينه.. فانفجر الحضور بالضحك وقد فهموا النكتة.

ولا أعرف إذا كان هناك رئيس آخر غير السلال تلقّى مثله نبأ إقالته

= تنظيم الضباط الاحرار ولم يكن يعلم الإمام البدر بهذا فقربه إليه أكثر، في ٢٦-٩-١٩٦٢م/٢٧-٤-١٣٨٢هـ بعد اسبوع واحد من وفاة الإمام أحمد، وتسلم الإمام البدر الحكم قامت الثوره على النظام الإمامي الملكي في اليمن، من قبل مجموعة من الضباط في الجيش حيث ايدها بعض من مشائخ بعض القبائل، ودعمت دعماً عسكرياً واسعاً من الجانب المصري؛ ليصبح أول رئيس للجمهورية اليمنية في شمال اليمن. ثم اطيح به في انقلاب تم في ٥ نوفمبر ١٩٦٧م/٣-٨-١٣٨٧هـ أثناء زيارته للعراق حيث كانت الحرب الأهلية بين الجانب الملكي والجانب الجمهوري لا زالت قائمة. انتقل بعدها للاقامة في مصر.



بهذا الارتياح والروح الرياضيّة العالية.. فأثناء زيارة رسمية قام بها للعراق في نوفمبر١٩٦٧م /١٣٨٧هـ، لاحظ الرئيس السلال تغيّر معاملة من حوله له فجأة، وأثار حيرته تهامسهم ونظراتهم، ترددوا قبل أن يخبروه متلعثمين أنّ انقلاباً قد أطاح به قبل ساعات، وأتى بالقاضي عبد الرحمن الارياني رئيساً لليمن بدلاً منه، ولدهشتهم الشديدة فقد أجابهم بهدوء ومرح، كمن أزيح عن كتفيه عبء ثقيل: "ياه!.. هذا أحسن خبر!".

وبما أننا نتحدّث عن طرائف أهل اليمن، فلا بأس أن أخبركم أنّ قبائل باكازم المشهورة في محافظة أبين في جنوب اليمن لها حصّتها أيضاً مما يُمكن أن يُروى في هذا السياق... فقد سمعتُ أنّهم كانوا لا يصومون رمضان بل يكلّفون ثلاثين فرداً من القبيلة بصوم اليوم الأوّل منه، معتبرين ذلك "فرض كفاية" وكان الله يُحبّ المحسنين.. ومما يُروى كذلك أنّ ضيفاً مفوّهاً وحكيماً يُدعى سهيل، مرّ بالقبيلة ذات يوم تصادف تساقط الأمطار فيه، فاعتقدوا أن بركته هي سبب نزول المطر.. وأحبّوه إلى درجة أنهم أيقظوه صباح اليوم التالي ليبشّروه أنّهم -وهم القبيلة

الوحيدة التي ليس لديها "ولي" في المنطقة- قد قرروا أنّه -أي الضيف- أفضل منْ يشغل هذا المنصب الشاغر، وبالتالي أكرموه بذبحه ثم شيّدوا مزاراً فوق قبره.. وأصبح المسكين ولي قبيلة باكازم[٦٧].

وربّما قرأتم في بعض الصحف العربيّة قبل سنوات عن الدعوى القضائيّة التي رفعتها بعض القبائل اليمنيّة ضدّ وكالة الفضاء الأمريكية "NASA"، بعد أن "تجرّأتْ" هذه الأخيرة على إرسال مركبات فضائيّة إلى المريخ "دون إذن اليمنيين" الذين يملكون وثائق بحوزتهم تُثبت ملكيّتهم لكوكب المرّيخ، حسبما نشرت وسائل الإعلام في حينها.. وقد قامت القبيلة المعنيّة بالمناسبة بإهداء بعض الرؤساء العرب فدادين على سطح "مرّيخها" كعربون محبة، وبما أنّ بعض هذه العطايا كانت من نصيبنا شخصيّاً، فاسمحوا لي أنْ أغتنم الفرصة هنا لأعلن أننا مستعدّون لبيع حصتنا من المرّيخ لمن يشاء بأسعار مغرية.

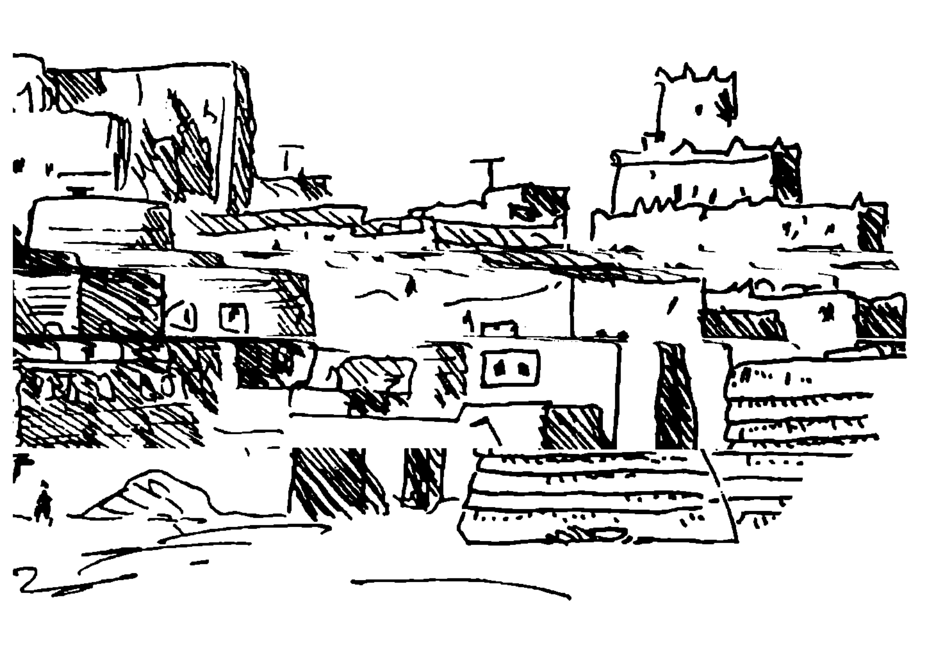
ولمنْ يشكك بديمقراطيّة اليمن، أسوق له قصّة أحد أعضاء مجلس النوّاب اليمني الذي استشاط غضباً إثر اكتشافه فقدان حذائه الذي خلعه عند باب المجلس، فما كان منه إلا أن وقف مقاطعاً الجلسة الرسميّة ليطلب باحتداد -على الهواء أمام الملايين- التحقيق مع "الأخوة الأعضاء" الذين قام أحدهم -كما بدا له- بسرقة "الجزمة".. وهدّد النائب الظريف برفع الشكوى إلى "الانتربول" لملاحقة الجناة، وقد بثّت الخبر الطريف مجموعة من وكالات الأنباء يومها منها كما أذكر إذاعة "مونت كارلو".

(٦٧) قبيلة باكازم ذاتها تخرّج اليوم كوادر الأطباء والمهندسين وحملة الشهادات العالية.

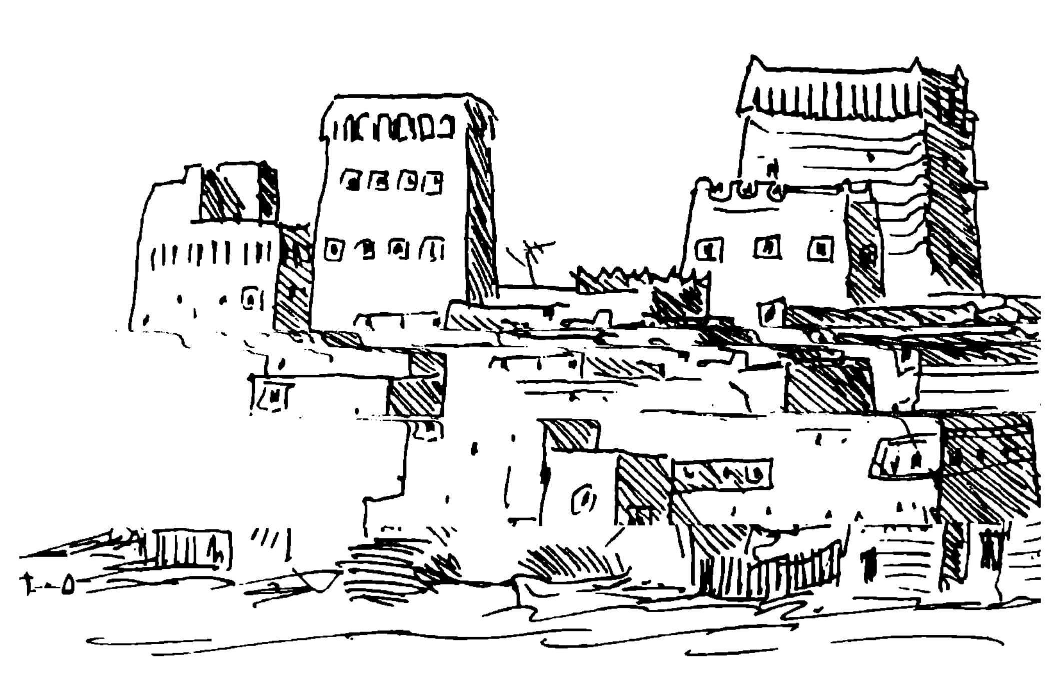
أُصغي إلى مثل هذه الطُرف بمتعة وإعجاب.. بديعٌ أن يحلّق الخيال حراً دون قيود، واليمني حرّ، ممتلئ دائماً بنفسه.. معتز للغاية بكرامته، لم تسلبه "المدنية" عفويته ولم تروّضه ظروفه الصعبة، حريّة تفرض عليك أن تحترمها وتحترم منطقها حتّى ولو لم توافقه.

ولكي تفهم الحريّة حدّق مليّاً في عيون اليمنيين.





يهود اليمن...
ملوك الفضّة



أنقّل البصر بين المشغولات الفضيّة... أُبحر في تفاصيلها وراء وجوه من نقشوها أياماً و ليالي.

أسأل فوزيّة، وفضولي لم يرتوِ بعد: "نعود لليهود.. هل مازال هناك الكثير منهم داخل اليمن؟".

- "بقيتْ أعداد قليلة (حوالي ٣٠٠ شخص) يتواجدون بشكل أساسي في مدينة ريدة وخارف وقرب صعدة حيث لديهم كنيسان ومدرستان خاصتان، آثروا التجمّع هناك طواعية، حيث يقيمون مدارسهم وشعائرهم، وكثير منهم لا يعترف بضرورة قيام دولة اليهود التي يعتبرها مخالفة للتوراة".

-"لماذا لم يهاجروا كالبقيّة؟".

- "قد يكون لتشبثهم بالبقاء في اليمن أكثر من تفسير[٦٨]، منها حرصهم على الحفاظ على عاداتهم وحياتهم المحافظة، وكذلك تلقّيهم التشجيع على البقاء من قبل بعض المؤسسات اليهوديّة المعادية لفكرة دولة إسرائيل كمنظمة "ساتمار هاسيديم".

-"أين كانوا يقيمون؟ أعني هل كان لليهود حيّهم الخاص في صنعاء القديمة؟" أسأل ثانية.

"سكن معظمهم غربيها في "قاع اليهود"، وهو حالياً "قاع العلفي" المشهور بالصناعات المهنيّة اليدويّة والذي يقع فيه المقر السابق لوزارة الخارجيّة[٦٩]، وقد استُحدث في أواخر القرن السابع عشر في الجانب الغربي من حيّ بير العزب، كانت منازل اليهود فيه لاتتجاوز الطابقين ومبنيّة على نمط خاص، جدرانها الخارجيّة مطليّة بالطين الذي سُرعان ما يتساقط لتبدو المنازل بحالة مزرية، وتلك -كما يُقال- كانت خطّة مقصودة للإيحاء بسوء الحال والفقر كي لا يطمع الآخرون بما لديهم.

عندما غادر اليهود صنعاء عام ١٩٤٨م /١٣٦٧هـ باعوا عقاراتهم، وكان هذا شرط الإمام للسماح لمن يودّ الهجرة منهم، إضافة إلى تعليم ما يجيدونه من حرف[٧٠] لليمنيين، وقد هدم أهالي صنعاء معظم تلك

---

(٦٨) يشير بعض المحللين إلى حرص إسرائيل على إبقاء بعض اليهود في اليمن كنواة للتطبيع، فهم يعتبرون أن اليمن مهم لأمنهم الإقليمي لأنّها "بوّابة اسرائيل الخلفيّة" -كما يقول بعض مسؤوليها- وتسيطر على مضيق باب المندب، منفذهم الوحيد على المحيط الهندي والشرق الأدنى...

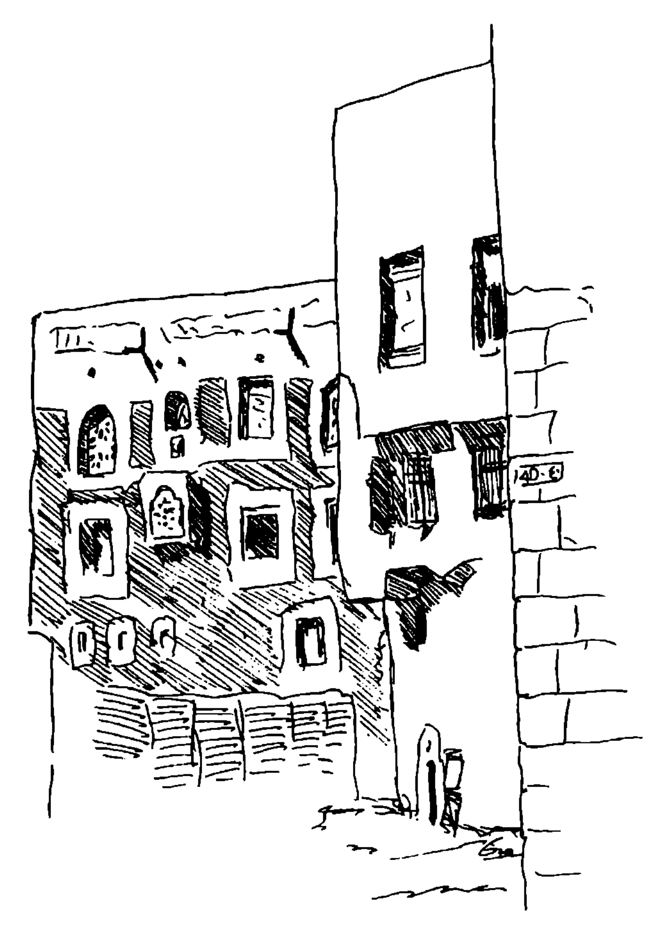
(٦٩) قبل نقله إلى موقعه الجديد في عُصُر.

(٧٠) كان اليهود ملوك كثير من الحرف في اليمن، لا سيّما المصوغات، وكذلك زخرفة البناء و صنع القمريّات وغيرها، وقد أحدثت هجرتهم في الأربعينيّات أزمة في العديد من الحرف.



الأبنية الطينيّة واستبدلوا بها أبنيةً من الحجر والطوب المحروق، حتّى كاد طابع البناء اليهوديّ أن يندثر منها، وكان بيع ممتلكات اليهود يتمّ بمعرفة كبار السن في الحيّ من اليهود والمسلمين الذين كانوا يشكّلون ما يشبه "لجنة تثمين"، وربّما كان ذلك حكيماً، فمؤخّراً عاد بعض اليهود الذين هاجروا قبل ستّين سنة ليطالبوا عبر القضاء باستعادة أملاكهم بحجّة أنّها بيعت بطريقة غير عادلة".

يذكّرني كلامه ببيوت يهود دمشق، وكانوا يتعمّدون لها أيضاً مظهراً متواضعاً من الخارج يُخفي الغنى المبهر من الداخل، وطالما حيّرني الموقف السوري النبيل الشديد التسامح من اليهود في وجودهم وغيابهم، لمنْ لا يعلم، فبيوت اليهود في سوريا ما زالتْ مغلقة منذ رحيلهم، وفي حيّ اليهود بدمشق القديمة عشرات البيوت الرائعة التي لم تسمح الدولة لأحد أنْ يمسّها منذ عشرات السنين، باعتبارها أمانة لدينا بغياب أصحابها الذين هاجروا.. احتراماً للإنسان والقانون.. ولا أعرف إذا كان هذا النبل في مكانه حقّاً حيال ما تمارسه إسرائيل ضدّ الفلسطينيين داخل بلدهم.. فالمواطن المقدسيّ -فوق كلّ ما يتعرّض له من ضغوط تهجير وإذلال وقهر- يفقد حقّه في العودة لبلدة



القدس القديمة وبالتالي بيته إذا غاب عنه أكثر من سنة واحدة بحسب القوانين التي أصدرتها الحكومة الإسرائيليّة.

ليس فقط في سوريا، فقد حفظ تسامح المسلمين عبر مختلف العهود -حتّى المضطربة منها- حقوق اليهود المادية والمعنوية، وهويّتهم وطقوسهم الخاصة في عدّة بلدان عربيّة، ولا سيّما اليمن، حيث كانوا يتمتعون بحماية الإمام مقابل دفع الجزية لبيت المال.. يزاولون أعمالهم وديانتهم بسلام.. بل إن الإمام يحيى حميد الدين كان يسمح لحاخام اليهود بالدخول عليه في أيّ وقت يشاء.

وكعادتهم، نجح اليهود في استثمار الظروف لصالحهم.. فقد احتكروا المهن الحرفيّة والأنشطة اليدويّة كصناعة الحليّ والأسلحة التقليديّة، والصناعات الجلديّة، مستغلّين عزوف فئات المجتمع اليمني القبلي عن العمل بها[٧١] فسيطروا على مقدّرات الحياة الاقتصاديّة، وظهر من بينهم أمهر صائغي الفضّة، وحائكي المآزر الحضرميّة "السباعيّة"، وعمل بعضهم كتبة في بلاط السلاطين، أطبّاء ومستشارين معروفين.

ثم أضاف بعد تردد قصير: "ويُعتقد بأنّ لهم أيضاً عِلماً كبيراً في عقائد الدجل والسحر والشعوذة".

يشير حسن إلى الجنابي (الخناجر) التي تحتلّ مساحة العرض الرئيسة في الدكان ويقول: "المفارقة هي رغم أنهّم كانوا أمهر منْ يصنع

(٧١) يُعتبر المجتمع القبلي أن تلك المهن لا تليق بمكانة الرجل القبيلي، ولا تزال بعض القبائل اليمنيّة تحتقر الذين يعملون في بعض الحرف، كالجزّارين والحلّاقين وغيرهم.



الخناجر، لكنّ يهود اليمن لا يتقلّدونها أبداً لأنّهم -بحسب التقاليد- "أهل ذمّة" لا يجوز أن يتسلّحوا، وهذه عادة توارثوها عبر الأجيال".

يتابع محدّثي: "اشتغل كثير منهم بالتجارة مثل أسرة "حبشوش"، بل واحتكروا عديداً من الوكالات التجارية كتجارة البنّ اليمني وريش النعام وغيرها، مستفيدين من خاصيّة حريّة التنقّل التي كفلتها لهم الأعراف القبليّة في اليمن وتسهيلات الاحتلال البريطاني، الأمر الذي حدا بعدد من الرحّالة الغربيين إلى التنكّر بزيّ اليهود لتيسير تجوالهم في بقاع اليمن".

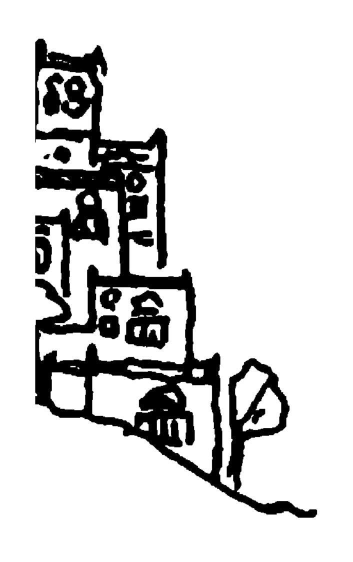
كأنّ فوزيّة قرأتْ ما يدور بخلدي، إذ تدخّلت في الحوار مؤكدة: "أجل، كما قال حسن، كان لليهود أهميّة بالغة في المجتمع اليمني -وبالتالي نفوذ غير مباشر- نتيجة سيطرتهم على قطّاع الخدمات المهنيّة، وإذا كان هناك ما يُتناقل عن بعض مظاهر التمييز في التعامل معهم -كأن يضطر اليهودي مثلاً للنزول عن حماره مُفسحاً المجال للقبيلي ليمر قبله- لكنّهم من جهة أخرى تمتّعوا بالأمان والاستقرار داخل أروقة المجتمع اليمنيّ بما يمكن تشبيهه بالحصانة الاجتماعيّة، فبما أنهم الطبقة الأضعف كان اليهود موزّعين في حماية القبائل المختلفة، وكان الاعتداء عليهم، وهم

ليسوا طرفاً في النزاع يُعتبر عملاً ممقوتاً اجتماعياً وقصّ زنبيل (ضفيرة شعر يهودي) إهانة تشتعل بعدها الحرب.

في قصّة طريفة في هذا السياق، تمرّدت إحدى القبائل على الإمام أحمد الذي كان مشهوراً ببطشه، فأشار عليه البعض أن يُسيّر جيشاً لتأديبها.. وللتقليل من شأنها وإرهاب القبائل الأخرى اكتفى الإمام الداهية بإرسال رجل يهودي من العامّة اسمه سالم محمّلاً إياه رسالة تقول: "اليوم يأتيكم سالم وحده وغداً أحمد بعده" (أي أرسل لكم الأضعف محذّراً مما هو أعنف بما لا يقاس)، "شيفرة" كانت كافية ليعود أعيان القبيلة العاصية مع اليهوديّ معتذرين ومقدّمين الولاء والطاعة للإمام الجبار!...

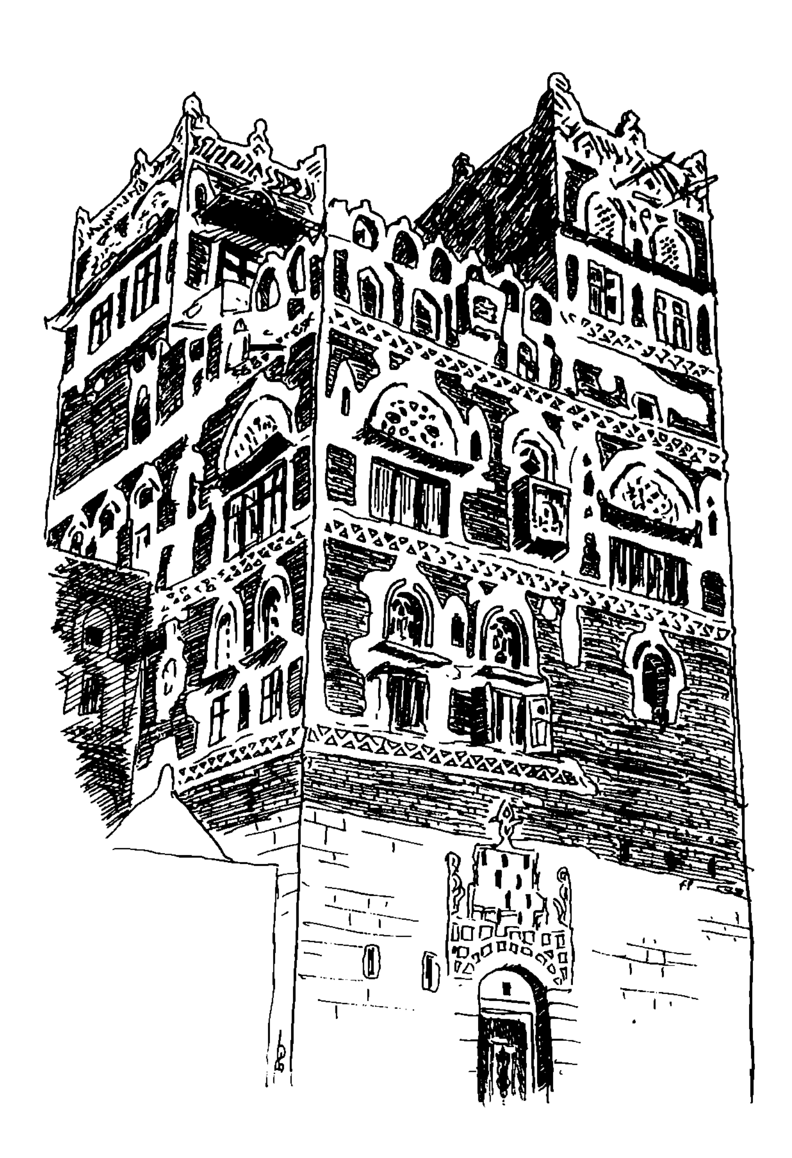
أتحسس العقد الجميل برؤوس بأطراف أصابعي مجدداً، بينما تساوم فوزيّة الشابين على سعره، أبتسم وأنا أفكّر أنّ حوار التجارهو هو، يتكرر حرفيّاً في أسواق المدن القديمة... حميديّة دمشق وخان خليلي القاهرة و"البطحا" في فاس المغرب و"باب البحر" في تونس... في كل أسواق المدن القديمة، حيث يهبط السعر إلى أقلّ من النصف في دقائق، وتتصاعد أغلظ الأيمانات بالخسارة والربح بين البائع والشاري، وأعتقد أنني فاشلة في هذا النوع من المفاوضات.. ولذلك رمقتني صديقتي شذراً حين تدخّلتُ لأنهي "المفاوضات" راضية بالسعر الذي توصّل إليه حسن، وأكّدتْ لي بغيظ -لاحقاً- أنّه كان يمكنها الاستمرار بتخفيض السعر لو لم أتدخّل، مؤكّدةً أنه كان سيبقى -مع ذلك- رابحاً.

أشير لحسن ألّا يغلّف العقد، أتناوله لأضعه حول عنقي، ربّما كان تصرّفاً طفولياً أنْ أتقلّده في الحال.. في الحقيقة وددتُ أن ألتحم بالمكان.. أن أصبح جزءًا من جوّه الفريد، ولكن.. أنّى لي ما هو مخزون في الأحجار والتراب والجينات؟، يستحيل تقليد الزخم المتأصّل فيها منذ آلاف السنين، كما يستحيل لهذه السطور أن تجسّد روح الجمال المعتّق في كلّ شيء هنا.





في "قلعة" صنعانيّة..



في دروب صنعاء القديمة... أمشي مأخوذة بعمارتها.. أحاول بكل حواسي استيعاب طوفان التفاصيل الخلّاقة.. فأفقد التركيز على خطواتي وتتوه قدماي عن مواطئها.. وتسندني ذراع فوزيّة لتعيد لي توازني..

لدور صنعاء القديمة جاذبيّتها الخاصة، وطابعها المعماريّ الفريد، واجهات "مزنّرة" بأحزمة بيضاء وموشّاة بزخارف هندسيّة رائعة، تتخللها نوافذ تتوّجها أنصاف أقمار محلّاة بالزجاج الملوّن، كأنّها صورة زمن جميل قد مضى.. زمن المباني العظيمة كقصر "غُمدان"[(٧٢)] و"القَلّيْس"[(٧٣)]، أكثر من أربعة عشر ألف منزل[(٧٤)]،

---

(٧٢) قصر غمدان -كما يقول المؤرخون- أحد عجائب الدنيا، وأنّه بني لبلقيس قبل ٣٠٠٠ سنة، يتكوّن من عشرة طوابق ويُقال عشرين.

(٧٣) كنيسة «القَلّيْس»: كاتدرائية ضخمة بناها «أبرهة الحبشي» على هدي كنيسة الميلاد في بيت لحم، بهدف أن تكون بديلاً للكعبة الشريفة في مكّة المكرّمة، لكنه أخفق.

(٧٤) يذكر «الرازي»، المتوفى عام ١٠٦٨م/ ٤٦٠هـ، أنّ عدد منازل صنعاء بلغ في عهد الخليفة هارون الرشيد نحو ١٢٠ ألف منزل، أمّا عدد سكّانها فكان ٢٨٠ ألف نسمة.

يتجاوز عمر بعضها الخمسمئة سنة، جميعها عامرة بالسكّان.. أين نجد مكاناً آخر من العالم يضم كل هذه المساكن الحيّة بالتقليد القديم ذاته؟، لهذا وغيره أفهم أن تكون مثار فخر اليمانيين بل والعرب، وأن يردد شاعر كعباس الديلمي (٧٥):

من قال صنعاء حوت كل الحلا والوسامة
وكـــــل معنـــى حســـن
قال الحقيقة وهي من قبل هذا علامة
علـــى جبيـــن الزمـــن

أمام بيت صنعانيّ نقف أنا وفوزيّة.. نطرق الباب وما منْ مجيب.

مستخدمةً "المدقّة" (القطعة الحديديّة المنقوشة الثقيلة المعلّقة وسط الباب الخشبيّ القديم المزيّن بالمسامير النحاسيّة)، تعيد فوزيّة الطرق بإلحاح غير آبهة باعتراضي.. كدتُ أشكّ أنّ أحداً في الداخل لولا بعض النوافذ المفتوحة في الطوابق العلويّة...

---

(٧٥) عباس علي حمود الديلمي: شاعرٌ وإعلاميٌ يمنيٌ، وُلد في عام ١٩٥٢م/١٣٧١هـ في محافظة تَعز، والدهُ الشاعر القاضي علي حمّود الديلمي. تخرّج في جامعة صنعاءَ كليّة الآداب قسم الفلسفة عام ١٩٧٨م/١٣٩٨هـ، وتَدَرّجَ في إذاعة صنعاءَ حتّى عُيّنَ رئيساً لقطاع الإذاعة في البرنامج العام فيها عام ٢٠٠٢م/١٤٢٣هـ، حاصل على وشاح الثقافة والفنون ووسام الاستحقاق في الفنون والآداب من رئيس الجمهوريّة اليمنيّة، تولّى رئاسةَ اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين "فرع صنعاء"، وانتُخبَ نائباً لأمين عام اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين. طُبعت له عدّةُ دواوينَ شعريّة منها: اعترافات عاشق- قراءات في كهف أفلاطون-وحدويّات وعناقيد-حقل الروح- تأمّلاتٌ في الحياة والناس.

أخيراً، يتناهى إلينا من الداخل صوت نسائيّ هرم يصيح بحنق ما يُعتبر شتيمة صنعانيّة تقليديّة "جنيّ"[٧٦]، والجيم بالمناسبة تُنطق في بعض مناطق اليمن على الطريقة المصريّة كما في عدن، أما في حضرموت فتُنطق ياء كأن تقول "ريال" بدل "رجال"، أما في صنعاء فينطقونها جيماً معطّشة (كلهجة أهل حلب في سورية) ولذلك فقد خرجت كلمة "جنيّ" قوية وأفزعتني.

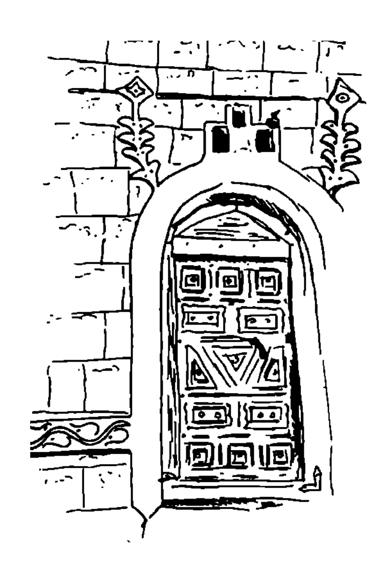
التفتُّ مذعورة إلى فوزيّة التي أمسكت بي مبتسمة إذ هممتُ بالمغادرة، وتمتمتْ وهي ترفع كتفيها وتغمض عينيها وتقلب شفتيها بلا مبالاة "عادي" أي هذا أمر طبيعي، و"عادي" بالمناسبة تعبير تسمعه باستمرار في اليمن كلّما سألت عن أمر غير عادي!.



الباب يُفتح، أم عبد الله تستقبلنا بابتسامة لطيفة لا تتناسب إطلاقاً والكلمة التي "رمتنا" بها قبل قليل، وهذا أيضاً -في اليمن- "عادي"... فاليمنيون يتميزون بمرونة عجيبة في الانتقال من حالة نفسيّة إلى أخرى تناقضها تماماً.. والطيبة والتسامح طبع متأصّل فيهم، يختلفون إلى حد نيّة القتل أحياناً، ثم يسامحون بعضهم بعضاً في دقائق، استغرقتُ سنين لأفهم هذا الأمر، وطالما أذهلتني اللقاءات الحارّة وعناقات من كانوا بالأمس القريب أعداء ألدّاء، ألا نستطيع -من زاوية ما- اعتبار هذا رقيّاً وتسامحاً لا يُحسن الكثيرون ممارسته؟.

---

(٧٦) تعبير يُقال للدلالة على الاستياء أو عدم الرضى.



انحنينا قليلاً لندخل من الباب المنخفض الارتفاع كمعظم أبواب بيوت صنعاء القديمة، تسلّقنا الدرجات العالية للدرج الضيّق الذي يلتفّ حول دعامة حجريّة ضخمة، يعتريني الانطباع الذي يستولي -منذ اللحظة الأولى- على زائر هذه الأبنية الصنعانية الأصيلة، فما إنْ تدخل أيّاً منها -صغيرة كانت أم كبيرة- حتّى تشعر أنّك داخل قلعة عسكريّة، تكوينها مصمم للدفاع عن نفسها، وبحيث تتوفر فيها عناصر الاكتفاء الذاتي التي تؤهلها لمواجهة أيّ حصار طويل، وفي مواضع عدّة من الواجهات تُرى فتحات تهوية ضيّقة للغاية، هي أساساً للرصد وإطلاق الرصاص على المهاجمين.. فكّرتُ أنّ غياب الشرفات في المنازل الصنعانية ونوافذها الضيقة تعكس حتماً تفاعل ساكنيها مع المناخ والظروف والتقاليد الاجتماعيّة.

نخترق بيت أم عبد الله صعوداً، من الطابق الأرضيّ (الحرّ أو الدهليز) -الذي بُني من الأحجار الصلبة (الحبش) والمستخدم كمخازن أو حظائر لإيواء الماشية ولوازمها، إلى الدور الأوّل -والطوابق العلويّة تبنى عادة من الآجر والطين- وفيه الديوان أو "الصالة الكبيرة" التي تستخدم للمناسبات الاجتماعية، ثم الدور الثاني وهو مكان "الوسط" المخصص للاستخدام اليوميّ، مروراً بباقي الأدوار العليا حيث الديمة

(المطبخ) وإقامة العائلات ومرافقها المستقلّة، وصولاً إلى غُرف الاستقبال ("المفرج" أو "المنظر") التي ينتهي البناء الصنعاني بها عادة...

حمدتُ الله أنّ درج بيت أم عبد الله انتهى بمفرج في الطابق الخامس، فبعض بيوت صنعاء يصل ارتفاعها إلى ثمانية أدوار.. خلعتُ حذائي اسوة بالسيّدتين اليمنيتين قبل أن أخطو فوق سجّادة الغرفة المتطاولة، ومن خلال نوافذها الواسعة المنخفضة التي تعلوها قمريّات جصّية معشّقة بزجاج زاهي الألوان ينشر اشعّة الشمس أقواس قزح داخل الغرفة، بدا المشهد المتفرّد لأبنية صنعاء القديمة وبساتينها.

نطلّ من هنا على الجزء الشرقيّ والجنوبيّ الشرقيّ من المدينة التاريخيّة، القسم الذي ما زال عامراً بسوره وتراثه وأهله وطابعه القديم... أمّا ما بقي من مباني الأجزاء القديمة الأخرى من صنعاء القديمة فقد تناثر في عدد من المناطق الواقعة وسط صنعاء الحديثة، ليمزج نسيجها بين الحديث والقديم.

فبعد قيام الثورة اليمنية عام١٩٦٢م /١٣٨١هـ، امتدّت صنعاء خارج أسوارها دون اتباع مخطط عمرانيّ يجاري طرازها المتميّز، أُهملت بعض البيوت التي هجرها أصحابها وتغيّرت بعض وظائف بيوت أخرى،

فشرعت منظّمة اليونسكو منذ عام ١٩٨٠م / ١٤٠٠هـ في حملة دوليّة[٧٧]

(٧٧) في اكتوبر ١٩٨٠م/١٤٠٠هـ صدر القرار رقم ١٢/٤ الذي يخوّل المدير العام لليونسكو باتخاذ الإجراءات اللازمة بإعلان حملة وطنيّة ودوليّة للمحافظة على صنعاء القديمة وشبام حضرموت، اللتين استقبلتا اثر ذلك عدداً من الخبراء العرب والأجانب. قام الاتحاد الدولي لليونسكو في مايو ١٩٨٢/١٤٠٢هـ بتجميع التقارير والدراسات الفنيّة وطبعها في كتاب كبير يبيّن شكل ومعالم هذه=

لصونها والحفاظ على معالمها وطابعها المعماريّ وإبراز تراثها الحضاريّ، وحققتْ الهيئة العامّة للمحافظة على المدن التاريخيّة Gophcy -التي تأسستْ عام١٩٨٧م/١٤٠٧هـ إنجازات لحماية صنعاء القديمة[٧٨]، استحقّت عليها جائزة الآغا خان ١٩٩٥م/١٤١٦هـ[٧٩] ، وأهّلت صنعاء القديمة لمجابهة تحدّي المدنيّة الحديثة، ليس من خلال دعم عمليّات الصيانة والترميم فحسب، بل وإعادة تأهيل وتنمية مجتمعها من مختلف النواحي، مما ساهم في تشجيع المواطنين على العودة إلى مدينتهم القديمة التي كانوا قد هجروها منذ عام ١٩٧٠م/١٣٩٠هـ.

في غيبة أمّ عبد الله التي هرعتْ تأتينا بالقهوة، تخبرني فوزيّة أن المفرج -حيث نجلس- يُعتبر أفخر مكان في المنزل الصنعانيّ، وهو عادة في أعلاه، ويتّجه إلى

= المدن التاريخية. وفي ١٩ ديسمبر ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ وبمناسبة انعقاد مؤتمر وزراء خارجيّة الدول الإسلاميّة بصنعاء، قام المدير العام لليونسكو السيّد أحمد مختار أمبو والدكتور عبد العزيز عبد الغني رئيس مجلس الوزراء آنذاك بإعلان الحملة الوطنيّة والدوليّة للمحافظة على صنعاء القديمة.

(٧٨) منذ عام ١٩٨٧م/١٤٠٧هـ بُدِئ بترميم أسوار صنعاء وإعادة تنظيم وادي السائلة الذي كان يصون المدينة من غمار السيول السنوية الهابطة من جبل نقم.

(٧٩) كترميم بيت «المطهّر» ويعود إلى عام ١٦٠٠م/١٠٠٨هـ، وبيت الروضة، وسمسرة «المنصورية» ١٨٥٠م/١٢٦٦هـ، و«سمسرة النحاس» ١٨١١م/١٢٢٦هـ، وبيت «العمري» ١٦٠٠م/١٠٠٨هـ، وبيت «سريع» ١٣٠٠م/٦٩٩هـ وغيرها، كما قامت بتعبيد الطرقات بالحجارة السوداء وإنشاء البنية التحتيّة والصرف الصحيّ، بعد أن تمّ جمع المال اللازم من الدولة ومن هيئات دوليّة ودول كبرى معنيّة بحماية التراث.



الجنوب[٨٠] ويُقال إنّ ذلك أسوة بقصر غُمدان، و"المفرج" و"المنظر" (والأوّل أكبر مساحة من الثاني) كلاهما يُستخدمان للجلوس والسمر وتخزين القات، وتدور فيهما الحوارات وتُلقى قصائد الشعر والنثر، وتُعقد الاجتماعات والمناسبات الثقافيّة.

أم عبد الله تصبّ القهوة اليمنيّة في القلسات (الأكواب) فتفوح رائحة البن الشهيّة.. والبن اليمني -بمناسبة الحديث عنه- هو أجود أنواع البن قاطبة، وقصتّه الشيّقة بدأت قبل ثلاثمئة عام حين تعرّف إليه العالم عبر كتابات الرحالة والمستشرقين في بداية القرن الثامن عشر، وبشكل

(٨٠) لأنّ الجنوب أكثر دفئاً في جوّ صنعاء البارد، وأدفأ بيوت صنعاء هي تلك الموجّهة إلى الجنوب ويدعونها البيوت الجنوبيّة أو المدنيّة.

خاص ما كتبه الفرنسي دي لا روك[(٨١)] ، والدانماركي كارستن نيبور[(٨٢)] ، والاسباني دومينجو باديا اي ليبليش[(٨٣)]، من يومها بدأ العصر الذهبي لتجارة البن اليمني وطفرة الانتشار الهائل لشرب القهوة التي غدت مشروباً عالمياً معروفاً في النصف الثاني من القرن العشرين.

ومن منطقة "بيت الفقيه" -قلب النشاط التجاري للبن وأهم مصادره- إلى ميناء المخا[(٨٤)] .. ثم على السفن العمانية... بدأ شريان البن يتدفق إلى مسقط و جدّة و مصر وأصقاع الدنيا.. ليجلب لليمن السعادة والوبال معاً.. إذ جاءت مع المال الوفير الأطماع[(٨٥)] أيضاً...

تمدّ أم عبد الله لي يدها بكوب القهوة:

"اقرئي معها الفاتحة عن روح الشاذلي والخاملي وكلّ صالح ولي".

---

(٨١) دي لا روك (De La Roque) : رحالة وتاجر فرنسي، تحدث باسهاب عن البن اليمني وأهميته ١٧١٦م/١١٢٨هـ.

(٨٢) كارستن نيبور(Carsten Niebohr): رحالة دانماركي أرسله ملك الدانمارك إلى اليمن في بعثة علمية مكونة من خمسة أفراد من ذوي التخصصات المختلفة انطلقت عام ١٧٥٩م/١١٧٢هـ.

(٨٣) دومينجو باديا اي ليبليش (Demingo Badia Y Leblich): رحالة اسباني، زار المنطقة عام ١٨٠٧م/١٢٢٢هـ وكتب عن تجارة البن فيها وكانت مكة ايامها أكبر مستهلكيها.

(٨٤) المخا: مدينة يمنية على البحر الأحمر، كانت ميناء التصدير الأساسي للقهوة اليمنية وارتبط اسمها بها، إذ حرفت منه كلمة "موكا" التي تشير إلى القهوة و تتداول اليوم في كل مكان في العالم.

(٨٥) تنافست بعض الدول على شرائه مباشرة من اليمن، خاصة الفرنسيين والأتراك، والرحالة السويسري يوهان لودفيج بوركهارت(Johan Lodvig Burkhardt) كتب في مطلع القرن التاسع عشر بأن من أسباب حملة محمد علي على الجزيرة العربية "بسبب تطلعه إلى أن ينعم بثروة اليمن المشهورة جداً، والهيمنة على المبالغ الكبيرة التي كانت ترسل سنوياً من القاهرة لشراء القهوة.

أتناوله بامتنان، وأنا أفكر بجملتها التي يتناقلها اليمنيون عبر الأجيال، مؤكدين أن الإمام الشاذلي[٨٦] هو أوّل من شرب القهوة، فقد شُربت القهوة في أوساط المتصوفين الشاذلية في اليمن أولاً، ثم-مع انتشارها- لم تبد البيوت مكاناً مناسباً لإعدادها، خاصة أنّها قامت على فكرة الشرب الجماعي لها، مما دعا إلى إقامة أماكن عامة لشربها سمي واحدها "مقهى" أو "مقهاية"، كما يُطلق عليها في اليمن، حيث انتشرت بكثرة وكذلك في الجزيرة العربية (خاصة مكة والمدينة) وعلى طرق المسافرين، ويعتبر بوركهارت[٨٧] أن اليمن هو الوطن الأمّ للقهوة كمشروب، ومكّة هي الوطن الأمّ للمقاهي التي يقسمها بحسب الطبقة الاجتماعية لمرتاديها، كما يصفها نيبور وبوركهارت باستفاضة، متحدثين عن اهتمام الأتراك ببناء المقاهي على الطرقات والربح من ضرائب بيع البن.

---

(٨٦) الإمام الشاذلي: هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبّار المغربي، ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين، والشاذلي هو حجّة الصوفيّة الزاهد، صاحب الطريقة الشاذليّة، وُلد سنة ١١٧٥م/٥٧١هـ بقبيلة الأخماس الغمارية في المغرب، تتلمذ في صغره على أبي محمد عبد السلام بن مشيش، ثم رحل إلى تونس، وإلى جبل زغوان، حيث اعتكف للعبادة، فتفقّه وتصوّف، وسكن مدينة «شاذلة» التي نُسب إليها، أتقن علوم الشريعة مع كونه ضريراً، ثم انتهج التصوّف واجتهد فيه. رحل بعد ذلك إلى مصر، وأقام بالإسكندريّة، حيث تزوّج، وأصبح له أتباع ومريدون، وانتشرت طريقته في مصر بعد ذلك.
للشاذلي أوراد تسمى حزب الشاذلي، ورسالة الأمين في آداب التصوّف. كان الشاذلي متوجّهاً إلى بيت الله الحرام حين توفي سنة ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ بصحراء عيذاب بحميترا من الصعيد (أسوان)، ويُقال إنّ ماءها كان ملحاً أجاجاً فأصبح عذباً ببركته.

(٨٧) الرحّالة السويسري يوهان لودفيج بوركهارت (Johan Lodvig Burkhardt): ١٧٨٤-١٨١٧م/١١٩٨-١٢٣٢هـ رحّالة سويسري يُعتبر من أدق وأشمل الذين كتبوا عن جزيرة العرب. كان بوركهارت يأمل أساساً في الوصول إلى تمبكتو ومنابع نهر النيجر. ولكن رحلاته قادته إلى الشرق الأوسط حيث اكتشف مدينة البتراء ومعبد أبوسمبل، وعاش ستة أشهر في مكة، توفي في القاهرة.

وعموماً فاليمنيّون يحضّرون القهوة من قشر القهوة[٨٨] ويُضاف إليها الزنجبيل وأحياناً القرنفل والهيل، ولكلّ منطقة في اليمن أسلوبها في تحضيره، ولكن أشهرها القهوة البيضانيّة (نسبة لمحافظة البيضاء) التي تجمع بين القشر واللبّ وحبّ الذرة لتخفيف مرارتها وكذلك الهيل و"الطعم" (الزنجبيل)، ويقدّمونها ساخنة ممزوجة بالمكسّرات والزبيب والحليب غالباً.

أتلذذ بارتشاف القهوة الدافئة.. واحدة من متع كثيرة قد أكون حُرمتها في "حيواتي" الماضية، ففي بداية القرن التاسع عشر كتب بوركهارت عن دهشته من أنّ "نساء حوران يشاركن الرجال شرب القهوة وهذا أمر غير مسموع عنه في كل جزيرة العرب إلا في بعض مناطق اليمن"، ومن المعروف أن الجدل حول تحريم القهوة أو تحليلها قد دار طويلاً إلى أن حُللت أخيراً لحسن الحظ.

---

(٨٨) واستخدام قشر القهوة بدل لبها اُعتمد منذ القديم في اليمن، وورد ذلك في الكتابات المبكرة للرحالة الأجانب، والأب البرتغالي بايز (Paez) كتب من القهوة في رحلته عام ١٥٨٩م /٩٩٧هـ "ماء يغلي مع قشرة ثمرة يدعونها البن، لأن سكان جنوبي شرق الجزيرة العربية يستعملون القشرة لا الحب نفسه"، وكذلك في تقارير الرحالة الفرنسي دي لا روك (De La Roque) والدانماركي نيبور (Niebohr) عام ١٧٧٥م/١١٨٩هـ .

مذاقها الطيّب يفسر ولع الدنيا بها، وأن تشغل حيزاً في تراث اليمن الثقافي، كالشعر الحميني[٨٩] مثلاً ... ومنه قصيدة "البن والحب" للشاعر والمؤرخ مطهر الارياني[٩٠] :

طاب الجنى يا حقول البن بأحلى المغاني

يا سندس أخضر مطرز بالعقيق اليماني

يا سحر ما له مثيل في الكون قاصي وداني

ما أحلى العقود القواني في الغصون الدواني[٩١]

بن اليمن يا درر يا كنز فوق الشجر

من يزرعك ما افتقر ولا ابتلى بالهوان

لم أكنْ أستوعب الكثير من الحديث الدائر بين فوزيّة وأم عبد الله باللهجة الصنعانيّة السريعة الإيقاع، وما يرافقها عادةً من إيماءات الرأس واليدين.. ولم يكن ما تقولانه يعنيني كثيراً إذ كنت مستغرقة في تأمّل ما حولي.. أستثمر فرصة ذهبيّة أتيحت لي لاستكشاف أحد الأبنية الصنعانية -التي طالما أثارت فضولي وإعجابي- من الداخل.

---

(٨٩) الشعر الشعبي اليمني باللغة المحكيّة في صنعاء.

(٩٠) مطهر علي الارياني كاتب و مؤرخ و شاعر يمني معروف، ولد عام ١٩٣٣م/١٣٥٢هـ، تخرج عام ١٩٦٠م/١٣٧٩هـ من كلية دار العلوم بالقاهرة ، عمل في التعليم والاعلام ومصلحة الاثار ، خبير باللغة اليمنية القديمة، اشترك في تأليف كتاب صفة اليمن عبر العصور، له اسهامات واسعة في التاريخ اليمني والأمثال اليمنيّة، أصدر عدداً من الاعمال الغنائية والمسرحية، ركّز في شعره على معاناة اليمني وارتحاله طلباً للرزق، له عدد من البحوث والدراسات التاريخية والأدبية.

(٩١) ما أحلى عناقيد العنب القانية اللون فوق غصونها التي ناءت بحملها فدنت من الأرض.

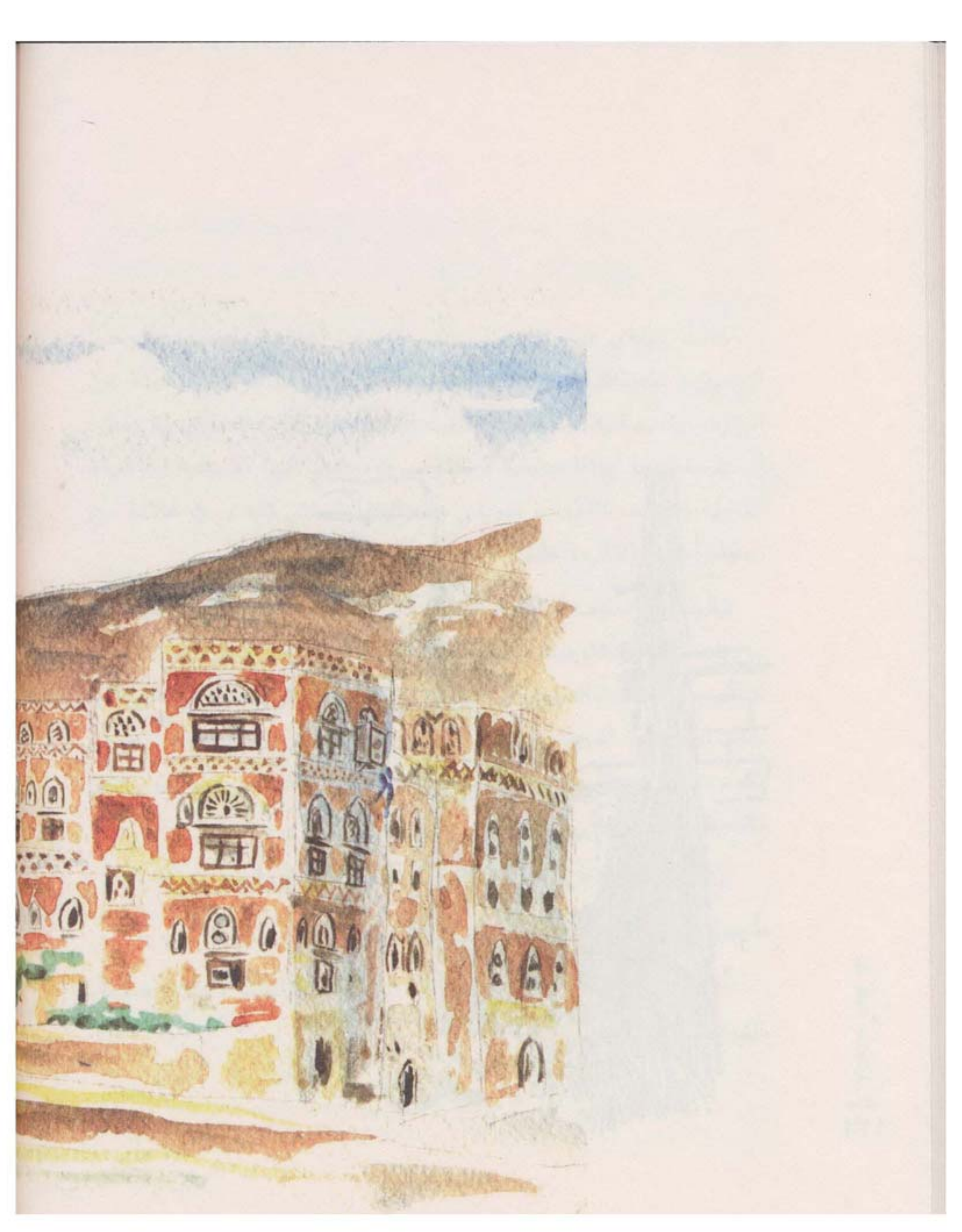
جالتْ عيناي فوق الجدران التي زُخرف أعلاها بإطارات الجصّ الجميل.. تكويناتها وألوانها حرّضت في ذاكرتي ما قرأته وسمعته عن البيوت القديمة في صنعاء.. فتلفتُّ أبحثُ عن الباب السرّي، إذ يُقال: إنّ في معظمها أبواباً مخفيّة لأمكنة سريّة تُحفظ فيها الأسلحة والأشياء الثمينة والتحف القيّمة.. تغريني هذه العمارة التي تتبدى في غلالة من غموض يأسر القلب ويطلق سراح المخيّلة.

لا أجد إلّا السيف المزخرف المعلّق على الحائط.. وقد قيل لي قبلاً إنّه من الصعب أن يخلو بيت يمني من سيف يُترجم اعتزاز أهل اليمن بتراث تفوّقهم في صناعة السيوف وزخرفتها، وأنّهم يتمسكون بما يُروى عن طلب خالد بن الوليد السيف اليمانيّ العتيق الصلب يوم غزوة "مؤتة" بعد أن تكسّرت في يده تسعة سيوف، ويحرص العريس اليمنيّ على أن يتحلّى بالسيف يوم زفافه.

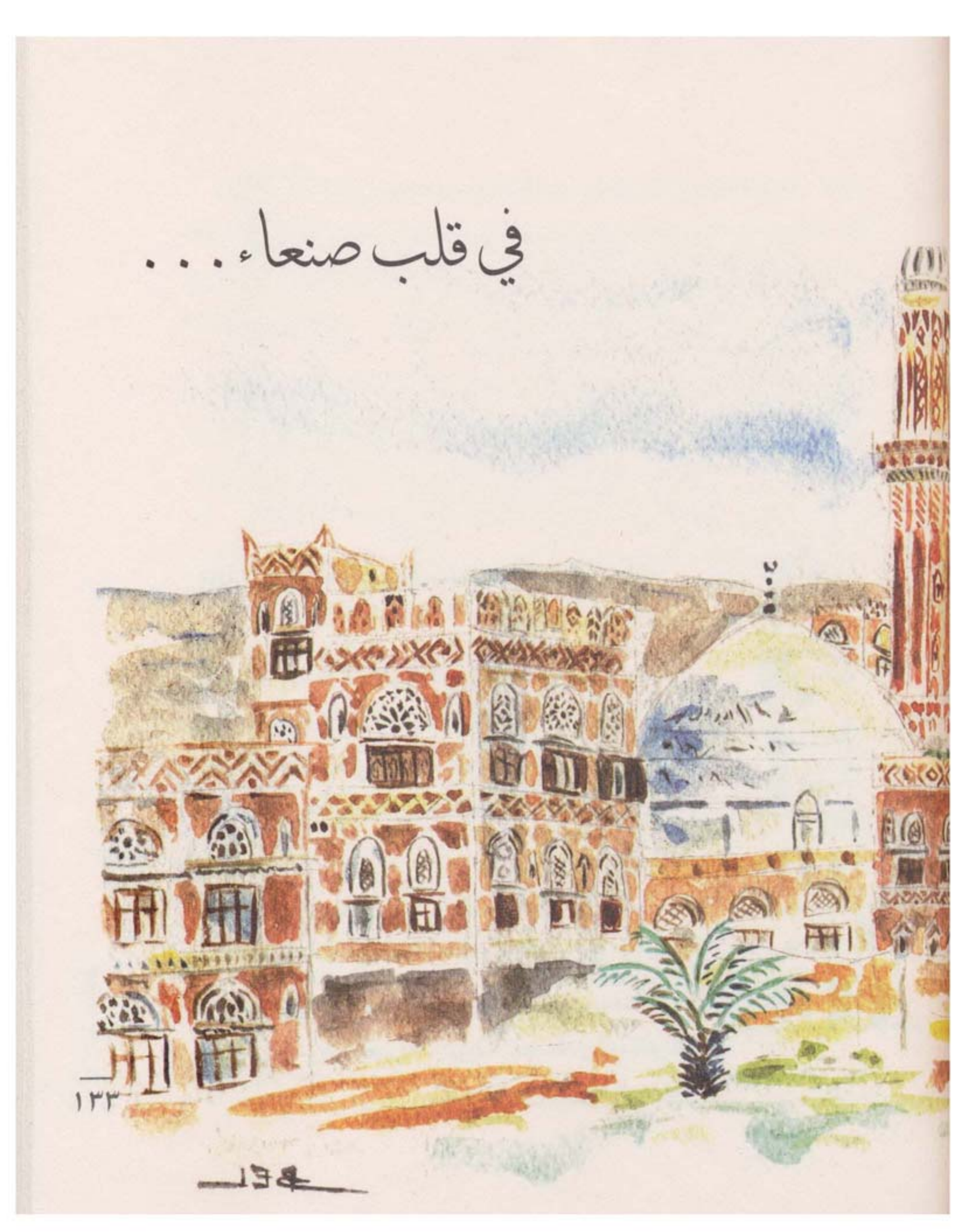
ينتشلني من أفكاري وقوف السيّدتين تأهّباً للمغادرة..

مرّ الوقت بسرعة، واستراحتنا انتهتْ..

"الله معكم".. نغادر أم عبد الله الطيّبة.. لتتلقفنا مجدداً صنعاء القديمة.



في قلب صنعاء...

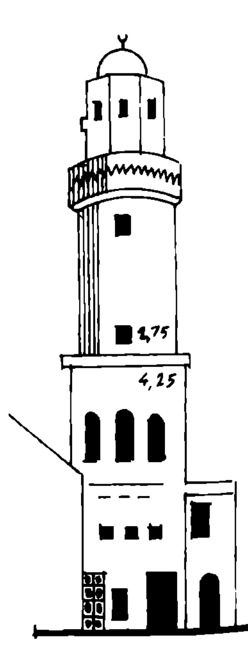


أذان الظهر في صنعاء، أُصغي باهتمام.. أحاول تبيّن آذان دمشق فيه..

ليس انحيازاً لدمشق، فأنا عاشقة لليمن بامتياز.. لكنّ أذان المساجد التي أعرفها هناك تحفظ غيباً طريقها إلى روحي.. منذ وُلدت.. أصواتهم الشجيّة تخرج من أعماق قلوبهم.. ويتراءى لي أحياناً مسارها نحو السماء.

دمشق أو صنعاء أو في أيّ مكان على وجه الأرض.. ذكر الله يريح القلوب كيفما كان وأينما كان.

الأذان يشير إلى وقت صلاة الظُهر.. وها نحن في طريقنا إلى المسجد الكبير.. هل يُعقل أن نزور صنعاء القديمة دون المرور بقلبها؟!.



وقلبها الحقيقيّ هو مسجدها الكبير الذي شكّل إنشاؤه في العام السادس للهجرة حجر الزاوية في البنية الماديّة والروحيّة والفكريّة لمدينة صنعاء القديمة، وقامتْ على منواله فيما بعد مساجد عديدة أحصاها القاضي الحجري(٩٢) في كتابه "مساجد صنعاء" فبلغت المئة.

كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد أمر الصحابي "فروة بن مسيك"(٩٣) أن يُقيم مسجداً في بستان الحاكم الفارسيّ "باذان بن ساسان"(٩٤)، وكان المكان معموراً ببقايا منشآت سابقة كقصر "غُمدان"، الذي يُعتقد أنّ منه قد أُحضرت حجارة المسجد الكبير، وكذلك بعض أبوابه الفولاذيّة الاثني عشر(٩٥)، وفوق أحدها ما زالتْ هناك كتابة بخطّ المسند لأبيات شعر تشير إلى القصر:

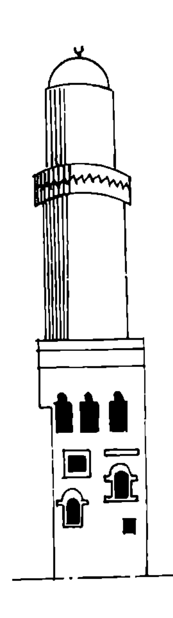
---

(٩٢) القاضي الحجري: هو عبد الله بن أحمد الحجريّ، وُلد في محافظة إب عام ١٩١٧م/١٣٣٥هـ، درس في المدرسة العلميّة بصنعاءَ وفي حلقات بعض مشائخها، تقلّد بعضَ الأعمالِ الحكوميّة في أيام الإمام يحيى. عيّنه الإمامُ أحمدَ وزيراً للمواصلات، وفي عهد القاضي عبد الرحمن الإرياني عُيّن سفيراً لليمنَ في الكويت، ثمّ اختيرَ عضواً في المجلسِ الجمهوريّ، ثمّ رئيساً للوزراء عام ١٩٧٠م/١٣٩٠هـ ثمّ أُقيلَ من منصبِه. عَيَّنَهُ الرئيس الحَمْدي رئيساً للجنةِ الانتخاباتِ ونائباً له في رئاسةِ مجلسِ القضاءِ الأعلى. ثمّ كلّفه مع رئيس الوزراءِ آنذاك عبد العزيزِ عبدِ الغني بزيارة الملك خالد بنِ عبد العزيز آلِ سعود الذي كان يُعالَج في إحَدى مستشفياتِ لَندن حيث اُغتيل عام ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ .

(٩٣) فروة بن مُسيك المرادي: صحابي، رئيس قبيلة مراد في الجاهلية، وأحد وجوه قومه في الإسلام توفي سنة ٦٥٠م/٢٩هـ.

(٩٤) باذان بن ساسان: آخر حاكم فارسي في اليمن قبل دخول الإسلام، وأوّل من أسلم من ملوك العجم، أمّره رسول الله أوّل أمير في الإسلام على اليمن كلها بعد كسرى.

(٩٥) واحدٌ من أبواب الجامع الكبير في الجدار الجنوبيّ تتقدمه قبّة صغيرة يُعرف بالباب العدنيّ.



يسمو إلى كبد السماء مصُعّداً
عشرين سقفاً سمكها لا يقصرُ

وقبالة الباب الأوّل والثاني من أبواب الجامع الشرقيّة، مازالت هناك قطعة حجريّة ضخمة، مداميكها ملتحمة بالمعدن المُذاب يُعتقد كذلك أنّها من بقايا "غُمدان".

ليس بعيداً عن مكان إنشاء الجامع -كما يُعتقد أيضاً- كانت هناك كنيسة "القُلّيْس"(٩٦) الضخمة التي بناها "أبرهة الحبشي" على هدي كنيسة

(٩٦)ويوجد حاليّاً موضع في صنعاء القديمة يُعتقد أثراً لكنيسة القُلّيْس و يدعى "غرفة القُلّيْس" ككان ملكُ اليمنِ النصرانيُّ (تبان اسعد بن أبي الكرب) أولَ من كسا الكعبة، واعتنق ابنُه ذو نواس ابن تبان اليهوديةَ، وأحرق نصارى نجرانَ في محرقة أصحابِ الأخدود الشهيرةِ التي أوعزت بيزنطةُ للحبشة على أثرِها باحتلال اليمن، كذريعةٍ دينية تُخفي في حقيقتِها أطماعَ السيطرةِ السياسية والاقتصاديةَ على طرقِ التجارةِ البريةِ والبحريةِ، فأرسل النجاشيُّ جيشاً كبيراً واحتل اليمنَ، وأرادَ قائدُ جيشه أبرهةُ إثباتَ ولائه ببناء كنيسة عظيمة أطلق عليها اسم " القلّيس" (من لفظ الكنيسة باللاتيني)، ويَروي الكثيرُ عن عظمة معمارِها الذي استخدمَ كما يُقال جزءاً كبيراً من حجارة قصر غمدان، وأمر أبرهةُ الناسَ بالحج الى القلّيس بدلاً من الكعبة، ثم قام رجلُ ممن يُعظّمون الكعبةَ بقضاء حاجته داخلَ القلّيس ولَطّخَ جدُرانَها، مما أغضبَ أبرهةَ الذي أقسمَ أن يُحطّم الكعبة، وتَوجّهَ الى مكةَ (قصة أصحاب الفيل المذكورة بالقرآن) فواجَهَتهُ طيرُ أبابيلَ رمت جيشَه بالأحجار وهَزَمَته، وبقيت الكنيسةُ بعد ذلك مهجورةً وكَثُرت حولَها الأساطيرُ لم يَمَسّها أحدٌ خوفاً من اللعنة، إلى أن قَدّمَ أحدُهم للحاكم نَبُوءةً تقولُ إنّ مَن يَهدمُ القليّسَ سَيَحكُمُ اليمنَ أربعينَ سنةً، فأرسل أبو العباس السفاحُ عامله إلى اليمن (الربيعَ بنَ زيادِ الحارثيّ) الذي استخرجَ وأصحابهُ ما في الكنيسة من أموالٍ وهَدموها (ويُقال إنهم تَوفّوا جميعاً في ظروفٍ غامضةٍ)، ولم يَبقَ من القلِيّسِ اليومَ إلا أثرُها في صنعاءَ القديمةِ (حفرةُ أوغرفةُ القليّس).

الميلاد في بيت لحم، ليُنقل إليها الحجر الأسود وتكون بديلاً للكعبة الشريفة في مكّة المكرّمة، لكن الطيور المحمّلة "بحجارة من سجّيل" (ويُقال أيضاً الجدري) فتكتْ بجنده فهُزم قبل أن يهدم الكعبة (وكان ذلك في عام ٥٧٠م).

نجتاز صحن المسجد، تحيط به الأروقة وتحرسه مئذنتان من الشرق والغرب، في الداخل أعمال فنيّة رائعة، خاصّة الزخارف المتنوّعة التي تغطّي "مصندقات" سقوف الحرم.. متحف حيّ يعكس روح العصور المتعاقبة على المدينة، إذ كان يُهدى له دائماً أفضل ما يُنتجه الرسّامون والرقّاشون والخطّاطون.

و أمامنا واحد من أقدم محاريب الإسلام صلّينا الظهر وابتهلنا بالدعاء.. أغمضت عيني أحاول رؤيتهم واحداً واحداً.. أهلي وأحبابي.. لأدعو لهم جميعاً بما أحب ويحبّون.. إذ يُقال إن الدعاء مستجاب في هذا المسجد وأنّ "في قسمه الخلفي روضة من رياض الجنّة".

تربّعتُ على السجّاد النظيف، أسندت ظهري إلى أحد الأعمدة الاسطوانيّة البيض، وجلتُ ببصري في أرجاء قاعة الصلاة الواسعة.. أتنهّد بارتياح وقد تسرّب إلى روحي ما في المكان من تراكم طاقة المحبّة والصدق.. في هذه المساجد القديمة "شيء روحانيّ" لا يمكن اختراعه أو تقليده.. يكمن في أدقّ تفاصيلها.. يحررنا من الجاذبيّة الأرضيّة ويصلنا حقّاً بالسماء.. يغمرنا بالسكينة.. آخذ نفساً عميقاً.. كأنّي أحاول اختزان بعض هذا "الشيء" بين ضلوعي...

عشرات المصلّين وحلقات علماء .. يُكثرون الاعتكاف في المسجد الذي أُنشئ في عهد الرسول في اليمن[٩٧]، وذلك يفسّر مكانته المميّزة، وأنّه مازال مركز صنعاء الأساسيّ لنشر وتعليم القرآن الكريم[٩٨] منذ أكثر من ألف وأربعمئة عام، فالجامع الكبير في صنعاء لم يكُ مكاناً روحانيّاً للصلاة فحسب، بل مركز إشعاع علميّ هام أيضاً

(٩٧) وكذلك مسجد معاذ بن جبل في الجند.

(٩٨) كما كان دائماً مركزاً للقضاء، ففي ركن من أركانه كان القاضي يجلس وخلفه رئيس الأعوان ليسجل الأحكام ويأمر بتنفيذها.

على مدى قرون.. وفي عهد الإمام يحيى حميد الدين عام ١٩٣٦م/١٣٣٥هـ بُنيت مكتبته التي ضمّتْ مجموعة هامّة من المخطوطات الإسلاميّة، وإلى جانبه أنشئت دار حديثة للمخطوطات... وبالمناسبة فقد عُثر في إحدى سقائفه على ثروة هائلة مخبّأة من القصاصات القرآنيّة -تعتبر من أقدم النسخ القرآنية التي عُثر عليها حتّى الآن- وكذلك ثلاثة آلاف مخطوطة فريدة مُحتفظة برونقها وحالتها الجيّدة رغم أن بعضها يعود إلى القرون الأولى للهجرة.

قلتُ لفوزيّة بدهشة: "القرون الأولى للهجرة؟ أوراق محفوظة منذ أكثر من ألف سنة؟ مذهل.. فقلة قليلة -لستُ منها- تحتفظ بأوراقها الشخصية التي تعود حتى لعشرين سنة خلت".. ثم أردفتُ مشيرة بيديّ إلى التكوين المعماريّ للمسجد حولنا والذي يُقال إنّه ينطبق تقريباً على نفسه بعد توسعته وتجديده زمن الوليد بن عبد الملك[٩٩] قبل ألف وثلاثمائة عام.. "ندرة تبقى على حالها في عالم تتغير ملامحه ومعطياته كل ثانية"...

نغادر المسجد.. ويلفح حرّ الظهيرة وجوهنا.

"مرطّب يُطفئ العطش.. طروح.. طروح"، يتعالى صوت البائع الصنعانيّ بلهجته المميزة..

---

(٩٩) حكم الوليد بن عبد الملك من عام ٧٠٥م/٨٦هـ إلى عام ٧١٥م/٩٦هـ، علماً أنّه قد تم تجديد الجامع وتوسيعه عدة مرّات خلال العصور المتلاحقة.. منها تجديده على يد الملكة سيّدة بنت أحمد الصليحي (أروى بنت أحمد) عام١١٣١م/٥٢٥هـ. وقبلها تجديده على يد محمّد بن يعفر عام٨٨٠م/ ٢٦٦هـ، والذي تصادف مع تاريخ بناء أحمد بن طولون جامعه في مصر، ومن غرائب الصدف أنّ كليهما توفي عام ٨٨٣م/ ٢٧٠هـ.

فرحتُ بندائه؛ لأنّ القيظ كان قد أشعل ظمئي .. لا بدّ أنّها هديّة السماء لخير ما فعلتُه ذات يوم..

أتعلّق بذراع فوزيّة كطفلة: "أنا عطشى.. ما هو "الطروح"؟ عصير؟"

تضحك فوزيّة عالياً وهي تجرّني باتجاه العربة الخشبيّة.. أُفاجأ فوقها بما يشبه الخيار الكبير.



- " "الطروح" أو "القثاء" نبات يُزرع منذ القديم في اليمن، يُحكى الكثير عن فوائده للسكّري والهضم وخفض الحرارة ونعومة الجلد والصداع وإدرار البول، وهو فعّال كدواء للحصى و..."

أقاطع محاضرتها الطبيّة بغيظ: "لا يعنيني هذا كلّه الآن يا فوزيّة.. أنا عطشى حقّاً".

أخيراً.. أتلقّف زجاجة الماء الباردة، أرفعها إلى شفتيّ، أتجرّعها بتوق شديد.. أفهم في مثل هذه اللحظات أن يكون الماء وليس النفط الهدف المتوقع لحروب العالم القادمة.

التقلّصات في معدتي.. هل هو الماء المثلّج؟ لا.. لقد بدأ الجوع يفعل فعله.. فالسير في أزقّة صنعاء القديمة لساعات أمتعني لدرجة نسيان أنّني لم أتناول شيئاً منذ الصباح.. وبما أنّه "لا رأي لجائع"... فقد أنذرتُ فوزيّة أنّي مستنكفة عن أيّ عمل أو حوار قبل تناول الغداء.

الإصرار بوّابة المعجزات.. فبعد نصف ساعة وجدتني وفوزيّة نتناول الغداء في مطعم "الشيباني"...

و"الشيباني" سلسلة مطاعم معروفة في صنعاء مختصّة بالوجبات الشعبيّة، ومن أطيبها خبز "الرشوش" وخبز "الرطب"، وكلاهما يُقدّم فوق طبق القشّ المدوّر ساخناً برائحته الشهيّة، أفضّلهما كثيراً على خبز الكدم[100]، الذي لا تخلو منه يدّ فوزيّة، ولا تكفّ عن قضمه بحجّة أنّه خليط مغذٍّ من الحبوب.

كنتُ قد قررتُ سلفاً ما سأطلبه من طعام، وبثقةٍ بادرتُ الشاب الأسمر الذي وقف يتلقّى طلباتنا:

- "طبق سلتة لو سمحتَ"...

خيّب أملي أنّ الشيباني لا يُقدّم "السلتة"، كيف وهي منْ أكثر الوجبات الشعبيّة المعروفة في معظمٍ مناطق الهضبة اليمنيّة، والمطاعم المتخصصة بها هي من أكثرها ارتياداً في اليمن؟.

---

(١٠٠) الكدم: كلمة تركيّة تعني حصّة أو نصيب، وهو نوع من الخبز الشعبي الرخيص الثمن، عُرف أيّام العثمانيين، وهو ذو قيمة غذائيّة عالية إذ يتكوّن من الذرة الصفراء والخضراء والحمراء والشعير والفول والعدس والبازلاء الرفيعة واللوبية، والآن صار يصنع من الفول والقمح والبازلاء فقط.

ثم أنّي كنتُ قد وعدتُ نفسي اليوم بتذوّق "السلتة" التي طالما ارتبطت في ذهني بصنعاء، حتى أنني حرصتُ هذا الصباح أن أشتري "الحرضة" من سوق الملح، الوعاء الذي يطبخون به "السلتة"، قطعة من حجر الحرض[١٠١] المائل للسواد الحافظ للحرارة، تُنحت على شكل وعاء يُشبه الأواني الفخّارية... وبعد تركها فارغة فترة على النار، تُصبُّ فيها مكوّنات "السلتة" لتُطهى بالحرارة المُختَزنة في الحجر ببطء، الزيت المغليّ مع خليط الطماطم والصلصة والبصل، فوق الحلبة البيضاء مع المرق الساخن (ماء اللحم)، إضافة إلى ما تبقّى من محتويات المائدة من رز وبطاطس وبامية وغيرها، تُخلط جميعها مع شيء من الفلفل الحارّ، (يضاف لها أحياناً اللحم المفروم لتُدعى في هذه الحالة "الفحسة").

تنوّع هذا الخليط قد يُفسّر اعتقاد البعض بأن تسمية "سلتة" قد تكون تصحيفاً في النطق لكلمة "سلطَة"، ويقال إنّ اليمنيين لجؤوا إلى "السلتة" في فترة الإمامة نظراً لصعوبة ظروف المعيشة، ولأنّها تسهم في حمايتهم من البرد، و"السلتة" الساخنة تُقدّم غالباً كوجبة غداء.. لأنّها تُسهّل الهضم وتُغلّف المعدة وتمنح الطاقة، وبذلك تكون مناسبة كمقدّمة لمضغ القات بعدها.

حاصله.. يبدو أنني لنْ أتذوّق "السلتة" اليوم.. ولأنّي لم أفكّر بغيرها، تركتُ فوزيّة تملي عليه ما تشاء.. وانتظرتُ.

(١٠١) بالأصل يكون لون الحرضة مائلاً للزرقة الخفيفة، وتكتسب اللون المسود بتكرار استعمالها، ويُتوخى الحذر والعناية في التعامل معها قبل استخدامها في الطبخ للمرّة الأولى، وهي تحفظ الطعام ساخناً لفترة طويلة.

أخيراً.. أطباق الرز واللحم في الأواني التقليديّة الجذّابة .. رائحتها الشهيّة تُنسيني حسرة "السلتة" .. طبق "البرعي" المطهو من البازيلاء المجففة.. والفول الحارّ في أوانيه الطينيّة المصنوعة من المدر.. أتتْ جميعاً في وقتها.

"بسم الله"... أشمّر عن ساعديّ وأغمس قطعة الخبز الطريّة وسط الصحن، أسوة بفوزيّة، مع اليمنيين كلّ الحق أنْ يتناولوا الطعام بأصابع اليدين.. فهذا الأكل المطهو بمحبّة خالصة وسط هذا المحيط الحقيقيّ في كلّ تفاصيله.. لا يمكن التواصل معه بوسائط معدنيّة ميّتة كالشوك والسكاكين.. هنا تُسقط الأقنعة والقّفازات وتتكلم نبضات القلب.



نسختي اليمنيّة...



كان لدينا ساعة فقط لنرتاح في الفندق ونبدّل ثيابنا استعداداً لدعوة في المساء من قبل السيّدة الصنعانيّة الجليلة "أمّ أحمد"، وقد دعتنا إلى حفل "الشُكمة" الخاص بابنتها التي عادت لتوّها من شهر العسل.

و"الشكمة" حفل تقيمه والدة العروس لابنتها في منزل والدها في اليوم الثالث بعد الزفاف أو بعد شهر العسل، وعادة تحضر العروس هذا الحفل -الذي يستمر من العصر حتّى وقت متأخر ليلاً- بثوب الزفاف الأبيض أو لباس احتفاليّ، متقلّدة التاج الصنعاني المذهب فوق رأسها.

فكّرت طويلاً بما سألبسه، قبل أن أختار من خزانتي درعاً حريرياً فيروزيّ اللون، هديّة حملتها لي زينب-صديقتي العدنيّة اللطيفة- إلى

دمشق قبل فترة، والدرع[١٠٢] هو اللباس التقليديّ في عدن، ثوب فضفاض سهل الخياطة، أنثويّ وجميل ومريح خاصّة في جوّ عدن الحار، أنواعه الفاخرة مصدرها الهند أو الشرق الأقصى كأندونيسيا والصين، وقماشه عادةً رقيق للغاية (حرير أو شيفون)، ولأنّه غالباً ما يكون شفّافاً، لذلك تلبس المرأة تحته ثوباً طويلاً يغطّي بعض ما يكشفه الدرع من جسمها يدعونه "الشلحة"، وزينب تقول إنّ بعض النساء الميسورات يطرّزن أقمشة الدروع الحريريّة الخالصة بخيوط الذهب، ويُرسلنها أحياناً إلى الهند لتطريزها بما يُضفي عليها مسحة من الجمال والألق.

"إلى الهند؟ لماذا؟ ولماذا -أصلاً- يأتون بالنسيج من الخارج وقد كانوا يوماً ملوكه؟"، تساءلتُ وأنا أُدخل رأسي وذراعيّ داخل الدرع الرقيق...

أين ذهب تاريخ النسيج اليمنيّ وأسواق المنسوجات المشهورة في صنعاء القديمة التي

(١٠٢) نوع من القماش المصنوع من لب الحرير والشيفون والقطائف و"الشكن" المطرز بالحرير، وغالباً ما تكون شفافة منعمة بمزايا جمالية كالتطريز بخيوط الذهب، وتلبس المرأة هذه الأقمشة على هيئة "الدرع" العدني المعروف حتى الآن مع ارتداء "الأمصار" (المناديل) التي توضع على الرأس لتكمل بها أناقتها.

حدّثنا عنها القاضي حسين السياغي صاحب "قانون صنعاء في القرن الثاني عشر الهجري"؟، كسوق البزّ وسوق البزّ الحضرمي، البزّ الزبيدي، وكذلك البزّ اليريمي والوصابي، حيث كانتْ تُباع المنسوجات[١٠٣] اليمنيّة المشهورة، مثل "الآدم" و"البرود" (من الكتان)، وكذلك "المقصبات" و"القصائب" و"المعلمات" و"المعصفرات" ،البيرم، السباعيّات، الملايا، شقق الحرير، الفوط، النقب(من القماش الأسود)، الشروب(يدخل في لحمتها خيوط الذهب).

وب"الوصايل" (وهي نوع من الأقمشة التي كانت تُنسج في اليمن قديماً وتُزخرف ارتجالاً باستخدام خيوط ملوّنة مصبوغة) كسا الملك اليمني "تبع كرب أسعد" الكعبة بعد أن كساها أوّل مرّة بالحصف(نسيج من خوص النخيل)، وكان قد رأى في منامه أنّه يكسو البيت الحرام، فكان أوّل منْ كسا الكعبة وأوصى بذلك بنيه من بعده، ثم.. ألا يكفي النسيج اليمني فخراً أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد كُفّن بسبعة أثواب يمانيّة سحوليّة؟.

على كلّ.. لبستُ الدرع الفيروزيّ الحريريّ، وفوقه العباءة السوداء بحسب تقاليد صنعاء، وغطّيتُ رأسي "بالمقرمة" (منديل لتغطية الرأس)، ألقيتُ نظرة أخيرة على نفسي في المرآة قبل أن أغادر الغرفة، أمتعني أنْ أتعرّف فيها على "نسختي اليمنية"، لا سيّما في عقد الفضّة والعقيق

(١٠٣) ومدينة زبيد من أكثر المدن اليمنيّة شهرة بإنتاج المنسوجات، وقد أقبل صُنّاع النسيج في اليمن على استخدام طريقة الصباغة في عمل المنسوجات، وفي العصور الوسطى كانت معظم الأصباغ التي تستخدم نباتيّة محليّة أو مستوردة، ومن أهمّها:الزعفران(الأصفر)، الفوّة(الأحمر) الحور الوطني، النيلة (الأزرق).

الصنعانيّ الذي ابتعته صباحاً من حسن في سوق الملح.

في طريقنا من فندق "تاج سبأ" إلى بيت السيّدة أم أحمد نمر في شارع الحسن الهمداني ثمّ ميدان السبعين، الميدان الرئيس في صنعاء، تجاوره دار الرئاسة وفيه ساحة العروض الرئيسة، قبل أن نسلك شارع الستّين.

-" ميدان السبعين وطريق الستّين و.. ما هذا الولع اليمنيّ بالأرقام يا فوزيّة؟ ".

تضحك فوزيّة: "لكلّ اسم سبب.. شارع الستّين سُمّي كذلك لأنّ عرضه ستّين متراً، أمّا هذا الميدان فقد سُمّي بالسبعين نسبة إلى الحصار المعروف الذي ضربته فلول القوّات الملكيّة على الجمهوريين المتحصنين في العاصمة صنعاء، تجربة قاسية وأيّام عصيبة عاشتها صنعاء على مدى سبعين يوماً[١٠٤].

تدور بنا السيّارة حول الساحة فنمر قرب نصب الجنديّ المجهول وأميّز في تكوينه رقم ٢٦، أشاكس صاحبتي: "الأرقام اليمنيّة تلاحقني مجدداً"

تنبري فوزيّة للدفاع عن الأرقام اليمنيّة بقولها: "ألا تعرفين أن هذا تاريخ ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م/٢٧-٤-١٣٨٢هـ؟، أمّا الأعمدة الستّة التي

---

(١٠٤) حصار السبعين كان بين ٢٨ نوفمبر١٩٦٧م/٢٦-٨-١٣٨٧هـ و٨ فبراير١٩٦٨م/٩-١١-١٣٨٧هـ .يقول عنه الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان الملقب بالفضول:

ومدى السبعين يوماً قد رفضنا

وسنمضي رافضين

كل من جاء لكي يدجى ضحانا

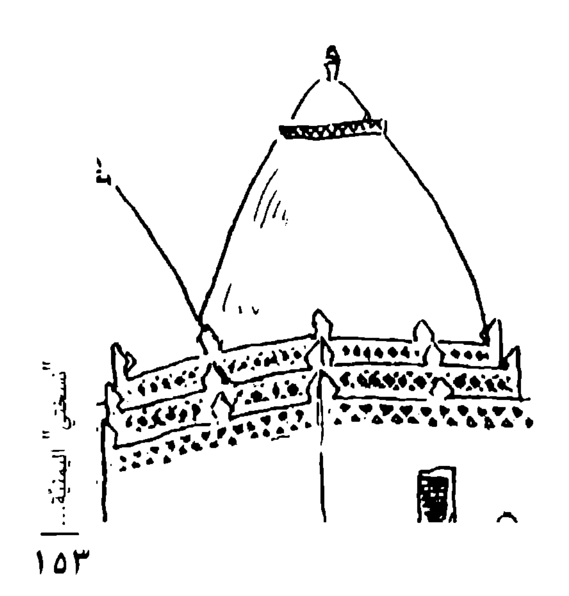
وسنمضي داحضين

كل أثم ...

ترينها فهي تمثل بقايا عرش بلقيس وكذلك أهداف الثورة الستّة أيضاً".

أسأل: "وهل هي صدفة أن لجامع "الرئيس الصالح" الفخم المطلّ أيضاً على الميدان أيضاً ستّة مآذن صنعانيّة الطابع؟".

والجامع بالمناسبة تحفة معماريّة صُممتِ بحيث تُرى من أيّ مكان في صنعاء، بقبابها الثلاث والعشرين حول قبتها الرئيسة الكبرى، ربع مليون متر مربع من العمل الحرفيّ المُتقن، تشمل مبنى الجامع وكليّة علوم قرآن ودراسات إسلاميّة ومصلّى نساء، اجتهد مُصمموها أن تعكس التراث اليمنيّ الزاخر والطابع العمرانيّ اليمنيّ العريق، لاسيما في المنارات القرميديّة والواجهات الحجريّة ومواد البناء المستخدمة والأعمال الخشبيّة الفنيّة والتكوينات والزخارف الهندسيّة والقمريّات الجصّية المتعددة.



ولكي لا نشعر بطول الطريق، تابعتُ مداعبة "محامي الدفاع عن الأرقام اليمنيّة" صديقتي فوزيّة، بأن رويتُ لها قصّة طريفة -في ذات موضوع الأرقام- والقصّة روتها لي باحثة معماريّة فرنسيّة من عشّاق اليمن الكُثر، إذ كانت في زيارة لمسجد قديم قرب تعز، واستوقفتها قبّته المدببة، ثم وقعت عينها على الرجل الكهل الجالس على كرسي بجوار الباب، بدا لها جزء من المكان، كان

يلفّ رأسه بعمامة، ويرتدي الزيّ اليمني، ويرمقها -كما أخبرتني- بين الحين والآخر بكثير من عدم الاكتراث.

"ربّما كان موظفاً هنا".. فكّرت قبل أن يقودها فضولها العلميّ إلى أن تسأله: "متى شُيّدت هذه القبّة يا عم؟"

دون أن يكلّف نفسه عناء النظر إليها.. أجاب بجديّة وثقة العارف: "منذ ستة ملايين عام".

فغرت الفاه عجباً، وشكّت أنها لم تسمع جيّداً فأعادت السؤال "منذ متى؟"

أجابها بلهجة من يجاهد ليضبط هدوءه ويكون مرناً: "منذ ستة آلاف عام".
غالبت الضحك هذه المرّة وهي تلحّ في معاودة السؤال "عفواً؟".
التفت إليها أخيراً، وقد طفح لديه الكيل وأثار "غباؤُها" حفيظتَه: "اسمعي، ستّمئة عام... وهذا آخر كلام لديّ".
بعد ذلك بفترة، وفي محاضرة ألقيتها على مدرج جامعة صنعاء حول عمارة حضرموت، سُئلت عن دقّة ما يُقال حول عدد مساجد مدينة تريم (الشائع أنّها ٣٦٥ مسجد بعدد أيام السنة)، أحد الحضور -وهو صديق من أساتذة جامعة صنعاء- قاطع إجابتي العلميّة الجادّة ليشير مُمازحاً إلى قصّة تلك القبّة -وكانت صديقتي الفرنسية قد روتها له أيضاً- وانتهى بقوله: "لا تُتعبي نفسك بالتحليل والشرح.. اليمنيّون والأرقام قصّة يصعب تفسيرها."

نستقلّ إذاً شارع الستّين العريض، نمر قرب ناحية "فج عطّان" (عضدان)، فيُشير السائق إلى أحد البيوت الكبيرة يميناً: "هذه فيلا "نسيم حميد" الملاكم اليمني البريطاني المشهور.. هل تعرفينه؟"...

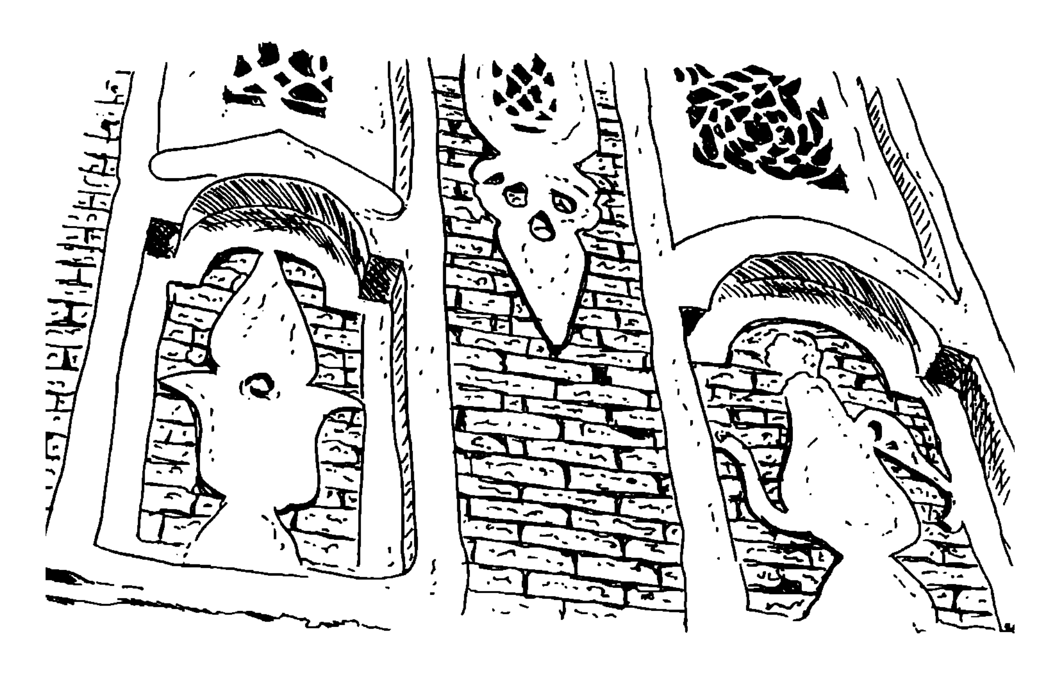
ارتاح أبو حكيم لإيمائي بالإيجاب.. فرغم مرور السنوات، لن ينسى اليمنيّون أبداً "البرنس" الذي رفع اسم اليمن عالياً في التسعينيّات بعد أن فاز في ١١ مباراة عالميّة في الملاكمة في الجولة الثانية، وكان يصرّ في كلّ مبارياته على رفع علم اليمن إلى جانب العلم البريطاني مؤكّداً ارتباطه بوطنه الأصلي اليمن الذي كرّمه أيضاً.

وحتّى أنا التي لم أتخيّل قطّ أن أتابع يوماً مباريات هذه الرياضة العنيفة التي أمقتها، تابعتُ على التلفاز -أيّامها- "نسيم" الذي شغل الدنيا بحركاته البهلوانيّة الرشيقة الخفيفة الظل فوق الحلبة، والطريف أنّه كان لا يكتفي عادة بهزيمة خصومه جسديّاً، بل ونفسيّاً أيضاً من خلال كلماته الساخرة ورقصه متجنّباً لكمات خصمه.

نقترب من وجهتنا... ندخل حيّ "حدّة" جنوب غرب المدينة، كان هذا الحي الحديث نسبيّاً بساتين حتّى بداية السبعينيّات، ثم بدأ كحيّ للدبلوماسيين والطبقة الثريّة قبل أن تغزوه المشاريع الاسكانيّة.

نصل أخيراً منزل السيدة أم أحمد، فيلا فخمة تتوسط حديقة منظّمة تشي بذوق مرهف...

ألتقط صورة لواجهة المنزل الساحرة، كما في معظم مباني صنعاء، يبهرني العمل اليدويّ المكثّف، زخارف بليغة، ولغة يغنّيها الحجر بمفردات يمنيّة.. لا أحد يُضاهي اليمنيين حين يتعلّق الأمر بالنقوش والحِرَف اليدويّة ولا سيّما أعمال الجص، وأحترم أن هذا الاهتمام بالجمال لا يتعارض أو يقلّ عن الحرص على تأدية الوظيفة، فجمال الزخارف في واجهات الأبنية



اليمنية وتفرّدها قد استُخدم كلغة تعبير لا كعلامة ترف، كما ألفناها في باقي مناطق العالم، ولكثير من هذه النقوش والفتحات المختلفة المقاسات والأشكال وظيفة مهمّة يؤدّيها، كالتهوية أو التكييف أو الإضاءة أو حماية الخصوصيّة، بل وأحياناً الناحية الدفاعيّة، وحتّى اختيار طلاء الزخارف، وأطراف النوافذ بالكلس الأبيض (النورة) لم يكن لجماليّته فحسب، بل لطرد الحشرات وعكس بعض أشعّة الشمس الحارقة أيضاً.

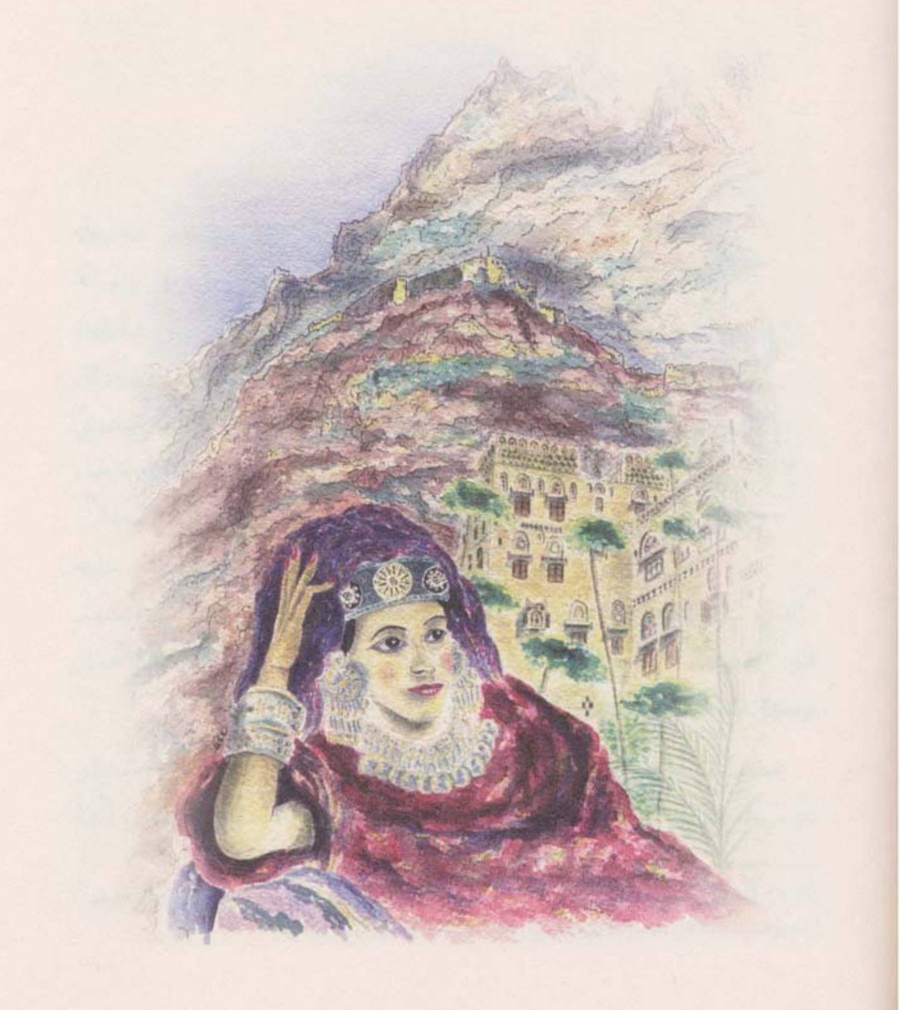
"ليس فقط من خارج البناء بل وداخله أيضاً"... قلت لنفسي وأنا أخطو داخل البهو الأنيق، أتتبع بعيوني أعمال الجصّ البديعة على السقوف والجدران، واللوحات الملوّنة العملاقة.

العمل المُتقن يسرق مني آهة إعجاب.. لاسيّما القمريّات العبقريّة الألوان أعلى الجدار... عبر الزجاج الملوّن لتلك الفتحات القوسيّة المجصصة أعلى النوافذ، تُبدع شمس الغروب لوحات فنيّة بديعة فوق أرضيّة البهو وجدرانه... فتعاودني بإلحاح فكرة أنّه كان من الإنصاف أنْ يدعوها: "شمسية" وليس "قمرية"، كم أحبّ إيقاعها المتكرر في التراث المعماري اليمني التقليدي، بأشكالها الزخرفيّة المتنوّعة التي تُجسّد خيال وموهبة صنّاعها.

نصعد الدرج المرمري الواسع... وعلى باب الصالون الكبير، أقف مبهورة أمام مشهد لم أره من قبل...



صنعانيّات وقات...



رائحة التبغ تملأ المكان، هنا وهناك تناثرتْ "مداعات" (نراجيل) رشيقة ذات أبواق واسعة للغاية.. "ربّما يتّسع كلّ "بوري" لأكثر من (كيلو) من الفحم"، فكّرتُ وأنا أتأمّل الأبواق العامرة بأوراق التبغ اليمنيّ الفاخر[١٠٥]، وأتتبع النقش اليدويّ الجميل الذي يزيّن النراجيل من أسفلها إلى أعلاها، بدءاً من جسم المداعة النحاسيّ الرئيس "الجحلة"، مروراً بـ "القطب"، وانتهاءً بـ"البوري" الذي يُوضع عليه "التتن" (التبغ) وفوقه أحجار النار (الفحم)، ولعل أطرف ما في المشهد هو "القصبة" (الخرطوم) الطويلة التي يصل طولها أحياناً إلى عدّة أمتار ليسهل نقلها بين الحضور.

مضيفتنا ترحّب بنا بحرارة، عناقها يغمرني بعبق الفلّ المزوج بعطر عربيّ.. تجذبني من ذراعي لتجلسني يمين سيّدة قدّمتها لي على أنّها

(١٠٥) وأشهره التبغ الحضرميّ وخاصّة ما يأتي منه من "غيل باوزير" ومنه التنباك "الحمّمي" المعروف خاصّة في مصر ودول الخليج حيث كان الطلبة اليمنيون يبيعونه.

"الضيفة الكبيرة"، المكان المميّز اختارته لي تعبيراً عن احتفائها بمقدمي، واليمنيّون عموماً يُحسنون إكرام الضيف ويُجيدون وفادته.

في حالة انبهار، مأخوذة كـ"أليس في بلاد العجائب".. أتربّع فوق المجلس المنخفض.. أسند ظهري إلى الوسائد خلفي.. وأتأمّل.

الصالة طويلة بشكل ملحوظ بالنسبة إلى عرضها، عشرات السيّدات بأثوابهن الزاهية الألوان التي يبدو أغلبها تراثيّ الطابع، بعضهن يعتمرن غطاء الرأس الصنعانيّ الأقرب إلى طربوش تركيّ مغطّى بقماش رقيق مشغول.. تأمّلت هذا الحشد الكبير من نساء صنعاء فوق الأرائك الشرقيّة المنخفضة المكسوّة بقماش محليّ يغلب عليه اللونان الأحمر والأسود، وفكّرت بما قاله أبو "الحسن الهمداني" عنهنّ قبل ما يزيد على ألف عام "ليس يلحق بحسناء صنعاء امرأة من العالم، ولا يلحق لشرعتهنّ وظرفهنّ امرأة، وفيهنّ غيرة، ولهنّ شكل ودلال وملق".

كنتُ أبحثُ في ذهني عن مدخل للحوار مع جارتي، حين بادرتني بالسؤال عن تقاليد الأعراس في سوريّة..

تحت وطأة العيون والآذان التي كانت ترصدني من كلّ مكان، تعمّدتُ الاختصار في الإجابة، قبل أن أنتقل إلى سؤالها بدوري عن عادات الزواج في اليمن، لتجيبني:

"اليمن عالم واسع، لكلّ منطقة فيه عموماً عاداتها وتقاليدها الخاصة، بالنسبة للزواج على سبيل المثال.. في بعض المناطق لا تأتي العروس بيت والدتها إلّا بعد شهر أو شهرين من الزواج على الأقل، وقد

يصل في بعض المناطق إلى سنة"، ثم تبتسم مضيفةً: "وفي مناطق أُخرى ما أن تطأ العروس عتبة منزل الزوجيّة بقدمها حتّى يُسارع العريس بوضع قدمه فوق قدمها، فإذا نجحتْ في سحبها بسرعة كان معنى ذلك أنّها ستتولى إدارة البيت بلا منازع، وإنْ نجح العريس بالضغط على قدمها أولاً كان هو سيّد البيت في كلّ صغيرة وكبيرة".

استنشقتْ "نفساً" طويلاً من "مداعتها" قبل أن تتابع: "الحزام الفضّة من الأساسيّات التي يقدّمها العريس للعروس -لاسيّما في جنوب اليمن- وهو بمثابة "المحبس" أو خاتم الزواج عندكم".

هُيِّئَ لي أن المكان خلا إلا منّا نحن الاثنتين، وأنا أُصغي بتركيز شديد للسيدة اليمنيّة وهي تشرح بإسهاب: "في كثير من مناطق اليمن يستمر العرس لعدّة أيّام، في أبين مثلاً يدوم أربعة أيّام: الأوّل ويُسمّى يوم "الزقرة"[١٠٦] أو "المحجبة" وتجتمع النساء فيه "للإمساك" بالعروس، ويُشترط في من تُمسكها أن تكون سعيدة في حياتها كي تُسعد العروس في حياتها أيضاً، ثم يُذبح خروف فداء للعروس التي يُغطّى رأسها بقطعة قماش تُسمّى "الجماش" وتُحجب عن الرجال.

اليوم الثاني هو يوم "الحنّاء"، و"الحنّاء" من الطقوس المهمّة التي تُضفي على العرس

(١٠٦) الزقرة: زقر الشخص أي أمسك به.

اليمني نكهته الخاصّة، طقس يشترك فيه الرجال والنساء، حيث يقوم الرجال بتحضير الحنّاء في المساء، وفي الصباح يُخرجون العريس من البيت محمولاً على الأكتاف، يُمدد على الأرض ثم يدهنون جسمه بالحنّاء وهم يرددون "حريو وأنا بعدك حريو" (أي عريس وأنا بعدك عريس)، أمّا النساء فينقشن الحنّاء على أيدي وأقدام العروس، ويطلون وجهها ب"الغسل" المستخلص من أوراق شجر السدر، وهنّ يرددن أهازيج خاصّة ومنها:

الـب ما يحنّـي حنّـوا لـه (١٠٧)

على الحنّاء على الحنّـاء ويهنـا مـن تحنّـا بـه (١٠٨)

تحنّاء به غُصين البـان دي عـاده شخـص نابـه(١٠٩)

وعلى الحنّاء وعلى الحنّاء حنّوا بنتنا لبن سيدنا(١١٠)

ساعـة الحنّـاء تشفـي المــارود(١١١)

وعلى ذات الإيقاع الموسيقي يتابعون سوق عشرات الأبيات الشعريّة المماثلة.

---

(١٠٧) رفض أن يتحنّى فقمنا بعمل الحنّاء له.

(١٠٨) فليهنأ من يتزيّن بهذه الحنّة.

(١٠٩) تزيّنت بالحنّة الممشوقة القوام الصغيرة السنّ التي بالكاد ظهرت أنياب أسنانها.

(١١٠) زيّنوا بالحنّاء ابنتنا لتكون عروساً لابن سيّدنا.

(١١١) التزيّن بالحنّاء يشفي المريض.

وبالمناسبة فالحنّاء -التي يُزرع أجود أنواعها في حضرموت[١١٢] -لا تُستخدم للزينة فحسب، بل للصباغة والعلاج أيضاً ، في اليمن وكذلك في مصر والسودان والهند وغيرها.

في اليوم الثالث "الغسل" تقوم النساء بغسل العروس بالماء، وفي الرابع وهو يوم "الأخضر" أو "البدعة"، تقوم امرأة يلقبونها ب"الخرّازة" بتزيين العروس وإلباسها الثوب الأخضر من رأسها حتى قدميها وتنقيبها بنقاب أخضر مزيّن بالذهب، إذ لا يجوز أن تكشف العروس عن وجهها في ذلك اليوم للضيوف أبداً، أمّا فستان العرس الأبيض فتلبسه بعدها في يوم "المرواح" أي يوم الزفاف.

أتابع أناملها الرقيقة البيضاء تقطف بعناية وريقات غصن قات تناولته من حزمة خضراء صغيرة ملفوفة بمنشفة بيضاء مبللة أمامها، حزمة تشبه حزم أوراق القات الأخرى التي رُصّ كلّ منها أمام سيدة في المجلس بقرب زجاجة ماء صغيرة وعلبة مشروب غازي وقلس (كوب) زجاجي.

استمرّت جارتي برصف الأوراق الخضراء اللامعة في باقة صغيرة بين رؤوس أصابعها.. ثم فاجأني أن مدّت بها يدها نحوي.

ارتبكتُ ولم أعرف كيف أتصرّف للوهلة الأولى.. اللعنة، ما الذي أتى

(١١٢) وأشهر أنواعها الغيلي نسبة إلى منطقة غيل باوزير في حضرموت، تُعطي شجرة الحنّاء الواحدة حوالي ٢٠ كيلوغراماً من الورق، تُفرش أعواد الحنّة تحت الميّت في القبر، وتُطحن أوراقها مسحوقاً يفيد في علاج العقم وإدرار البول وتنعيم البشرة وتفتيت الحصى، ويُستخدم أيضاً لزينة الأيدي والأقدام والشعر، وتُستعمل أوراق الحنّة في الصناعة والصباغة وحفظ الثياب من العث، ومعروف أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يستخدم الحنّاء.

بي الليلة هنا وأنا ضدّ القات على طول الخط؟، لم أكنْ أعرف أنّ معظم الدعوات في صنعاء تعني بالضرورة "مقيل قات"، الوسيلة الاجتماعية الأولى للتواصل بين الناس هنا، وطالما اعتقدت أنّ هذه العادة السيّئة مقصورة على الرجال فقط!.

تشجعني السيّدة الصنعانيّة وقد استشعرت ترددي: هذا من أجود أنواع القات... ثم تردف مبتسمة وهي تغمز بإحدى عينيها السوداوين الواسعتين: "يدعونه قات الشامي" (١١٣).

"الشامي؟"، لطالما أرضاني إعجاب اليمنيين وتقديرهم لكل ما يمت للشام بصلة، بل واستخدامهم كلمة الشامي في أحيان كثيرة كمعيار للجمال، ولكن ماعلاقة القات بالشام؟ لم أحب الفكرة".

وربما يجب أن أخبركم أن مصطلح "الشامي" يرمز الى كل ما يتعلق بسورية بالنسبة لليمنيين، وليس كما بالنسبة لنا نحن سكان سورية حيث الشام هي دمشق حصراً.

"شامي أو مرّيخي، لن أتناوله".

فوزيّة تميل على أذني تهمس بضرورة أنْ أقبل الحزمة المشؤومة، لأنّ رفضها سيُعتبر إهانة للضيفة الكبيرة بعد أن نسّقتها لي بنفسها، أتناولها بتردد من يدها.. تبتسم و تُشير إلى فمها أن "امضغيه" مثلي.

مجدّداً تضغط فوزيّة على ذراعي مُحذّرة من الرفض، أجاهد للقبول

---

(١١٣) الشامي : من أجود انواع القات ويزرع في محافظة حجة.

محاولةً تجاهل اعتراض عقلي الرافض لموضوع القات جملةً وتفصيلاً، أليس القات آفة اليمن ومشكلة مشاكله؟ التي تجعل عالماً كالدكتور عبد العزيز المقالح[١١٤] يردد:

أنا من بلاد القات، مأساتي تضج بها الحقب
أنا مـن هناك قصيدة تبكي وحـرف مغتــرب

ولمنْ لا يعرفون الكثير عن القات -لا تقلقوا، لن أعتبرها فرصة لأتحفكم بمحاضرة حوله ولكن- ربّما يكون مفيداً أن نتّفق على بعض النقاط:

بحسب معرفتي المتواضعة التي كوّنتها من خلال قراءاتي وتعايشي مع اليمن واليمنيين لسنوات طويلة، فالقات نبات ذو لون أخضر بنيّ مشوب بالحمرة، من الفصيلة السيلاسترية واسمه العلمي (سيلاسترس إدوليس، Celastrusedulis)[١١٥]، ينمو على شكل شجيرات دائمة الخضرة قد يصل طولها إلى خمسة أمتار، يُزرع أساساً في اليمن وإثيوبيا

---

(١١٤) الأستاذ الدكتور عبدالعزيز صالح المقالح: كاتب وشاعر وأديب من مواليد عام ١٩٣٧م/١٣٥٦هـ، من أبرز مثقفي اليمن، حصل على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة عين شمس، وترأس جامعة صنعاء، صدر له العديد من الدواوين والمؤلفات الأدبيّة والشعريّة.

(١١٥) أوّل من أطلق على القات اسمه العلمي هو عالم النبات والأحياء والمستشرق والمستكشف السويدي بيتر فورسكال peter forskal ولد في ١٧٣٢م/١١٤٤هـ، وأطلق على القات اسم كاثا (Catha) عام ١٧٦٨م/١١٨٢هـ، ونظراً لوفاة بيتر فورسكال في اليمن قام نيبور (Niebohr) (رفيقه في البعثة العلميّة التي أرسلها ملك الدانمارك) عام ١٧٧٥م/١١٨٩هـ بنشر تلك الدراسة، وأضاف أن الاسم الثاني للقات هو كاثا ايديوليس فورسك (Cath Edules Forsk) كتخليد لذكرى صديقه.

(الحبشة) التي يُعتقد أن نبتته انتقلتْ منها إلى اليمن[١١٦]، وقد اكتُشف بطريق الصدفة حين لاحظ راعي أنّ قطيعه يزداد إدراراً ونشاطاً بعد أكله من هذه الشجيرات بالذات.. وليته لم يُكتشف.

ولنبتة الشيطان -كما يسمّونها- أنواع عديدة[١١٧]، وهي نبتة قويّة لا يذلّها عطش ولا يقهرها إهمال، وحتّى الجراد حين تهاجم أسرابه اليمن أحياناً.. يأكل كلّ شيء أخضر.. كلّ شيء.. ما عدا القات.. تصوّروا..

ولأنّه غالي الثمن نسبيّاً ويُعطي عدّة مواسم في العام، فقد تشكّلت طبقة اقتصاديّة قويّة تعيش على تجارة القات وتسويقه وبيعه وزراعته.. الخ، فانتشر بشكل هائل.. حتّى صار من العلامات الفارقة في ملامح المجتمع

---

(١١٦) يرى بعض المؤرخين أن القات وجد أولاً في منطقة تركستان، باعتماد ما ذكره البيروني في كتاب الطب، وجاء فيه: (القات شيء مستورد من تركستان، طعمه حامض، وهو يبرّد الحمى، ويريح الصفراء، ويبرّد المعدة والمصران)، وقد عاش البيروني في الفترة ما بين ٩٧٣-١٠٥١م/٣٦٢-٤٤٣هـ ، ويرى الباحثون أن شيوع عادة مضغ أوراق القات في اليمن يرجع إلى حوالي القرن الرابع عشر الميلادي، ويشهد المقريزي ١٣٦٤-١٤٤٢م/٧٦٥-٨٤٦هـ في رسالة له بعنوان: (الإلمام بأخبار من في ارض الحبشة من ملوك الإسلام) بوجود شجرة تسمى القات، وهي "شجرة لا تعطي فواكه ، ولكن الناس يأكلون أوراقها الصغيرة، وهذه الشجرة تزيد الذكاء، وتنشّط الذاكرة، وتذكّر الإنسان بما هو منسي، كما أنها تقلل النوم، وتُضعف الشهية والشهوة".

(١١٧) قات الشماخ، وهبان، هباش، شعفي، حرامي، جحاشة، شامي، رداعي، المراني، الجحبات، القيفي، البقمات، واليافعي والضالعي وغيرها..

اليمني، و طبعت تقاليده بصمتها على ثقافة اليمن وفنونه وتراثه، بل اندس حتّى في الأشعار والأغاني، والفنان محمد محسن عطروش[118] يغنّي مشيراً إلى بائعات القات من صبايا جبل صبر الفاتنات:

يــابايعــات البلــس[119] والقــات يـاحوريـــات
يــانــــازلات مــن علالــــي البنـــــدر[120]
يــالابســــــات الــذهـــــب في زيـنـــــــات
ياسعد من يشتري من صبايا صبر[121] الأخضر

وللقات في الواقع أسواقه الخاصّة، يرتادها الناس في فترة الظهر بعد انتهاء أعمالهم، أو تعمّدهم الانصراف منها باكراً لشراء "تخزينة" اليوم، التي يتراوح سعرها عادة ما بين ٣٠٠ و١٠٠٠ ريال يمني (خمسة دولارات وسطيّاً)، ويمكن استشفاف الوضع المادي لليمني من نوع القات الذي يشتريه، القات الغالي الثمن يسمّونه "قات الظَلَمة" أو "الورثة" أي من يملكون أموالاً لم يتعبوا بجنيها، أمّا القات المتوسّط الثمن فيُسمّى "قات الموظفين"... على كلّ حال، غالٍ أو رخيص، فهم يحملونه -بعد وجبة الغداء- في باقات إلى "مقايل" القات ويبقون أسراه حتّى المساء، وحتى

---

(١١٨) محمد محسن عطروش: فنّان يمني من أبين، من مواليد الأربعينيّات، درس في القاهرة الأدب الأنجليزي، عمل مدير الإذاعة والتلفزيون بعد الإستقلال، توجه إلى الاناشيد الوطنية والأغاني الحماسية والشبابية للكفاح والنضال، غنّى أيضا أجمل وأرقّ الأغاني العاطفية المشهورة والمعروفة.

(١١٩) البلس: التين.

(١٢٠) البندر: البلدة.

(١٢١) صبايا صبر: نساء جبل صبر المشهورات بجمالهن.



المضطرون للعمل منهم -كالسائقين والفلاحين أو الباعة مثلاً- فهم يمضغونه أثناء العمل.

وعمليّة مضغ القات تُسمى "التخزين"، يضع فيها "المُخزِّن" حفنة من أوراق القات في فمه.. يلوكها ببطء ليمتصّ -على مدى ساعات- مكوّنات القات التي تحمل عنصرين أساسيين في تخدير الجسم[١٢٢]، وذلك عبر تمرير جرعات من الماء أو المشروبات الغازيّة على مضغة القات "المُخزّنة" في جوف الفم، وقد عرفتُ لاحقاً أنّ متذوّقي القات "المحترفين" لا يشربون معه إلّا "المزغول" وهو قهوة محلّاة، أمّا الماء فيحرصون على تناوله بالملعقة، لضبط كميّاته المحدودة التي ستمرّ على كرة القات في باطن الخد، وكي يحافظ على نكهته، فهم لا يغسلون القات عادة.. بل يكتفون بمسحه بالورق أو الأصابع.

وبعكس ما يعتقد الكثيرون، فمشكلة القات الأساسيّة ليست صحيّة بالدرجة الأولى، بل هو ظاهرة اجتماعيّة خطيرة، وكارثة وطنيّة لها آثارها الاقتصاديّة السلبيّة الفادحة، إذ تستهلك زراعته جزءًا كبيراً من المياه والأراضي الصالحة للزراعة[١٢٣]، ويكسر القلب أنْ نشهد بصمت أشجار البن

(١٢٢) هما «الكاثينون» (Cathinon) و«الكاثين» (Cathine) إضافة إلى «الكاتيدين» و«الكاثينين» (Catidin & Cathinine).

(١٢٣) يُعدّ القطاع الزراعي من أهمّ القطاعات الإنتاجيّة في الاقتصاد القومي اليمني، وللبن اليمني =

والعنب التي اشتُهرت بها اليمن عبر مئات السنين -وهي مصدر مهم للدخل القوميّ- تُنزع تدريجيّاً ليُدسّ مكانها القات الذي تبقى دورته الاقتصاديّة داخل البلاد فلا يجني لها إلا الوبال.

ويُحمّل شراء القات يوميّاً المواطن اليمني أعباء ماليّة ثقيلة تكون غالباً على حساب مخصصات بيته، مما يُرهق الأسرة ويحرمها كثيراً من الكماليّات أو الأساسيّات أحياناً(١٢٤)، ناهيك عن أنّه قد يوسوس للبعض بسلوك طرق فاسدة لتأمين كلفة القات الشهريّة، سيّما وأنّ هذه العادة الشعبيّة هي الوسيلة الوحيدة تقريباً لدخول المجتمع اليمنيّ بعد أنْ غُيّبتْ معظم الفعاليّات الاجتماعيّة والثقافيّة التي تجمع الناس وتحرّض تفاعلهم وتطوّرهم، كالمسارح والمعارض والأندية الثقافيّة وغيرها، واستُعيض عنها بمجالس القات، وقد أخبرتني أستاذة جامعيّة بامتعاض أنّه" حتّى مجالس الجامعة الرسميّة قد تُؤجّل أحياناً لتُنقل إلى "المقايل" المسائية مما يحرم الأستاذات أن يدلين بدلوهنّ في هذه المجالس، وبذات الطريقة انعكست هذه الظاهرة سلباً على الحضور النسائي في المنتديات الثقافية مما حدّ من انتشار الأدب النسائي"!

ملايين الساعات التي يهدرها اليمنيّون في تعاطي القات يوميّاً تنخر أيضاً أسرهم، إذ تشغل مجالسه الرجال والنساء عن أطفالهم الذين يتلقّفهم القات والشارع والضياع، قصّة لخّصها بألم الشاعر محمد

= شهرة كبيرة ويُعتبر البن اليافعي خاصّة -والمطري والحرازي أيضاً-علامة للجودة. وللأسف بدأ انحسار زراعة البن بشكل كبير لصالح شجرة القات.

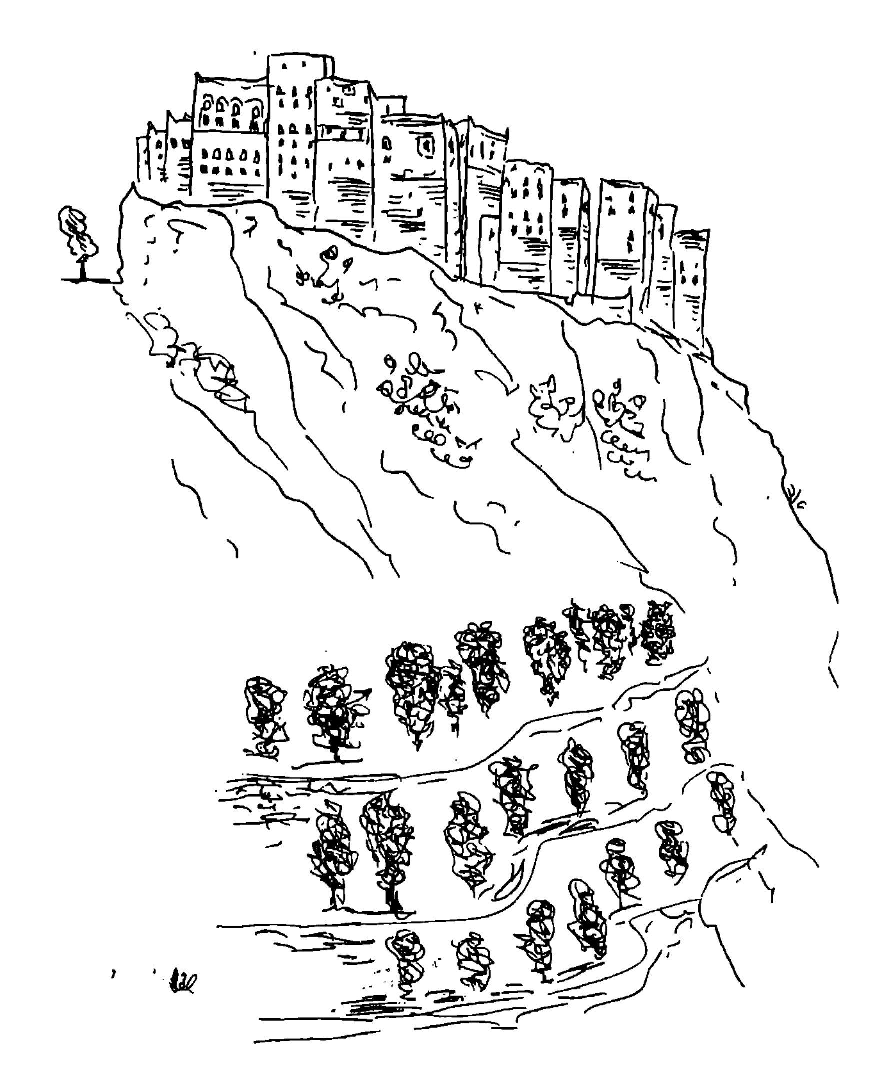
(١٢٤) نسبة استهلاك الأسرة اليمنيّة من القات كحدّ أدنى ١٧٪ من إنفاقها الشهريّ.

محمود الزبيري[١٢٥] ببضعة كلمات: "شيطان نبت من الأرض ليلتهم غذاء النباتات البريئة، ثم أوقع الإنسان اليمني في فتنته، وزاحم الأغذية في معدته، وجرى مجرى إبليس في دمه، وولج ولوج اللص إلى خزائنه، يطارده صباحاً في رؤوس الجبال، ويؤرقه ليلاً مشرداً في متاهات الخيال، يهزأ بعقله، وأعصابه، متنقلاً بينهما بين السرور والحزن وبين الإقدام والإحجام وبين الهزيمة والنصر وبين الغنى والفقر وبين المنطق والجنون".

أعرف مسبقاً أنّ المدافعين عن القات سيختلفون مع هذا الرأي، فهم يرون في جلسات القات واحات يتجلّى فيها إبداع المثقفين والفنانين والكتّاب، يصلون خلالها إلى أعلى درجات التركيز والتحليق والثقة بالنفس، ويقولون إنّ المرء يكون قادراً -بعد تخزين القات- على التفكير العميق وشحذ العقل إلى درجة استحضار تفاصيل بعيدة قلّما تسعفه الذاكرة عادة في استرجاعها...

---

(١٢٥) محمد محمود الزبيري: شاعر وقاضٍ وأديب و مناضل وسياسي يمني، ولد في صنعاء عام ١٩١٨م/١٣٣٦هـ، درس اللغة العربيّة في مصر، جاءت شهرته الكبيرة لا من مكانته الشعرية فحسب، بل ومكانته القياديّة في قمّة الحركة الوطنية، يسمّونه في اليمن بأبي الأحرار تعظيماً لكفاحه الطويل ضدّ الإمامة، فقد سجن عام ١٩٤١م/١٣٦٠هـ ونجا من سيف الإعدام بأعجوبة، ثم ارتحل إلى عدن سنة ١٩٤٤م/١٣٦٣هـ، ليصدر سنة ١٩٤٦ م/١٣٦٥هـ صحيفته "صوت اليمن"، واختير رئيساً للاتحاد اليمني، وهو من قادة ثورة ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ ضد الإمام يحيى بن حميد الدين، عُيّن بعدها وزيراً للمعارف، بعد فشل الثورة هرب إلى عدن، حيث واصل نضاله وأسس حركة الأحرار، عاش فترة في المنفى بباكستان قبل أن تحتضنه مصر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م/١٣٧١هـ، وبعد انتصار ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م/٢٧-٤-١٣٨٢هـ شغل حقيبة التربية والتعليم، ثم عُيّن عضواً في أوّل مجلس لرئاسة الجمهورية، لكن الثورة انتكست بحرب أهليّة فترك الوزارة، وأنشأ "حزب الله"، واغتيل في جبال "برط" بينما كان يلقي خطاباً في نهاية مارس ١٩٦٥م/٢٨-١١-١٣٨٤هـ . أهم كتبه: "ثورة الشعر"، و"صلاة في الجحيم"، والكتب السياسيّة التالية :"دعوة الأحرار ووحدة الشعب"، "الإمامة وخطرها على وحدة اليمن"، "الخدعة الكبرى في السياسة العربيّة"، "مأساة واق الواق"، "الحنين إلى الوطن"، "محنة الإسلام"، و"رثاء شعب".



لكنه ليس سوى وهم كبير، فالباحثون[١٢٦] يجزمون أنّ جودة الكتابة لا ترتبط مطلقاً بالقات، وأنّ اليمني إنّما يستعين به للقضاء على الفراغ والشعور بالوحدة محاولاً بلوغ الأمان النفسي من خلال التواصل الاجتماعي

(١٢٦) أطروحة لنيل درجة الدكتوراه حول «أثر تعاطي القات» للدكتور ابراهيم أحمد محمد عبد الله، جامعة دمشق ٢٠٠٩-٢٠١٠م/١٤٣٠-١٤٣١هـ.

في جلسات القات، والانتقال إلى عالم الأحلام والخيالات لاكتساب سعادة مؤقتة وتناسي ظروفه الحياتيّة الصعبة، مهمّشاً قيماً ذات معاني سامية وأهمها قيمة العمل الذي تهرقه جلسات التعاطي التي تستهلك وقتاً طويلاً من بعد الظهيرة إلى أوقات متأخرة من الليل، وربّما حتى الفجر.

و يتمترس فريق المدافعين وراء حجّة أنّ القات لا يسبب الإدمان ولايدفع بمن يتناوله إلى القيام بفعل مشين غير واع، ويعتبرونه مجرّد نبات منشّط مثل الشاي تماماً، زاعمين أنّ الفرق الوحيد هو في طريقة تعاطيه، حيث يتم تجفيف أوراق الشاي بعد قطفها ثم تُطحن وتُغلى لاستخراج مكوّناتها المنشّطة، بينما يُمضغ القات على مدى ساعات في جلسات المقايل ليمنح من يتناوله دفقاً طويل الأمد من النشاط الذهني والبدني.

بل ويسوقون سلسلة من فوائده الصحيّة، يعالج السكري، ويخفّض الوزن، وغير ذلك، ويدّعون أن سيّئته الصحيّة الوحيدة هو أنه قد يسبب أحياناً -على المدى الطويل- بعض أمراض اللثّة، وذلك ليس لعيب فيه أصلاً بل نتيجة معالجته مؤخراً بالمبيدات والأسمدة الكيماوية السامة، لتسريع نموّه بغرض زيادة الكسب المادي.

ويترجمون هذه الحالة الغريبة من الولع بالقات في تراث ضخم من القصائد والأغاني، كأبيات الشاعر عبد الرب الحميقاني .[١٢٧]:

---

(١٢٧) عبدالرب احمد الحميقاني: ناشط حقوقي وشاعرٌ يمنيُ معاصر من مواليد البيضاء ١٩٧٨م/١٣٩٨هـ.

مجالسه لآلئ فاغتنمها

وذكر الله فيها مستدام

وكم جمعتْ أُناساً بعد هجر

وبُعْد وافتراق واختصام

بمضغ القاتِ يتّضح المخفى

وتكتشف الحقيقة من حطام

وتسمعهم يتناقلون أبيات الشاعر القمندان:

هل أعجبك يوم في شعري غزير المعاني

ودقة ترتيل آياتي وشاقك بياني

وأنت بالعود تتهنى وطعم المتاني[١٢٨]

ويشتركون جميعاً في التغزل به.. "الأجير والأمير"، فحتّى الإمام يحيى حميد الدين قال في قصيدة يعدد فيها مناقب القات:

أحسن بثغر مليح	له المذاب رضاب
ياما أحيلاه ظلماً	تشفى به الأحباب
وللنفوس مريح	وللنشاط انجذاب

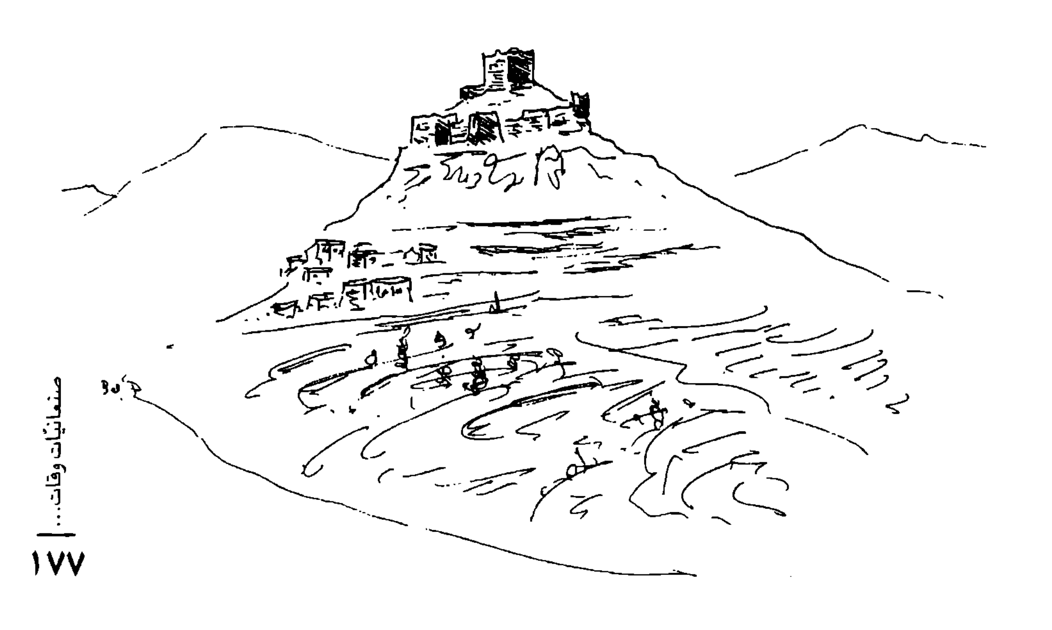
(١٢٨) المتاني: نوع جيدٌ من القات.

وفي الوقت الذي صنّفت فيه الأمم المتّحدة القات -وهو يُزرع بالمناسبة في دول أخرى إضافة إلى اليمن كأثيوبيا وكينيا وفلسطين (من قبل يهود اليمن وأثيوبيا الذين لا يتعاطونه محليّاً بل يصدّرونه إلى دول العالم!)- كمادّة مخدّرة، قررته منظّمة الصحة العالميّة منبّهاً ضارّاً بالصحة[١٢٩]، ورغم أنّ بعض الدول -كبريطانيا- لا تعتبر القات من فصيلة المخدّرات، لكنّه ممنوع في معظم البلدان الأخرى التي سنّت عقوبات جدّية بشأن تداوله أو تعاطيه، ويتحايل البعض بتجفيفه كمسحوق، ليتسللوا به عبر الحدود، لكن منْ يُضبط وفي حوزته أيّ شكل من أشكال القات يُسجن فوراً ويُحاكم، الأمر الذي لم يُفلح في منع القات من الوصول إلى أقاصي الدنيا شرقاً وغرباً.

ممنوع أو مسموح... فأنا ضدّه بشدة، ولا أرى في القات إلّا عادة شيطانيّة تمتص دم اليمن منذ قرون، ويركع لها -للأسف- هذا البلد الجبّار بأكمله بعد ظهر كلّ يوم.

---

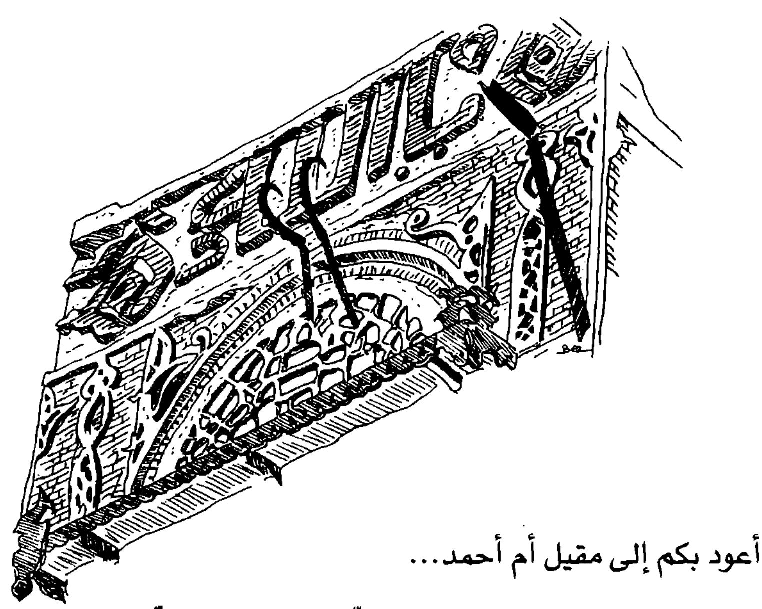
(١٢٩) لا يدخل تأثير القات في إطار مصطلح (إدمان المخدرات) بحسب تعريف لجنة منظمة الصحّة العالمية، أما المؤتمر العربي لشؤون المخدرات فقد اصدر في دورته الخامسة (١٥-١٢/٢٠/١٩٦٩م/٦-١١ /١٠/١٣٨٩هـ) توصية بإدراج نبات القات بجدول المخدرات دون ذكر دليل واضح.





نبتة الشيطان . . .





أعود بكم إلى مقيل أم أحمد...

حزمة القات الصغيرة في يدي والسيّدة التي ناولتني إيّاه تحدّق بي تترقب أنْ أتناوله، لأمضغه وأحوّله كرة صغيرة داخل خدّي كما يفعلن جميعاً في هذا الصالون الكبير.

بعد طول تردد قررتُ أنّي لا مفرّ من أن أقبل.

"مرّة واحدة ليستَ نهاية الدنيا، وقد تُرضي فضولي إلى معرفة سرّ وريقات عجيبة تُسيطر على بلد عملاق بحجم اليمن، وتجرّ أكثر من عشرين مليوناً إلى الهلاك.. ينصاعون لها دون اعتراض، ثم أنّ الخيار هو بين أنْ أتحمّل مضغ هذه الوريقات أو أنْ أثير حفيظة مجتمع طيّب أحاول استكشافه وكسب ودّه".

الدبلوماسيّة تنتصر.. أُخفي داخل كفّي بخفّة بعض الوريقات؛ لأدفع بقليلها فقط داخل فمي، أبدأ المضغ بقلق.. أحاول -كما أرشدتني فوزيّة- تكديس ما أمضغه في جوف خدّي وإعادة امتصاص رحيقه باستمرار عبر تمرير جرعات صغيرة من الماء داخل فمي، مذاقه ليس جيداً.. مزّ مع بعض مرارة، لماذا يتبنونه إذاً ويدعونه ينخر البلاد والعباد.. يخرّب اقتصادهم ويشوّه صورتهم؟! لماذا لا يقضون عليه؟! أسألها.، فتجيبني فوزيّة همساً: "تحلمين!".

-"لماذا لا يصدر قرار حكومي رسميّ بمنعه؟".

-"لا فائدة يا عزيزتي.. حاول الأستاذ محسن العيني[١٣٠] -الذي كان رئيساً للوزراء في السبعينيّات- منع تداول القات، فكان أنْ خرجت ضدّه مظاهرات حاشدة أدّت إلى إقالته من منصبه، أمّا في جنوب اليمن فقد قوبلت محاولات تقليصه من قبل الرئيس في نهاية السبعينيّات بالغضب

---

(١٣٠) محسن أحمد العيني: سياسي يمني، وُلد عام ١٩٣٠م/١٣٤٩هـ. درس الحقوق في جامعة القاهرة، ترجم في سنة ١٩٦٠م/١٣٧٩هـ كتاب "كنت طبيبة في اليمن" للفرنسيّة كلودي فايان وقد نالت الترجمة ذيوعاً واسعاً. كان أوّل وزير خارجيّة بعد الثورة. انتسب لعدة سنوات منذ نهاية الخمسينيّات إلى حزب البعث اليمني، وقد عُيّن في عام ١٩٦٣م/١٣٨٣هـ سفيراً لليمن في الأمم المتحدة وأمريكا، ثم عُيّن مجدداً وزيراً للخارجيّة ١٩٦٤-١٩٦٦م/١٣٨٤-١٣٨٦هـ. شغل منصب رئيس وزراء الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة خمس مرات، أربع منها في عهد الرئيس عبد الرحمن الإرياني، وكانت على فترات متقطّعة بين عامي ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ و١٩٧٢م/١٣٩٢هـ، أما الفترة الخامسة والأخيرة فقد كانت في عهد الرئيس إبراهيم الحمدي بين عام ١٩٧٤م/١٣٩٤هـ و١٩٧٥م/١٣٩٥هـ، وبعد اغتيال الحمدي عام ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ، شغل العديد من المناصب منها سفيراً لليمن في ألمانيا والولايات المتحدة لعقد ونيّف وأخيراً مستشار لرئيس الجمهوريّة اليمنيّة، كان العيني ممن سعوا جاهدين للدفع بعجلة التنمية الاقتصاديّة اليمنيّة، وممن وضعوا بذرة مشروع الوحدة اليمنيّة. أهم كتبه: "خمسون عاماً من الرمال المتحركة" و"معارك ومؤامرات ضد قضيّة اليمن". يقيم حاليّاً بين القاهرة وصنعاء.

وخرجت المظاهرات تهدر ضده: "القات يبقى وأنت تموت".

أطرقتُ مفكّرة ثم قلتُ كأنني "وجدتها": "فلتُصدر إذاً فتوى دينيّة[١٣١] بتحريمه بناءً على ما يسببه من ضرر للفرد والمجتمع"، أجابتني بيأس: "بعض الأئمة والمشايخ يجمعون بين صلاتي الظهر والعصر، وبين صلاتي المغرب والعشاء من أجل تعاطي القات"، وأردفت بثقة: "ثم أنّهم سيُكفّرون عالم الدين الذي يجرؤ على تحريم القات قبل نزوله عن المنبر"، ألم تسمعي الشاعر قلم الياس يقول:

فبعض القوم من سلكوا طريقاً
وقاسوا القات في شرب المُدام
قياس باطل من دون نص
وأصل الشيئ حلّ لا حرام

- "ولكن.. لا قانون ولافتوى.. هذا مرعب.. أين المجتمع المدنيّ، لماذا لا يُحرّك ساكناً؟".

هزّت رأسها موافقة وقالت وهي تدفع في فمها بالمزيد من وريقات القات: "معك حقّ.. هناك فعلاً جمعيّة هامّة لمحاربة القات.. شاركتُ مرّة في إحدى اجتماعاتها، بالمناسبة.. كان معظمهم يناقش التدابير العاجلة اللازمة لمحاربة خطورة القات وهو.. يخزّن القات".

(١٣١) وقد أُثير جدل بين اليمنيين خلال القرن السادس عشر الميلادي حول ما إذا كان يسري على القات ما يسري على الخمر من تحريم باسم الدين، فلجؤوا إلى استفتاء أهل الفتوى، ولم يُحرّم للأسف.

علتْ ضحكاتنا حتّى اشرأبّتْ إلينا الرقاب وطالعتنا العيون بنظرات استفهام.

لكنْ لا.. الإجابات لم تقنعني.. لا بدّ أنّ هناك طريقة لإنقاذ اليمن ومستقبل ملايين أبنائه الطيبين من براثن القات.. ألم تُثمر حرب القضاء على الحشيش في الصين وكانت أكثر صعوبة وضراوة؟؟

تتنهد "فوزيّة" وتجيب بأسى: "للأسف ثقافة القات تسود المجتمع اليمني، ويصعب التخلّص من هذه الظاهرة الاجتماعيّة المعقّدة والمتأصّلة فيه، لا سيّما في ظلّ انعدام حملات التوعية للحد من انتشار القات وغياب الاهتمام بالدراسات والبحوث التي تبرز سلبيّاته، بالإضافة طبعاً إلى ضعف دور الإعلام بل وصمته، و"تورّط" معظم علماء اليمن -الدينيين والدنيويين- وباحثيه وصفوة المجتمع اليمني ضمن مجتمع القات".

فكّرتُ، ولكن لا بد من وجود طريقة للعمل جديّاً على "يمن بلا قات"، وبحسب معلومات قرأتها وشهادات سمعتها من بعض اليمنيين.. فقد كان لجنوب اليمن تجربة هامّة في هذا الاتجاه، ففي نهاية الخمسينيّات أصدر البريطانيون قانوناً يمنع دخول القات إلى مستعمرة عدن ويسمح به[١٣٢] فقط في قرية "دار سعد" القريبة (التي ازدهرت من جرّاء ذلك)، ويحكي

---

(١٣٢) كان القات الحبشي الفاخر المعروف ب"الهرري" نسبة إلى مدينة "هرر" التاريخية الفنيّة بزراعة القات والبن ، والتي وُلد فيها الإمبراطور هيلاسلاسي، يأتي بطائرة نقل خاصة إلى مطار عدن يومياً، وكان القات الحبشي يصنف درجات، الأولى "البستاني" ثم " القُدا " وهو قات قوي المفعول جداً (ويُقال إن بعض المهاجرين اليمنيين أصيبوا بخلل عقلي من جراء تناول هذا القات القوي إضافة إلى تناول شراب " الطج " بعد "التخزينة" وهو شراب كحولي شعبي قوي مصنوع من العسل الحبشي)، ثم قات " القنابل " ودعيت بالقنابل بسبب طريقة ربطتها التي تشبه القنبلة اليدوية.

المونولوج المشهور للشاعر عبد الله غالب عنتر[١٣٣] عن تلك المرحلة:



يا بسر القات .. يا بَجاه القات ..

يا أبــو زربيــن[١٣٤] ..

هــاتهـــم بـــس هـــات ..

مـــن عـــدن للـــدار

منعــــوا الـــداخــــل..

منعــــوا الخـــــارج..

ابن سلول[١٣٥] قد سَل سيفه الفاتح .

ثم سُنّتْ في منتصف السبعينيّات وبداية الثمانينيّات[١٣٦] قوانين صارمة لضبط قضيّة القات بشكل موضوعيّ وعمليّ... فمُنع مضغه رسميّاً تحت طائلة العقاب خلال أيّام الأسبوع، ما عدا أيّام الخميس الجمعة

---

(١٣٣) عبدالله غالب عنتر: شاعر وشخصية إجتماعية عدنية مشهورة، ألّف المونولوج الشهير "يا بسر القات يا بجاه القات"، وكتب قصيدة "امنعوا الهجرة" التي لحّنها الفنان محمد مرشد ناجي، توفّي بعد الإستقلال ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ.

(١٣٤) أبو زربين: أحد أنواع القات الفاخر.

(١٣٥) ابن سلول: كان قاضياً مشهوراً أيّامها من عدن، صومالي الأصل و معروف بظرفه.

(١٣٦) كانت هناك جهود مبكرة في عدن للحد من انتشار القات وأضراره، و ضمن إحدى افتتاحيات المحامي محمد علي لقمان في صحيفته (فتاة الجزيرة) وتحت عنوان: (هل نأمل في رقي؟) ٢٨ مارس ١٩٤٣م /٢٢-٣-١٣٦٢هـ، يقول: "كيف نرقى ونحن لا نفكر فيما يعود على بلادنا وعلى أنفسنا بالخير، نقضي الساعات الطويلة في مبارز القات من غير فائدة نجنيها أو علم ننتفع به، نصرف الذهب الأحمر في ملاذ مضرّة بدل من إنفاقها على تعليم البنين والبنات وعلى إصلاح المساكن والعمارات...".

والعطل الرسمية، كما حُظّر استعماله نهائيّاً في دوائر الدولة. ومُنع التوسّع في زراعته أو دخوله المحافظات التي لم يكنْ قد دخلها بعد كمحافظتي حضرموت والمهرة، وخُصصتْ بالمقابل مكافآت ماديّة تشجيعيّة لمن يزرع أشجار البن إبان حكم الرئيس علي ناصر محمّد(١٣٧)، تجربة هامة ربّما كان لها أن تحدّ قليلاً من استشراء القات وعواقبه لو كُتب لها أن تستمر.

بعد حوالي ساعة أو ربّما ساعة ونصف، بدأت أسترخي وتسلل إليّ شيء من السرور، أرهفتُ السمع، أحاولِ التقاط ما يمكن أن أفهمه من هدير عشرات الأحاديث الدائرة، فالمُخزّن في هذه المرحلة يتحدث باندفاع ويميل إلى الثرثرة مما يُسهّل التفاعلات الاجتماعيّة والحوار،

---

(١٣٧) الرئيس علي ناصر محمد: الرئيس السابق لجمهوريّة اليمن الديمقراطيّة الشعبيّة، وُلد عام ١٩٤٠م/١٣٥٩هـ في دثينة محافظة أبين، عمل كمدرّس ومدير مدرسة، انضمّ إلى حركة القوميين العرب التي تحوّلت فيما بعد إلى تنظيم الجبهة القوميّة التي قادت الكفاح المسلح ضد القوّات البريطانية بين عامي١٩٦٢-١٩٦٧م/١٣٨٢-١٣٨٧هـ، انضم إلى النضال ضدّ الاستعمار البريطاني عام ١٩٦٤م/١٣٨٤هـ، اشترك في عدد من الدورات العسكريّة في اليمن، وتخرّج من مدرسة الصاعقة في أنشاص في جمهوريّة مصر العربيّة، بعد الاستقلال عام ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ وقيام الدولة في اليمن الجنوبي (عدن) تقلّد عدداً من المناصب، فبدأ محافظاً لمحافظتي الجزر والمحافظة الثانية(لحج) ١٩٦٧-١٩٦٨م/١٣٨٧-١٣٨٨هـ وشارك في قيادة التنظيم السياسي للجبهة القوميّة، ثم وزيراً للحكم المحلي (١٩٦٩م/١٣٨٩هـ)، ثم وزيراً للدفاع ١٩٧٠-١٩٧٧م/١٣٩٠-١٣٩٧هـ، رئيساً للوزراء ١٩٧١-١٩٨٥م/١٣٩١-١٤٠٥هـ، رئيس مجلس الرئاسة (١٩٧٨م/١٣٩٨هـ)، أميناً عاماً للحزب الاشتراكي ورئيساً لهيئة رئاسة مجلس الشعب الأعلى ورئيساً لجمهوريّة اليمن الديمقراطيّة الشعبيّة ١٩٨٠-١٩٨٦م/١٤٠٠-١٤٠٦هـ، غادر السلطة بعد أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦م/٣ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ، نتيجة التباين في وجهات النظر داخل قيادة الحزب الاشتراكي اليمني الذي كان الحزب الحاكم لليمن الجنوبي حينها، بسبب السياسات الواقعية التي انتهجها الرئيس علي ناصر محمّد تجاه الدول في المنطقة ودول العالم، أسس في عام ١٩٩٤م/١٤١٤هـ "المركز العربي للدراسات الإستراتيجيّة" ومقرّه دمشق، وله فروع في عدد من الدول العربيّة، وهو مركز يهتم بالقضايا والدراسات الإستراتيجيّة في النواحي السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والعسكريّة.

إذ تزداد الثقة بالنفس ويتضاعف الانتباه والقدرة على التركيز، يُرافقها جسدياً دفق من النشاط والحيويّة وزوال التعب، يرتفع معدّلا نبضات القلب والتنفس وتتسع حدقات العيون.

وربّما عنى الشاعر الكبير سليمان العيسى هذه المرحلة بالذات، حين وصف مقايل صنعاء وأحاديثها الشيّقة بقوله:

سلامٌ على حُلْوتي في الذُّرى
وصنعاءَ أعني .. فلا تَسْأَلِ
على إخْوتي في "المَقيل" النديِّ
ومَشْرَبِ "نَرجيلتي" المُسْبَلِ
سلامٌ على خَمرة عُتقَتْ
تُسمَّى هناك : الحديثَ الطَّلي

ساعتان أُخريان.. وأبدأ بالتحرر من ارتباطي بالمكان والزمان.. أحلّق خارج مجال الجاذبيّة الأرضيّة.. ألج عالم الخيال، يبدو أنّها المرحلة الثانية من مراحل مضغ القات، حيث يشعر متعاطيه بالراحة النفسيّة والهدوء، يطلق لخياله العنان، يجد حلولاً سهلة لمشاكله، فيغرق في صمته، ولا يحب أن يقطع أفكاره أحد.. هو التجلّي والفرصة الذهبيّة للقيام بأيّ عمل (ذهني أو عضلي)، في مثل هذه اللحظات يكتب الشعراء والكتّاب ويدرس الطلبة في الامتحانات دون كلل أو تعب.



تأمّلتُ المقيل.. دققتُ بحزن في وجوه النساء التي عكّرت تضاريس القات جمال أنوثتها.. يمضغنه ويلكن مع أوراقه أحلامهن وأحزانهن وذكرياتهن.. صمت مطبق وأحلام يقظة.. كلّ منهن غارقة في عالم خاص بها، لا يُسمع إلا صوت عبث الماء في المداعة (النرجيلة) يذكرني بأبيات قرأتها للدكتور عبد السلام الكبسي(١٣٨):

القـــاتُ سنبلـــةُ الـــرؤى

تهويمةُ الأحلامِ والسفرِ اللذيذ

على بســاط الصــافنــاتِ الخيـلِ

أزمنـــةٌ تكرُّ من المخابئ كالدخـان

---

(١٣٨) الدكتور عبد السلام الكبسي: ولد ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ بصنعاء، حصل على درجة الدكتوراه في الآداب ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ من المغرب، مؤسس ورئيس بيت الشعر اليمني، أصدر عدة مجاميع شعريّة.

في النفـــــس الأخيــــــر
كأن أخيلةَ المرايا في هزيع القـات
مـن المـداعـــة كركـرات ُ الجـــن
ألقــــت ْشـوقـهـــا سفـــراً
وغـــــــادرت الــدوائــــرَ
أســرجــت ْ رمــانـــةَ للحلـــم
ألقــت ْ في تـلاويـــن التأمـــل
نجمـــةَ الخــدر اللـذيـــذ
فهـــل يقــاسمنـا سليمـــانُ
القلائـدَ والأحـاجـيَ واللبـــان
عريمَ رائحة ٍ تداعت ْ في الشقوق
كـأنّـــه السّحـــرُ المبيـــن

أجيل النظر، أتفحّص الصالة التي كانت قبل قليل تضجّ بمهرجان حياة .. والآن تضم بقايا بشر.. تبغ يلفظ آخر أنفاسه فوق جمر.. وجثث وريقات ممضوغة.. ومع أنني هنا منذ عدة ساعات لكن يبدو أنّ طوفان التفاصيل الأخرى شغلني عن تفاصيلها.. لقد أفرزت ثقافة القات بعض "عمارة" أيضاً.. كهذا الجزء الهام في كلّ منزل يمني والذي يُدعى "المقيل" أو "المفرج" أو "المنظر" أو "الطيرمانة".. وهذه الغرفة (التي تكون غالباً

في الطابق الأخير) تُطلّ عادة على أجمل المناظر.. أو على نوافير الحديقة (الشاذروان) إذا كانت في الطابق الأرضي.

الصالة متطاولة وضيقة -وهي قاعدة تُتبع غالباً في تصميم المقيل اليمني- ليتيسّر للجالسين المتقابلين أن يتحادثوا عن قرب، الجدران والسقف كلها موشاة بالزخارف الجصيّة الملوّنة... نوافذ زجاجيّة واسعة يُحكم إغلاقها أثناء "التخزين".. فرش شرقيّ، ومجموعة من الوسائد مبعثرة فوق مصاطب منخفضة، أو أرضيّة كلّها مجللة بقماش زاه (حديثاً -كما قيل لي- شاعتْ المجالس البالغة الاتساع والفخامة وسرتْ معها "موضة" الميكروفونات لتزيد الوضع سوءًا).

ولجلسة القات -كفعّالية- مسمّى يختلف بين منطقة وأخرى من اليمن، ففي صنعاء يطلقون على مجلس القات اسم "المدكى"، وفي عدن يدعونه "المبرز"، أمّا في تعز فيُسمّى "المقيل"، وفي الحديدة "المنشرة".

أمّا مجالس قات النساء فلها أسماؤها الخاصّة، تُدعى في صنعاء "التفرطة"، وفي عدن وتعز "مقيلة"، أمّا في الحديدة فاسمها "نشرة"[١٣٩].. اسم خبيث إذا كان قد استوحي من الاعتقاد الشائع بأن "نشر" الأخبار وتناقلها هواية النساء الأزليّة!.

أقول لفوزيّة: "لم أكن أعرف أن للمرأة اليمنيّة هذه العلاقة الوثيقة بالقات!"

(١٣٩) يفسر البعض بأنّ كلمة نشرة إشارة إلى التحرّك الجماعي.

ترد: "علاقة ليست قديمة، ففي الواقع، طالما اعتُبر القات عادة "غير مستحبّة"، انحصر تواجده طويلاً بأمكنة وطبقات محددة، لم يُعرف عند البدو مثلاً، وكان من النادر أن تُرى امرأة يمنيّة تخزّن القات، ولكنّه للأسف غزا كل الطبقات والمناطق منذ الستينيّات".

مرّت ساعتان أيضاً قبل أن أختبر المرحلة الثالثة والأخيرة من طقوس جلسة القات، تولاني الخمول والإنهاك.. الكلّ منزو، صامت، سارح في ملكوته الخاص... إذ يغلب بعد القات مزيج من الشرود الذهني والتنبّه، يعود المرء إلى أرض الواقع، فيُصدم حينما يجده مثلما تركه والمشاكل لم تُحل، فيشعر بالضيق والكآبة والقلق والتوتر ويهدّه التعب، حالة يصفها الدكتور عبد العزيز المقالح في قصيدته "الخروج من دوائر الساعة" بقوله:

في وجـــوه المغـــرب البلـيـــدة

الصمـــت صـــار لغتـــي

والساعة السليمانيّة امتدّت عروقها

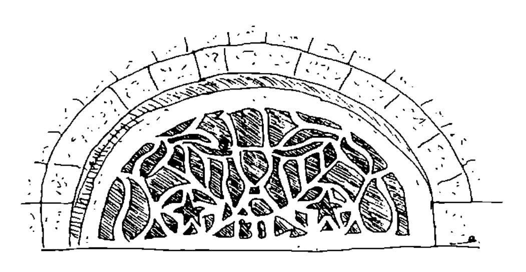
صـــارت شبـابـــاً كـالشيـــوخ

يمضغـــون خضـــرة الأيّـــام

يشربـــون مـــاء العمـــر

أيـن ضـــوء الحُلـــم والبـــراءة ؟!

أخيراً... انتهت "التفرطة" والحمد لله، أُسارع لإخراج بقايا الورق الملعون من فمي، لأرميه في صحن صغير أمامي (متفل) أسوة بالأخريات، منظر مقزّز.. "أشفقُ على من سيقومون بتنظيف المكان لاحقاً".. الآن فهمتُ سبب هذه العبارة التي سمعتُ أن الأستاذ أحمد جابر عفيف(١٤٠) اعتاد ترديدها.



تدعونا السيّدة أم أحمد إلى العشاء في الغرفة المجاورة، نلبّي لكن الصمت -وهذا طبيعي عقب التخزين- يبقى سيّد المكان، الباب المنزلق الكبير ينفتح عن مائدة طويلة، رصّتْ فوقها أصناف متنوّعة من الأكل اليمنيّ كـ"السلتة" و"الشفوت"(١٤١) و"البرعي" ولحم "البُرمة" المختمر في إنائه الحجريّ الخاص و"السوسي" وغيرها، في وسط المائدة عدّة

---

(١٤٠) الأستاذ أحمد جابر عفيف: ولد في محافظة الحديدة عام ١٩٢٩م/١٣٤٧هـ، عمل مفتّشاً بوزارة المعارف عام ١٩٥٥م/١٣٧٤هـ، ونائباً لوزير الصحّة عام ١٩٦٢م/١٣٨١هـ بعد الثورة، ثم سفيراً لليمن في لبنان وسورية، ووزيراً للتربية والتعليم، ورئيساً للمجلس الأعلى للتعليم العالي، وفي عهده أنشئت جامعة صنعاء ١٩٧١م/١٣٩١هـ، وهو من المناهضين لتعاطي القات.

(١٤١) الشفوت: لون من الطعام محبب لعامة أهل اليمن، ويُحضّر من خبز رقيق من دقيق الذرة (لحوح)، ويصب عليه المخيض(لبن عيران) المخلوط بالثوم و الكراث والشطّة.
أمّا خبز اللحوح الرقيق فيصنع من عجين الذرة المخفف بالماء حتى يصبح سائلاً ثخيناً، ثم يُغترف بوعاء صغير مثقوب من وسطه اسمه المذر، ليتم نشره بمهارة فوق إناء مسطّح من الفخّار غالباً (يُدعى مِلَحّة أو صُلّى أو مرهى)، وحين ينضج الخبز ينزع برفق، ويُسمى لوح، وهو يشبه خبز "الرقاق" المعروف في بلاد الشام .

خرفان "مندي" مشويّة فوق تلال من الرز الملون بالبهارات التي يحبّ اليمنيّون استخدامها في الطبخ، وفي ركن الطاولة رُصّت أطباق الحلويات كفطيرة "لقمة الحلق" والعوّامات التي نعرفها في سوريّة "بلقمة القاضي" ويسمّونها في صنعاء "ملاجع الشوكاني"، و"السبايا"(١٤٢)، وصحن كبير مملوء برقائق تبدو شهيّة، شرحتْ لي مضيفتنا اللطيفة أنّه "بنت الصحن"، طبق صنعانيّ شعبيّ من رقائق العجين المغموسة بالعسل.

وعن سبب تسميتها ببنت الصحن -بادرتني فوزيّة وقد توقعته واحداً من أسئلتي التي لا تنتهي- فهذه الحلوى كانت اختباراً يسبق خطبة الفتاة في صنعاء، فإذا أجادت تحضير "بنت الصحن"، قُبلت بالنسبة لأسرة العريس وإلاّ ... أعرضوا عن خطبتها، ويتناقل أهل صنعاء نوادر حول اسم هذه الحلوى، فإذا سمع غريب عن المنطقة مضيفه الصنعانيّ يأمر خلال تقديم الطعام بإدخال "البنات"، بدأ بإصلاح هندامه ظنّاً منه أن بنات البيت سيحضرن والقصد أصلاً "بنات الصحن"، وهذا ما حدث -كما يُقال- مع الرئيس السوداني جعفر النميري حينما زار صنعاء وقيل له في نهاية مأدبة الغداء "سيادة الرئيس، الآن سنقدّم لكم البنت"، فردّ مبتهجاً "يا ريت تطلعوها لي في جناحي فوق".

لم أتمكّن من الاستمتاع بالمذاق الحلو لـ"بنت الصحن"، إذ أن القات يُضعف الشهيّة، ولكن -ربّما لأنّه يشحذ الذهن في ذات الوقت- فقد تبادر إليّ فجأة خاطر طريف.. هل لاحظتم أنّ أسماء أطيب أنواع الحلوى غالباً

(١٤٢) السبايا: حلويات من الدقيق الأبيض الذي يعجن بالبيض والسمن ثم يصنع أقراصاً ويوضع بعضه على بعض ويصب عليه العسل والسمن.

مؤنّثة؟، الكنافة" و"البقلاوة" في سورية و"أم علي" في مصر و"زنود الست" في لبنان، وفي اليمن "بنت الصحن".. وليس ابنه، ربّما لأنّ معظم ما هو جميل أنثويّ اللفظ، كالحياة والسعادة والصداقة والرقة و...

حان وقت المغادرة، شكرتُ مضيفتنا اللطيفة التي رافقتنا مودّعة حتّى الباب الخارجي.. أحكمتُ عباءتي على جسدي بمواجهة برد صنعاء الليليّ، ورغم أنني لم "أخزّن" إلّا القليل من القات لكنّي كنتُ أشعر بحالة يقظة غريبة.. وهذه إحدى عواقب القات،

فبعد أنْ تنتهي جلسة القات قد يُبقيك تأثيره مستيقظاً حتّى الصباح، إلا إذا تناولت بعض الطعام أو اللبن لإزالة مفعوله، وهي عملية تدعى "التفسيخ"، وبما أنّ بعضهم يلجأ إلى إزالة أثر القات بتناول الكحول(١٤٣) فقد حُمّل القات وزراً إضافيّاً بمسؤوليّته عن زيادة انتشار الكحول والفساد في اليمن.

في طريق العودة إلى الفندق، تأمّلتُ وجهي المنعكس في مرآة السيّارة، ثم وجه فوزيّة وصديقتها.. بل وحتّى السائق، وتذكّرتُ قول الدكتورة رؤوفة، الأستاذة الجامعيّة اليمنيّة -وهي من أشدّ أعداء القات- حين سمعتها ذات مرّة تصف بسخرية وجوه الناس، بعد تناول القات في ليل شوارع صنعاء: "عيونهم الجاحظة المتّسعة إلى أقصاها، حتّى يبدو أكبر قدر من البياض حول البؤبؤ.. حالة التنبّه الشديد والهدوء في ذات الوقت، كلّها توحي بأنّ تياراً كهربائياً قد صعقهم لتوّه".. لنْ أجرؤ أبداً أن أذكر أمامها أنني قد سمحتُ لنفسي بتذوّق القات الليلة.

---

(١٤٣) ومنهم من يلجأ إلى إزالة أثر القات بتعاطى عقاقير "الدايزبام" و"الزولام" التي تُعَد من العقاقير الطبيّة المثبّطة التي يُحظر استخدامها إلا بوصفة طبيّة، وهذه مشكلة أخرى.

أخيراً في غرفتي في فندق "تاج سبأ"..
ورغم أنّ في صنعاء عديداً من الفنادق الحديثة كفندق "شيراتون" و"موفمبيك" -وهذا الأخير يحتلّ موقعاً مميّزاً يُطلّ منه على المدينة، بعمارته الأنيقة، وبوّابته المهيبة- لكن رأيي لم يتغيّر يوماً بأنّ الفنادق الفاخرة تتشابه وتلغي هُويّة المكان.

لذلك كنتُ سعيدة أنْ اختيّر لي فندق "تاج سبأ"، أحد أقدم فنادق صنعاء، يعرفه كلّ من زارها، منذ منتصف القرن الماضي، بموقعه القريب من وسطها في شارع علي عبد المغني(١٤٤)، ولو كانٍ لي كامل الخيار لاخترتُ دون تردّد أن أقيم في أحد الفنادق المتواضعة في قلب صنعاء القديمة داخل سورها الضخم.. لأقترب أكثر من نبضها، لكن "الضيف أسير مضيفيه"..

---

(١٤٤) الشهيد النقيب علي عبدالمغني: ولد عام ١٩٣٧م/١٣٥٦هـ في إب، من أبرز قيادات ثورة سبتمبر ١٩٦٢م/١٣٨١هـ. شارك في تأسيس تنظيم الضباط الأحرار، استشهد في صرواح في الطريق إلى مأرب حيث كان يقود حملة عسكرية عام ١٩٦٢م/١٣٨١هـ دفاعاً عن الجمهوريّة ضد فلول الملكيين.

صنعاء نائمة.. آوي إلى فراشي بعد يوم طويل، أُلقي برأسي على وسادتي أسترجع التفاصيل، بدأنا نتآلف، أنا وهذه المدينة التي نبتتْ بين قمم الجبال، أخذتُ أعتاد طباعها وأهلها وأجواءها وطعامها -أشدّ الغطاء على كتفيّ، وأنا أفكّر- بل وحتّى بردها، فهم -لسوء الحظ- لا يحبذون استخدام أجهزة التدفئة هنا، خوفاً من أن تذهب بالبقيّة الباقية من الأوكسجين القليل أصلاً بسبب ارتفاع صنعاء الشاهق.

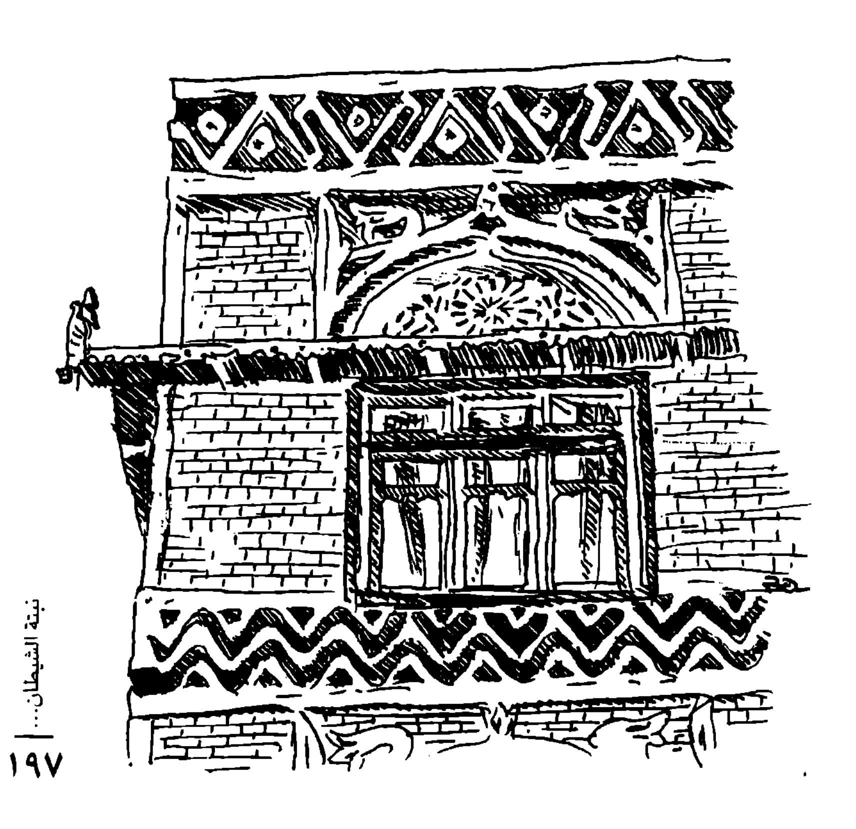
عبثاً أحاول استجماع أفكاري، شتتها القات، وخلّفني في حالة غريبة من التنبّه والتوتّر والقلق، أتمتمُ لا شعوريّاً بقول شاعر اليمن عبد الله البردوني:

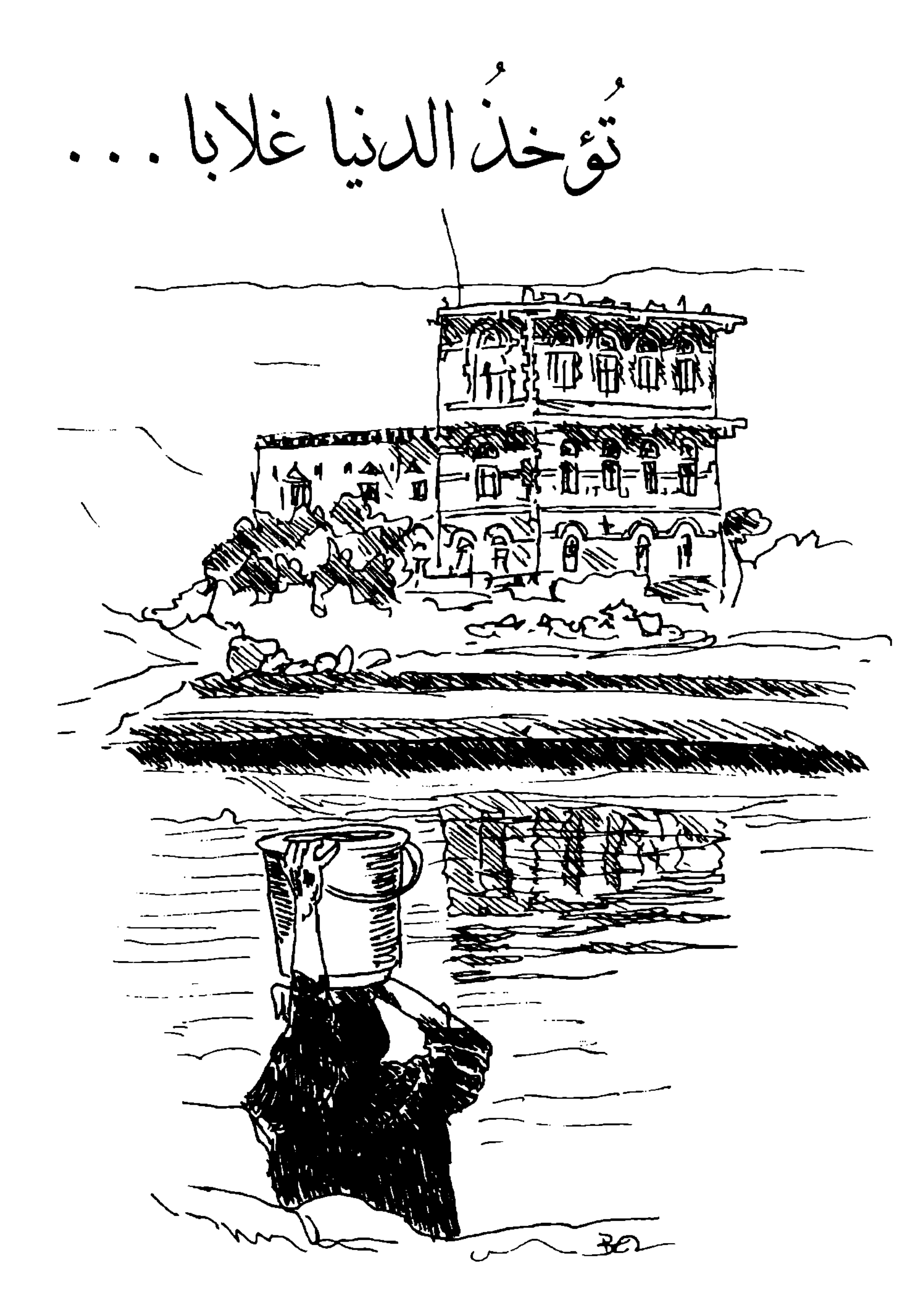
أمضغُ القاتَ كي أبيتَ حزيناً
والقوافي تهمي أسىً غيرَ قاتي.

أمّا ما سمعته عمّا ما يتبع القات عادة من أرق وعدم قدرة على النوم، رغم التعب، فقد اختبرته الليلة بنفسي بشكل جديّ، حين جاهدتُ طويلاً لإقناع خلاياي -التي كانت تمرّ بحالة توقّد عجيب- بأنّ عليها أن تنام.

أبتلع لعابي ويُخيّل إليّ -رُغم تنظيف أسناني- أنّي ما زلتُ أتذوّق فيه أثر مرارة القات..

أعاهدُ نفسي -قبيل أنْ أغفو أخيراً- "مهما كانت الظروف.. لنْ أهادن القات ثانيةً... أبداً".




تُؤخذُ الدنيا غلابا . . .

ليل صنعاء ساحر.. والليلة تضوع بسحر إضافي.

أخذنا مكاننا بين الحضور فوق الكراسي الخشبيّة التي رُصفت في ساحة وسط البيوت القديمة، كانت فكرة عبقريّة، أن نأتي هنا الليلة لنستمع إلى فرقة صنعانيّة تُنشد الموشحات في هذا المسرح المفتوح.

والفرقة التي انطلقت تنشد بإحساس حقيقي وأصوات دافئة تأسر الآذان والقلوب، مكوّنة من ثلاثة شبّان يلبسون الثوب الصنعاني التقليدي، قميص فوق الـ"زنّة" البيضاء (مثل التنّورة) وفوقهما "كوت" (سترة)، يتمنطقون بالجنبيّة ويضعون فوق رؤوسهم "سماطة" أو "قاوق" ملونة (أغطية للرأس).

الإنارة المدروسة لواجهات المباني القديمة تسبغ على المكان جوّه الأسطوريّ، الأبنية الصنعانيّة المُحيطة تبدو كديكورات فيلم خرافيّ.. تُجسّد قمّة التجلّي في ترجمة المشاعر إلى تكوينات، رسوم ونقوش، نُثرت بأناقة وإبداع فوق كلّ مكان؛ لتُضفي على المدينة روحها المميّزة، بل واسمها[١٤٥].

---

(١٤٥) لروعة مبانيها الحجريّة المنيعة اعتادوا أنْ يصفوا صنعاء ،واسمها الأقدم مدينة "سام" أو "أزال، ب"صنعة" ومعناها الحصينة فسُمّيتْ لذلك باسم "صنعا" أو "صنعاء" كما تعرف اليوم.

كلّ الأبنية متشابهة.. ولكلّ منها شخصيّته المنفردة في ذات الوقت، كلّ مبنى قصيدة بأوزانها وتفعيلاتها.. جميع ما فيها ينطق من خلال أحزمة وزخارف بيض لم تترك حجراً إلّا ولثمته، تحكي قصصاً تلامس الروح لأنّها بعض روح نُقشت في حجر وجصّ وخشب، فنفختْ في الخطوط والانحناءات وهج حياة.

تخيّلتها -عشرات الأبنية "المخضرمة" المحيطة بنا- أشخاصاً، وحاولتُ أن أعطي كلّ مبنىٍ اسماً أستوحيه من زخارفه، أنْ أستخلص -من إيقاع التشكيلات التي أسقطتْ على الواجهات بشكل مبدع- ملامح مَنْ نقشوه.. يلهمني في ذلك المحيط الشاعريّ.. شدو الغناء الشجيّ.. الإضاءة الذكية.. الأحجام الهائلة التي تبثُّ الهيبة بقامتها الفارعة [(١٤٦)].

في ساحة وسطها.. فوق كرسيّ صغير.. أنا كائن ضئيل زائل، أمّا هي فتكوينات عمرها مئات السنين قبلي، وربّما تبقى مئات السنين بعدي، تُرى من منّا كان يتأمّل الآخر؟!.

الإنشاد الحاني حلّق بروحي بعيداً في غياهب عوالم تعشقها.. ولوهلة.. عشتُ حقّاً قبل ألف عام، من الصعوبة بمكان أن تُحافظ على توازنك وأن تبقى متمسّكاً بموقعك الحقيقيّ من الزمن وأنت وسط هذه الأجواء.

يُعيدني إلى الأرض صوت فوزيّة تدعوني للعودة إلى الفندق.. تبرّمت إذ -رغم تعب نهاري الطويل- يعزّ علي أن أنام وأدع خلفي هذا الجمال الذي لم استكشف كلّ مجاهله بعد.

---

(١٤٦) تصل مباني صنعاء القديمة إلى ارتفاع ثمانية طوابق.



أتعثّر بذيول عباءتي السوداء -التي لا أُفلح في التعوّد عليها- وأنا أحاول اللحاق بخطوات صاحبتي الواسعة في سيرنا إلى حيث كنّا قد ركنّا السيّارة قرب "باب اليمن".

"لم أعرف أنّ في صنعاء نهراً!" قلت باستغراب ونحن نعبر جسراً حجرياً.

تجيبني فوزيّة وهي تُشير إلى الأسفل "هذه هي "السائلة"[١٤٧] أو "السّرار"[١٤٨]، تجري فيها السيول المتدفّقة من الأودية حول المدينة والتي

(١٤٧) المعروف أنّ السائلة كانت نهراً، عُرف تاريخيّاً بنهر البرمكي حتى عام ١٩٦٢م / ١٣٨١هـ.

(١٤٨) السرار: كلمة يمنيّة قديمة تعني الوادي المنخفض، وهو يخترق غرب مدينة صنعاء القديمة بطول (١١٦٠) متراً، وبعرض يصل احياناً إلى (٣٠) متراً.



تتشكّل بعد هطول الأمطار الموسميّة[١٤٩]، فصنعاء المعتدلة صيفاً الباردة شتاءً والغائمة أبداً، غزيرة الأمطار، لا سيّما في موسميها بين شهري ابريل ومايو، وكذلك بين شهري يوليو وسبتمبر، لذلك عرفتْ السيول على الدوام، بعضها قد يأتي خطيراً ومدمراً، كالسيل الجارف الذي انحدر من جبل "نقم" سنة٨٧٦م/ ٢٦٢ هـ، فهدم أجزاءً كثيرةً من شطري صنعاء، ووصف أضراره "الجنديّ" في كتابه "السلوك"، ومنها أنّه هدم ستّة آلاف دار، وكذلك جزءًا كبيراً من الجامع الكبير.

---

(١٤٩) رغم أن اليمن يُطِلُّ على البحر الأحمر وخليج عدن والبحر العربي والمحيط الهندي، لكنَّ مناخه لم يستفد من الخصائص البحريّة كثيراً سوى في رفع درجة الرطوبة الجويّة على السواحل قليلة الأمطار (أكثر من ٨٠٪)، لأنّ الرياحَ الرطبةَ تسير بمحاذاة الساحلِ دونَ التوغلِ إلى الداخل لذا فإن تأثيرَها يكون قليلاً جداً، وتسقط الأمطار الموسميّة في اليمن في فصل الربيع (مارس–أبريل–مايو) وأكثرَ في الصيف (يوليو–أغسطس– سبتمبر).

وتفصل "السائلة" -التي شُيّدت فوقها جسور عدّة كهذا الذي نعبره الآن- بين قسمي المدينة الشرقيّ الأقدم والغربيّ الذي أنشئ في زمن الأيّوبيين، تنحدر نحو الشمال؛ لتتدفّق عبرها المياه على مدار السنة، وتروي مساحات واسعة من أراضي الأجزاء الشماليّة، وطالما اعتُمد عليها لتشغيل مطاحن الحبوب الحجريّة التي لا يزال بعضها موجوداً في صنعاء حتّى اليوم.

أُسند مرفقيّ على سور الجسر، أتأمّل "السائلة" تحت سلسلة أعمدة الإضاءة العالية التي تسوّرها من الجانبين، شارع عريض مرصوف بالحجارة، مُحاط بجدارين مائلين حجريين ضخمين، أفكّر أنّ "السائلة" -بالإضافة لتجنيبها صنعاء أضرار السيول، بل واستثمارها- قد عُولجت بذكاء لتصبح أحد معالم صنعاء الطبيعيّة والتاريخيّة، وحلّاً لبعض مشاكل المواصلات فيها، فهذا المجرى الضخم الذي يمتلئ بالفائض من مياه السيول في مواسم الأمطار، يُستخدم كذلك طريقاً للسيّارات في أيّام الجفاف...

في السيّارة، وطوال طريق العودة إلى فندقنا، كنت ساهمة.. لم أستطع التجاوب مع نكات فوزيّة التي لا ترتبط لسوء الحظ بحدث أو توقيت، تزاحم المشاعر والأفكار، أوصد "أبوابي" الخارجية، وساقني بكلّيتي إلى داخلي.. ركّزتُ أحاول العودة حقّاً من أجواء صنعاء القديمة والتحرر من سحرها.. مازلتُ أسيرة تفاصيلها التي مازالت -هي الأخرى- أسيرة ذكريات أزمان سحيقة مضت..

آلة التصوير الإلكترونيّة التي لا تفارقني فوق حضني.. استعرضتُ على شاشتها الصغيرة "حصيلة" زيارتي لصنعاء من الصور.. لدي على

الأقل دليل يؤكد لي بعد انتهاء الرحلة أن هذه اللحظات الجميلة والمشاهد المذهلة لم تكن حلماً.

أُقلّبها تباعاً.. يبدو أنني التقطت كماً كبيراً من صور الأبنية القديمة، لا أستطيع مقاومة إغراء هذه العمارة التي تعجبني إلى حد العذاب، عمارة "مغامرة" تعشق المرتفعات، "عصاميّة" اعتمدت علىَ ذاتِها واستفادت من تجاربها الخاصة لتبدع بموادها المحليّة البسيطة تكوينات معماريةِ جميلة "شامخة" دوماً نحو الأعلى، بمنتهى الكبرياء ومنتهى العفوية والبساطة أيضاً، عمارة "فرح" بثته من خلال جرأتها وانفتاحها نحو الخارج، في مهرجان ألوانها المبهجة وزخارفها الغنية، عمارة "حكمة" احترمت البيئة والحاجات والتقاليد وارتبط نسيجها العمراني دائماً بمقاييس الانسان.

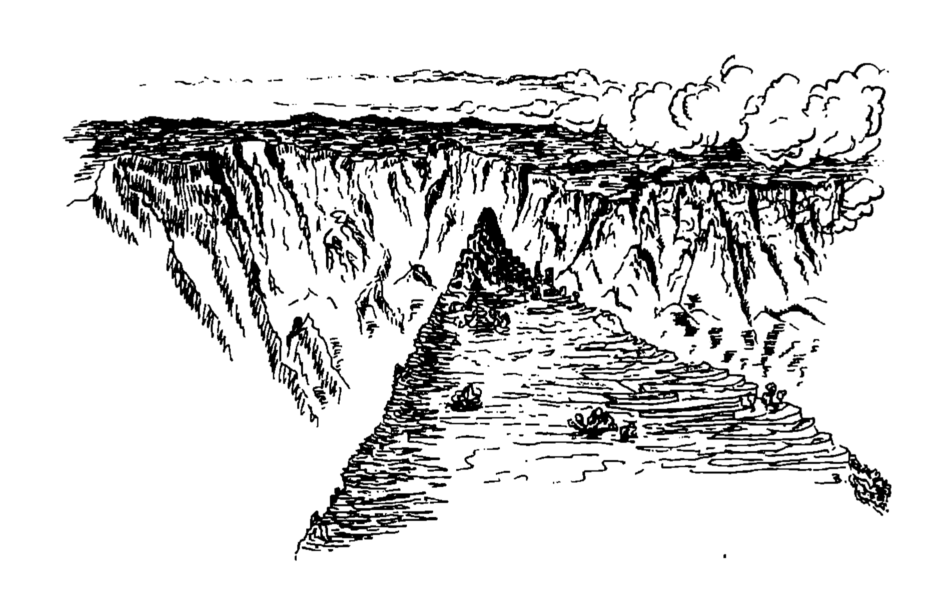
أتابع تقليب "كنزي" من الصور المتنوعة.. زخارف أبنية، قمريّات، فضّة وجنبيّات، وجوه بشر ونقوش أبواب خشبيّة، رسوم حنّة وسلال قش، و... كل شيء في اليمن يشبهه، علاقة حميمة تربط الانسان هنا بكل ما يصنعه ربّما لأنه "يفعله" بصدق.. ويمكن للعين أن تلتقط بسهولة التشابه العفويّ بين الزخارف التي تُطرّز واجهات المباني اليمنيّة ورسوم الزيّ اليمنيّ التقليديّ.. فوق كلّ ما صنعته يد إنسان في هذا البلد المنقوش على الحجر، كأنّ اليمنيّ يُسقط النقوش[١٥٠] المحفورة في أعماقه نحتاً على حجارة البيوت وعلى خشب الأبواب والنوافذ والصناديق، وعلى فضّة الأساور والمكاحل والأحزمة والخناجر.. يودعها كلّها بعض روحه.

---

(١٥٠) يذهب البعض إلى ربط أشكال الزخارف والنقوش في اليمن بشكل أحرف الكتابة اليمنيّة القديمة (المسند) وطريقة تعبيرها.

صور.. صور.. آخرها صور حفل الليلة.. وها هي ذي صورتي مع فوزيّة فوق الجسر، وتبدو من خلفنا السائلة.. أليست مذهلة؟ (أقصد السائلة وليست فوزيّة!).. ولماذا أستغرب براعة اليمنيين بالتعامل مع كلّ ما له صلة بتصريف المياه وحفظها.. أليسوا ورثة أولئك الذين اشتهروا لآلاف سنين خلتْ بعبقريّتهم في إنشاء السدود والصهاريج والخزّانات وزراعة الأرض وإحكام بناء المدرّجات وأنظمة الريّ؟، حتّى أقيم يوماً ما في منطقة واحدة في اليمن اسمها "يحصب العلو" ثمانين سدّاً، قيل عنها في الشعر اليمني القديم:

وفي البقعة الخضراء في أرض يحصب
ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً.





ويكفيهم شهادة على نبوغهم في هذا المجال سدّ مأرب[١٥١] الشهير الذي بُني في الألف الأوّل قبل الميلاد، ألم يكن "ثورة في عالم الهندسة وتفكير الإنسان"[١٥٢]؟.

صرير دوران المفتاح في قفل باب الغرفة.. أرمي بما في يديّ على المقعد القريب وبجسدي فوق السرير.

لماذا لا يرحمني هدير أفكاري فأرقد؟.. جربتُ حيل النوم التي أعرفها واحدة واحدة ففشلت.. أحصيتُ كل الأغنام.. تلوتُ على عقلي المرهق تمارين الاسترخاء، وما من فائدة.. تذكرتُ أمي.. حبيبتي.. هناك في بيتنا الدافئ في اللاذقيّة، لا بد أنها قد نامت الآن لتستيقظ باكراً مع صلاة الفجر، ما كان أحلى حكاياتها قبل النوم حين كنتُ طفلة.. كان فيها سحر يخدرني حالما ينساب من صوتها الحريري شلال الحكاية.. متى توقفت يا أمي عن قص حكايات النوم لي؟ لماذا حين نكبر نستسلم دون

---

(١٥١) سد مأرب، وكذلك يسمى سد العرم، هو سد مائي قديم في اليمن، يعود تاريخه إلى نحو القرن الثامن قبل الميلاد (وربما أقدم، ففي الموسوعة اليمنية أن منطقة مأرب-بحسب أبحاث معهد الآثار الألماني- قد شهدت ريّاً زراعياً منظماً في الألف الثالث قبل الميلاد). تقع أطلاله حاليا قرب مدينة مأرب الأثرية، يعتبر أقدم سد معروف في العالم، يروي مؤرخون ان انهيار السد كان سببا في قحط وشح في المياه أدى إلى هجرة كبيرة لسكان اليمن العرب إلى مناطق أخرى في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام.

(١٥٢) والقول للعلامة الدكتور جواد علي، وكذلك يقول الدكتور أحمد فخري: "سد مأرب هو أشهر آثار اليمن وأعظم عمل هندسي في الجزيرة العربية كلّها".

اعتراض لحتميّة أن نُحرم مع رحيل أشرعة الطفولة كل الأشياء الجميلة الأخرى؟... طمأنينتها، حريّة أحلامها، أجنحة خيالها، ومتعة حكاياتها أيضاً؟.

شعرتُ بقهر لم تخفف وطأته إلا فكرة متمرّدة.. سأحكي "لي" قصة قبل النوم الليلة.. علّني أغفو أخيراً..

كان يا ما كان، منذ قديم الزمان، في الوقت الذي كان فيه العالم غارقاً في الظلام، والإنسان يعيش على الصيد ويقطن الكهوف، كان هناك جنّة على الأرض تُدعى اليمن -كما وصفها القرآن الكريم- ووصف الجنّة هو أدقّ ما يمكن أن تُوصف به الزراعة في اليمن، حيث كان يُزرع في زمن ما-من بين أنواعٍ مزروعات كثيرة عدّدها الهمداني في كتابه "الإكليل"- ثمانية عشر نوعاً من العنب.

والتطوّر الزراعي الكبير كان نتاج وأساس الحضارات العريقة المتتابعة، كممالكِ مَعين وسبأ وحضرموت وقتبانَ وأوسان وحمير، وذو ريدان، ويمنات، التي قامت على أرض اليمن منذ القدم.

وهكذا، ازدهرت أيضاً التجارة والعمارة، وأتاح الموقعِ الجغرافي لليمن طوال ثلاثة عشر قرناً احتكارَ أسرار تجارة الشرق والوساطة التجارية بين أمم الشرق وشمالي الجزيرةِ العربيةِ ومصرَ وبقيّة دول المتوسط، وكانت خبرة اليمنيين في التجارة والزراعة والإدارة وحتى القتال هي إحدى الأعمدة الأساسيّة التي قامت عليها دولة الإسلام[١٥٣].

(١٥٣) كما يقول الدكتور عبد العزيز المقالح في كتابه "عن الشعر المعاصر في اليمن"، ويتابع:=

دول عظيمة تعاقبت فوق هذه الأرض، تفوّقتْ بتقدّمها، وتألّقت بمجدها، حتّى أشار إليها العالم أجمع ب"اليمن السعيد".

ثم ماذا؟ تعددت طرقُ التجارة في العالم، وعانت اليمنُ ويلات الصراع الداخلي.. انهار سدّ مأرب[١٥٤] في القرن السادس قبل الميلاد.. فأفلَ نجمُ اليمن و"تفرّقوا أيدي سبأ".

من بعدها يبدو أنّ اللعنة حلّت على اليمن حتّى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، على ذمّة الطبراني والهيثمي: "أين أصحابي الذين أنا منهم وهم منّي؟، قيل له: يا رسول الله أخبرنا ؟، قال:نعم، أهل اليمن، المطروحون في أطراف الارض، المدفوعون عن أبواب السلطان، يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يقضها"[١٥٥].

تُرى هل يعود اليمن "سعيداً" أبداً.. في مكانته الأولى التي يستحقّها بين الأمم؟..

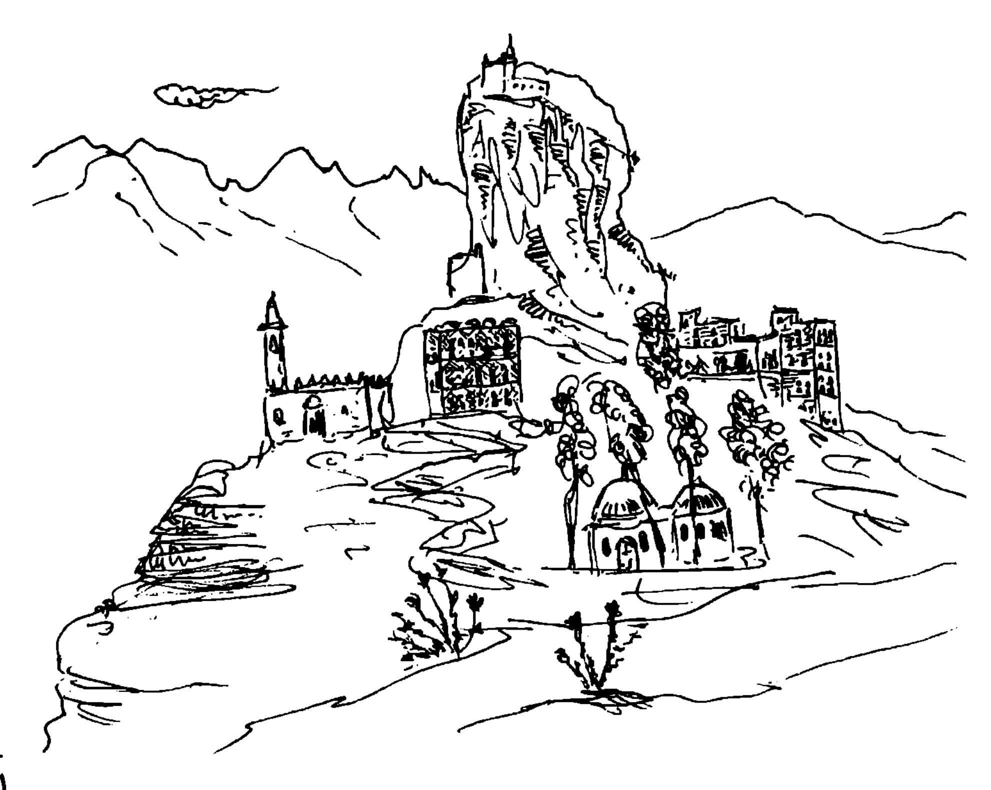
= "حتى أصبح اليمنيون هم الركيزة الأولى للجيش الإسلامي المنظم في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق إذ انضم إلى هذا الجيش ٢١ ألفا منهم"، ويقول الأديب والمؤرّخ جورجي زيدان ١٨٦١-١٩١٤م/١٢٢٧-١٣٣٢هـ في كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي" إنّ "اليمانيّة هي التي رفعت عرش الدولة الأموية".

(١٥٤) ويقول الدكتور عدنان ترسيسي: إنّ "انهدام سد مأرب كان رمزاً لانهدام الحضارة اليمنية القديمة الضخمة، مما أدّى أيضاً إلى انهيار السدود العديدة الاخرى، والمنشآت الزراعيّة والصناعيّة، وغيرها من الانجازات التي كانت قائمة في فترة الازدهار الطويلة، التي قد تعود بدايتها إلى مايقارب الالفي سنة قبل الإسلام".

(١٥٥) الحديث الشريف عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أخرجه الطبراني والهيثمي.

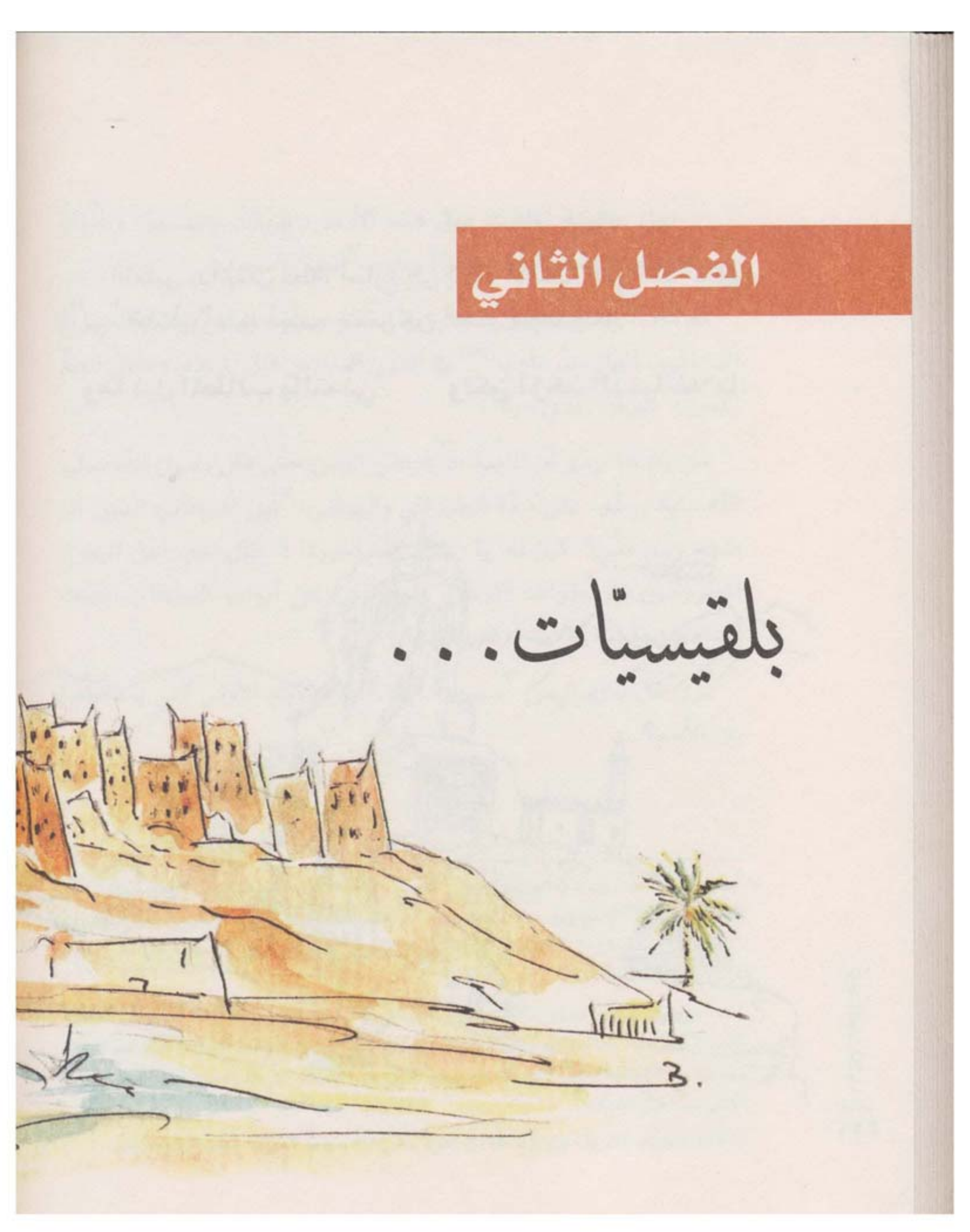
النعاس بدأ يفعل فعله، أسارع إلى إنهاء الحكاية التي كنت أحكيها "لي" قبل أن أغفو، أجيب: نتمنّى من أعماق قلوبنا ولكن:

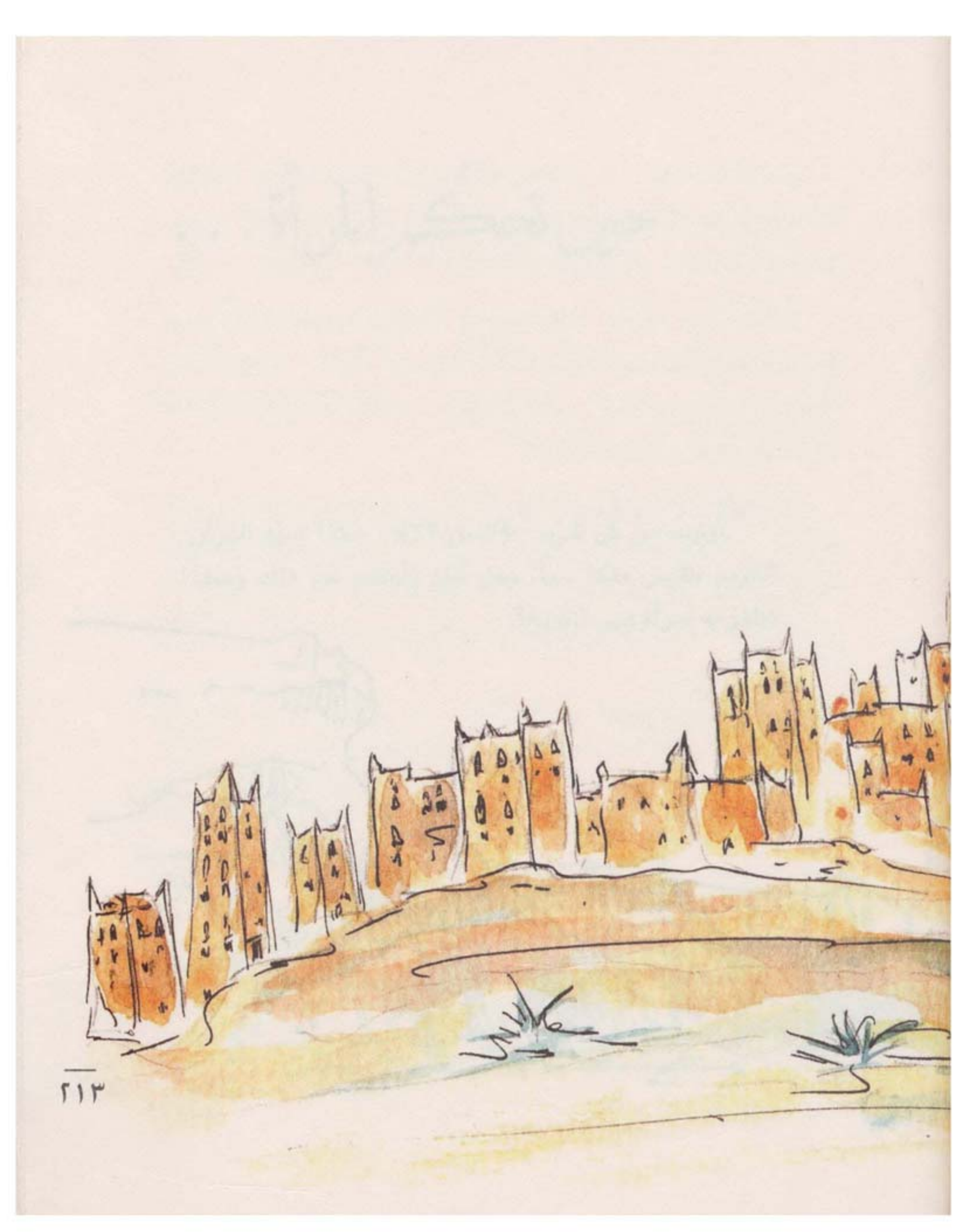
وما نيلُ المطالب بالتمنّي ولكن تُؤخذ الدنيا غلابا.

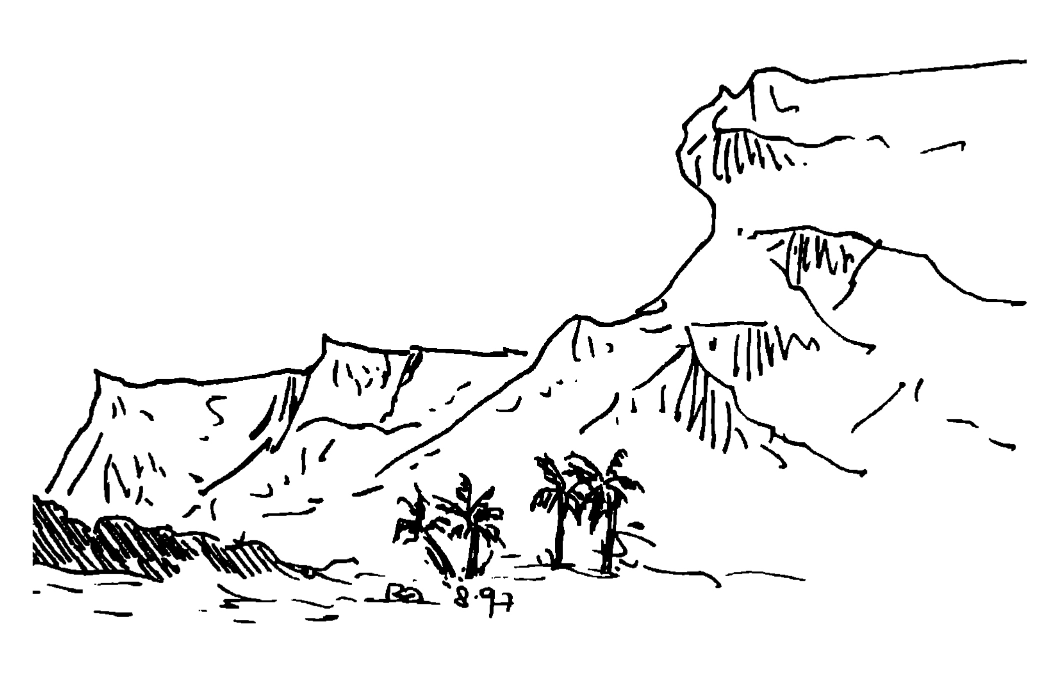


الفصل الثاني

بلقيسيّات...

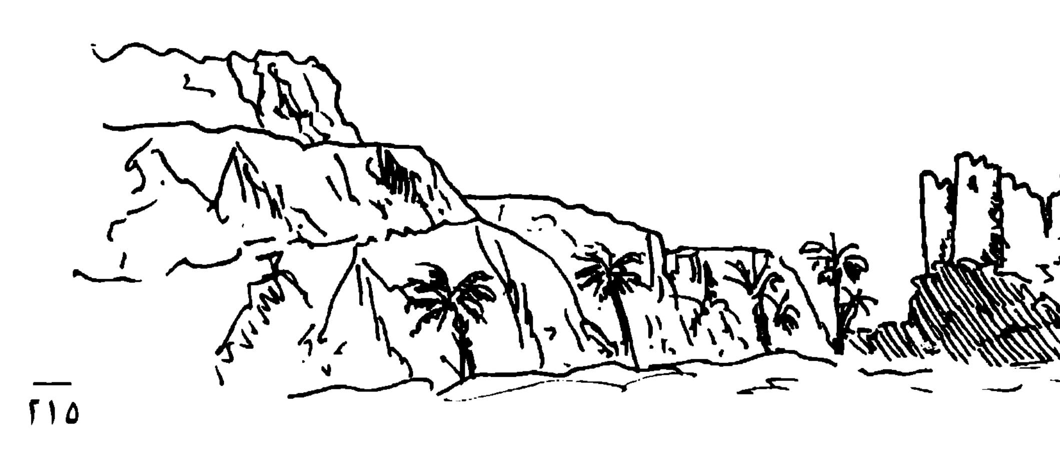






حين تحكم المرأة . . .

" أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ "﴿النمل،٢٣﴾.. هكذا صوّر القرآنِ الكريم بلقيسَ ملكة سبأ، وهل أبلغ وأعظم من ذلك وصفاً تظفر به امرأة عبر التاريخ؟.



وبعد ثلاثة آلاف سنة من رحيلها، يبقى هذا الوصف تاجها الحقيقيّ الخالد، أثمن من كنوز مملكتها وأعظم من سلطانها وعرشها الشهير، وبه خُلِّدت بعد أن زالت مملكة سبأ، وتتالت فوق أنقاضها الممالك والدول.

ملَكَتْ بلقيس سبأ بعد أبيها الهَدهاد، الذي جمع وجوه مملكته حين حضرته الوفاة ليسلّمها الحكم قائلاً: "إني رأيتُ الرجال، وعجمتُ أهل الفضل وسيرتهم، وشهدتُ من أدركتُ من ملوكها، فلا والذي أحلف به ما رأيتُ مثل بلقيس رأياً وعلماً وحلماً".

والحادثة الأشهر في حياة تلك الملكة اليمنيّة التي تجاوزتْ مسرح أحداثها، وتناقلتها الشعوب بروايات متباينة، واستلهمتها روائع إبداعات الفنانين الأوروبيين في عصر النهضة مثل رافائيل[١٥٦] ورويموندي[١٥٧] وجيبرتي[١٥٨]، هي حكاية زيارتها سليمان بن داود، وقد شهد لها القرآن

---

(١٥٦) رفائيلو سانزيو (Raffaello Sanzio):١٤٨٣-١٥٢٠م/٨٨٨-٩٢٦هـ رسّام إيطالي من عصر النهضة، قام بإنجاز أجزاء العديدة من اللوحات الجِصيّة (الجِدارية) في غرف الفاتيكان مثل مدرسة آثينا؛ هيليودوري (كاتب إغريقي قديم) يطرد من المعبد؛ الإحتفاء بالقربان المقدس؛ بارناس (في الميتولوجيا الإغريقية هو جبل الحوريات الخاص بالإله أبولو)؛ وغيرها، وتعود أكثرها إلى الفترة ١٥٠٩-١٥١٤م/٩١٥-٩٢٠هـ.

(١٥٧) بيترو ريموندي: موسيقي ايطالي مشهور١٧٨٦-١٨٥٣م/١٢٠٠-١٢٦٩هـ، اشتهر بتأليف اوبرا الموسيقى المقدسة، وابتكر التزامنات الموسيقية الضخمة.

(١٥٨) لورنزو جيبرّتي:١٣٧٨-١٤٥٥م/٧٨٠-٨٥٩ هـ نحات وصائغ ذهب إيطالي، اشتهر بصناعته لطقمين من الأبواب البرونزية لبيت المعمورة بمدينة فلورنسا تزدان بـ ٢٨ لوحة مزينة بنقوش بارزة، توضح عشرون منها مشاهد من حياة السيد المسيح. ثم أنتج طقمًا آخر يسمى أبواب الجنة لها عشر لوحات ضخمة مستطيلة الشكل نقوشها البارزة تصور أحداثاً من العهد القديم. عمل جيبرتي في الأبواب حوالي ٥٠ عامًا. وأبدع في أعمال أخرى كثيرة ودرّب عشرات الفنانين الذين كانوا يعملون مساعدين له.

الكريم أنّها كانت من أوائل دعاة الديمقراطيّة وحكم الشورى في التاريخ، حينما أورد أنها استشارت قومها في الردّ على الهدهد الذي يُقال إنّه جاءها بدعوة سليمان قائلة: "يَا أَيُّهَا المَلأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ". ﴿النمل،٣٢﴾

أما وقد أفتوها بالقبول، فيُروى أنّها دخلتْ بيت المقدس[١٥٩] بجِمال تحمل اللبان والطيوب والذهب والأحجار الكريمة، فأحسن سليمان وفادتها، وفي الرواية: "وبهرها بحكمته وقوّته وعجائب ما تصنع الجنّ له"، وقيل إنّه تزوّجها وولدت منه ولداً اسمه (رحبعم)، وقيل إنّه زوَّجها ذا تُبّع من همدان وردّهما إلى اليمن، حيث بُنيتْ لها ثلاثة قصور مذهلة: غُمْدَانَ وسِلْحِين وبَينُونَ؛ في المنطقة التي شهدتْ تألّق حضارة سبأ العظيمة.

أمّا قصر غُمدان الذي أقيم في جيوب النعيم بسفح جبل نقم، فقد كان -كما يقول المؤرخون- إحدى عجائب الدنيا، ويصفه أشهر مؤرخي اليمن

---

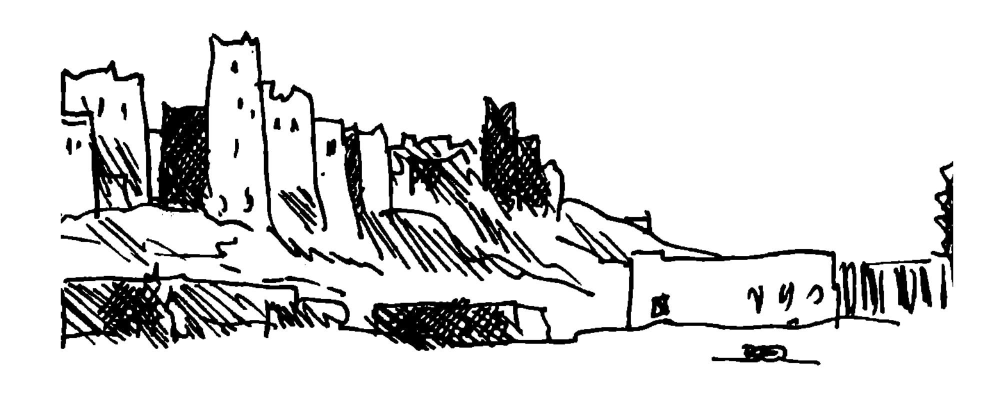
(١٥٩) وهناك جدل كبير حول هذا الموضوع.

أبو محمّد الحسن الهمداني في كتابه المعروف "الاكليل" بأنّه "أوّل قصور اليمن وأعجبها ذكراً وأبعدها صيتاً"، وكما يستخلص الدكتور يوسف محمّد عبد الله[١٦٠] من المصادر التاريخية، فالقصر -الذي يُقال[١٦١]: إنّ بناءه يعود إلى الملك "إل شرح يحصب"- يتكوّن من عشرة طوابق ويُقال عشرين (وتخيّلوا أن ذلك كان قبل ٣٠٠٠ سنة)، أسفله أحجار كبيرة سوداء وأعلاه رخام مصقول، وحجارته متلاحمة بالمعدن المُذاب، ويُقال: إنّ القصر كان مُعصَّباً ومُنطّقاً ومُؤزّراً، وقد تم تزيين ما بين طوابقه بالأحجار شبه الكريمة كالجزع.. والمُتناقل أنه كان قد شُيّد في رأس القصر منظرة (صالة)، وأطبق سقفها برخامة واحدة شفّافة لدرجة أن الجالس تحتها يستطيع تمييز الغُراب من الحدأة، وعلى حروفها كانت أربعة تماثيل لأسود من نحاس مجوّفة، فإذا هبّت الريح دخلتْ أجوافها وسُمع لها زئير كزئير الأسد (ويبدو أنّ اتجاهات الريح كانت تُعرف من نوع زئير كل أسد بحسب اتجاه موقعه)، وكان يتصدّر مدخل القصر ساعة مائيّة، ويُزين

---

(١٦٠) الدكتور يوسف محمّد عبد الله: باحث ومؤرخ يمني معروف، ولد في عدن في الأربعينيّات، من أوائل علماء الآثار اليمنيين والباحثين في النقوش اليمنيّة القديمة، اكتشف أوّل قصيدة سبئية على نقش في الحجر، وهو رئيس جمعية الصداقة اليمنية - الألمانية، رئيس الهيئة العامّة للآثار والمتاحف في الجمهوريّة اليمنيّة، أستاذ الآثار والنقوش في جامعة صنعاء.

(١٦١) وتقول بعض الروايات إنّ سام بن نوح هو الذي بنى هذا القصر حين أقبل من الجنوب إلى الشمال، وارتاد اليمن فوجد حقل صنعاء أطيبها، فوضع مقرانة (وهو الخيط الرفيع الذي يُقدّر به البناء) وبعث الله طائراً اختطفها وطار بها وسار سام يتبعه لينظر أين يُسقطها، فتوجه الطائر الى جيوب النعيم (الجيوب ما ارتفع من الارض ودون الهضبة) من سفح جبل "نقم" فوقع بها، ثم طار بها وطرحها على حرّة غمدان: (الحرّة بلهجة أهل اليمن هي الارض المدرّجة في المرتفعات) حيث استقرت، فعلم سام أنّه قد أُمر بالبناء هناك، فأقام قصر غُمدان وحفر بئره.



فناءه حديقة غنّاء وقنوات جارية، ونخلة سامقة تُسمّى "الدالفة"(١٦٢)، ثم أهملتْ صيانة القصر مع انهيار معاقل الحضارة اليمنيّة القديمة، وتعرّض لحريق كبير أيّام الغزو الحبشي لليمن (حوالي٥٢٥ م) ولم يقمْ بترميمه أحد(١٦٣)، حتّى بنى الملك بدر الدين حسن بن علي الرسولي عام ١٢٢١م/ ٦١٨هـ على آثاره قصراً كبيراً، وهو ما يُسمى حالياً ب"قصر السلاح" في صنعاء القديمة الذي رُمم في فترات مختلفة.

---

(١٦٢) ومن الكثير الذي قيل في وصفه:

يسمو إلى كبد السماء مُصعداً   عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن السحاب مُعصّب بعمامة   ومن الغمام مُمنطق ومُؤزّر
متلاحكاً بالقصر منه صخرة   والجزع بين صروحه والمرمر

(١٦٣) يتناقل اليمنيّون ما رُوي عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في قوله (لا يستقيم أمر العرب مادام فيها غُمدانها)، ويفترض النويري في كتاب (نهاية الأرب) أنّ هذا القول حضّ عثمان بن عفان رضي الله عنه على هدم القصر (بسبب فهمه أيضاً للآية الكريمة: "لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذي بَنَوْا رِيبَةً في قُلُوبِهِمْ" على أن المعنيّ بها قصر غُمدان)، وقال ياقوت الحموي: "زعم كهّان اليمن أنّ منْ يهدم غُمدان يُقتل، وبذلك عللوا قتل عثمان عليه السلام"، والله أعلم.

حتى بعد قرون من اندثاره، ما زال قصر غُمدان الذي قال عنه أبو محمّد اليزيدي في إحدى قصائده قبل ما يزيد على ١٢٠٠ سنة:

فإن تكنْ جنّة الفردوس عالية

فوق السماء فغُمدان يحاذيها.

وإن تكن فوق وجه الأرض قد خُلقت

فذاك بالقرب منها أو يصاليها.

رمزاً للعظمة والتفوّق في اليمن الذي طالما عُرف ب"بلاد القصور"، ومازال اسم بلقيس -حتّى اليوم- يملأ الآفاق... الملكة التي حكمتْ دولة قويّة، بنتْ السدود، وزرعتْ الأرض، وفتحتْ آفاق المعرفة في مختلف العلوم والفنون والآداب، حتّى شبّهها القرآن الكريم بالجنّة "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ". ﴿سبأ،١٥﴾

والحق أن اليمن، موئل الحضارات، قد أنْصَفَ المرأة حينما خلّد تاريخه بعض النساء العظيمات ملكات، كبلقيس وأروى...

وأروى -بالمناسبة- كانت زوجة الملك المكرم الصليحي الذي أعاد توحيد اليمن، فأقرّه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله على الملك، وبعد تدهور علاقته بمركز الدعوة في مصر وإصابته بالفالج، اعتزل الحكم لصالح زوجته سيّدة بنت أحمد (أروى) التي اتّخذتْ من ذي جبلة عاصمة لملكتها.

وليتذكّر دائماً بعض الرجال ممن لايقرّون لزوجاتهم حتّى بحقّ التفكير، وإبداء الرأي، أنّه -قبل ألف عام- وحينما لم يكن العالم الغربي مضاءً بأنوار العلم وبهاء المعرفة، ولم يكن الإنسان قد غزا بعقله وتطوّره الفضاء بعد، أدرك الملك الصليحي، الذي لم يدرس في جامعات أوروبا وأمريكا، أنّ الذكاء ورجاحة العقل والقدرة على تسلّم المسؤولية وحكمة القرار، كلّها ليست خواصّ ذكورية حصراً، وكم نترحّم اليوم على روح ذلك الرجل الواعي حين نسمع بعض أبناء جنسه يتشدّقون بمقولتهم السخيفة ضدّ النساء: "الرؤوس الجميلة... دوماً فارغة".

المهم، أنّ جدّتنا أروى أصرّتْ على حقّها بالملك بعد وفاة زوجها وابنها، ودخلتْ في سبيل ذلك في صراع مع سبأ بن أحمد مظفّر الصليحي ابن عمّ زوجها، فتدخّل الخليفة الفاطمي المستنصر في مصر وكتب إلى سيّدة يقول "قد زوّجتك بأمير الأمراء سبأ على مئة ألف دينار"، وأنهى الخلاف بتزويجهما زواجاً ظلّ صورياً، واضطر سبأ بعده أن يتعاون معها، وقامت الملكة الحكيمة لنصف قرن (وهي أطول فترة حكمها ملك صليحيّ) بما

شُهد لها من البأس والذكاء والحضور القويّ، بتدبير شؤون حكم بلادها في السلم والحرب.

السير المشرقة لملكاتٍ كنفرتيتي[١٦٤] وعليسة[١٦٥] وبلقيس وكليوباترا[١٦٦]

---

(١٦٤) نفرتيتي (القرن ١٤ ق.م): ملكةٌ فرعونيّة، هي زوجة الملك أَمنحوُتَب الرابع المعروف باسم اخناتون الذي أصبح لاحقاً فرعونَ الأسرةَ الثامنةَ عَشَر الشهير والموحّد الأوّل بالتّاريخ وحماة توت عَنْخ آمون، ساندتْ زوجَها في ثورته الدينيّة والاجتماعيّة، ثمّ انتقلتْ معه إلى مدينة "أخيتاتون" أو تلّ العمارنة، لعبادة الإله "آتون" الممثل بقرص الشمس، من ألقابها "نفرو نفرو آتون نفرتيتي" بمعنى: آتون يشرق لأنّ الجميلة قد أتت، و"الزوجة الملكيّة العظيمة"، أنجبتْ من أخناتون ستّ من البنات، بعد وفاة ابنتها "ميكيت-آتون" اختفت من البلاط الملكي، وحلّت ابنتَها "ميريت آتون" محلّها، يُعتَقدُ أنّ نفرتيتي تُوفّيتْ في العام الرابعَ عشَرَ لحكم إخناتونَ، ودُفنتْ في مقبرةٍ بإخيتاتون ويُعتقد أيضاً أنّ توت عنخ آمون نقل مومياءها مع والده أخناتونَ قربَ قبره. وقد تمّ محوَ اسمها وزوجها من السجلّات التاريخيّة وتشويه صورهما، ولم يتمّ العثورُ على المومياء الخاصّة بها حتّى الآن وذلك بسبب الدور الذي لعبه اخناتون في التمرّد على الآلهة والعودة إلى عَقيدة التوحيد التي تَمَحْوَرَتْ حول إله الشمس "آتون". تُذكر نفرتيتى بالتمثال الجيريّ النصفيّ لوجهها في واحدة من أروع القطع الفنيّة من العصر القديم (٣٣٠٠ سنة)، والتي هرّبها عالم المصريّات الألمانيّ لودفيك بورشاردت عام ١٩١٢م/١٣٣٠هـ، وما يزال التمثال النصفيّ في مُتْحَف برلين ليومنا الراهن.

(١٦٥) الملكة عليسة: أوّل ذكر لها في القرنَ التاسع قبل الميلاد كما يُعتقد، وهي ابنةُ ملك صور وزوجةُ خالها الكاهنِ الأعظم عاشرِ باص (أو زيكار بعَل)، بعد وفاة والدها الملك، تآمر عليها أخوها بيغماليون الذي طمع بثروة عاشرباص الطائلة ورغب بالحكم مكان أخته التي كانت شريكته في الحكم. فأبحرتْ مع أوفيائها وكنوزِها إلى ساحل شمالِ أفريقيا (تونس حالياً). حيث أنشأتْ مدينةَ قرطاج أو "قَرْتْ حَدَشْتْ" (أي القرية الحديثة بالفينيقيَّة) التي عُرفت بتجارتها الواسعة وسيطرتها على بحر المتوسط، وقد أوجد تصاهرُ عليسةَ مع البربرِ سكانِ شمالِ أفريقية الشعبَ البونيقي الذي استعمر سواحلَ المتوسط وأنجب حَنْبعَلَ الذي هدد الرومان. اشتهرت عليسة ملكة قرطاج بعد ذكرها في الإنياذة التي كتبها فرجيل وسُميتْ فيها "ديدو" أو "ديدون" (بالفينيقيّة تعني "الرحالَةَ"). كما سُميتْ بـ"أليسا" وعُرفت بـ"أليسار ديدون"، وانتهت الملكة عليسةُ بالإنتحار وفاءً لذكرى زوجها وحرصاً على مدينتها حين أصرَّ ملكُ البربرِ على الزواجِ منها مهدداً بحرق وتدمير قرطاجة إذا لم تستجب لطلبه.

(١٦٦) كليوباترا السابعة "ايزيس الجديدة" ٦٩ - ٣٠ ق.م: ملكةَ مصَر الشهيرة وآخرُ ملكة للسلالة البطلميّة اليونانيّة، بعد وفاةِ والدها بطليموس الثاني عشر عام ٥١ ق.م، انتقل العرشُ إليها والى أخيها =



=الصغير بطليموس الثالثَ عشر، الذي حُرّض على طردِ كليوباترا من الإسكندريّة ثمّ حاول التقرّب إلى القيصر، ولكنَّ القيصر ساعد كليوباترا وحسم حرب الاسكندريّة في عام ٤٧ ق.م، واستلمتْ كليوباترا عرش مصر مع أخيها الأصغر بطليموس الرابع عشر، وحكمتْ بلاداً تمتدّ حدودها إلى قبرص وسوريّة وفلسطينَ، وولدتْ كليوباترا لقيصرَ بطليموسَ الخامس عشر أو قيصرون. بعد اغتيال قيصر في روما انقسمتْ المملكة الرومانيّة إلى شرق وغرب بين أعظم قوّاده أوكتافيوس وانطونيوس الذي أصبحتْ كليوباترا تحت سُلطته فأمرها باللحَّاقِ به في طرسوسَ. فتمهّلتْ ثمّ أبحرتْ إليه عام ٤١ ق.م في أسطولٍ رائع، حيث اجتذبته إلى متن سفينتها، وقدّمت له مشهداً مُذهلاً ووقع أنتوني الذي كان متزوّجاً من أوكتافيا أخت أوكتافيوس (أغسطس) في حبّها وزارها بعد ذلك في الاسكندريّة وأقام فيها شتاءَ ذلك العام. أنجبتْ بعد رحيله توأماً. ثمّ لحقتْ به في سوريا وهناك أعلنوا زواجهما رسميّاً، وأصبح انطونيوس حليفاً لكليوباترا بدل من أن يَضُمَّ مصرَ للإمبراطورية الرومانيّة، وكان ذلك سبباً في معركةِ أكتيوم البحريّة غربَ اليونان بين أغسطس (أخو أوكتافيا) وأنطونيوس، والتي خسر فيها أنطونيوس كثيراً وفَشلَ في التصدّي لقوّات أوكتافيوس، التي وصلتْ إلى مشارف الإسكندريّة عام ٣٠ ق.م، وانتحر انطونيوس عندما بلغه نبأ كاذب بموت كليوباترا، وانتحرتْ هي بلَدْغة ثُعبانِ الكوبْرا بعد أن سمعتْ بهزيمته، وأعلن أوكتافيوس ضَمّه مصرَ لسلطانِ الشعب الرومانيّ، وقتل ابنَها قيصرون خشية أن يطالبَ بالإمبراطوريّة الرومانيّة كوريثٍ ليوليوس قيصر ووليّ عهده.

وزنوبيا[١٦٧] وأروى وضيفة خاتون[١٦٨] وشجرة الدرّ[١٦٩] وغيرهن.. تحرّض

---

(١٦٧) زنوبيا (٢٤٠م-٢٧٤م): هي ملكةُ تدمُر، كانت زوجةً لأُذينة ملك تدمر والتي كانتْ أهم حواضرِ عصرِها، وكانت الملكةُ زنوبيا ذاتَ عقلٍ وسياسة وثقافة وجمالٍ حتّى لُقِبَتْ بملكة ملكات الشَرق. بعد مقتل أُذينة عام ٢٦٧م، تولّت المُلكَ باسْم ابنِها وَهبِ اللّات، وازدهرتْ تدمرُ في عهدِها حتّى نافست روما، أرسل لها الإمبراطورُ الرومانيُّ جيشه فهزمته، بعدها سيطرت على مُعظم الدول والمناطق المحيطة حتّى امتدّتْ مملكتُها القويّة من شواطئ البِّسفور إلى النيل، مما دعا الإمبَراطورَ أورليانوس للتفاوضِ معها لوقف زحفِ جيوشِها مقابلَ الاعتراف بألقابِ ابنها وامتيازاته الملكيّة. أصدرتْ العملة الخاصةَ بتدمر وأزالتْ عنها صورةَ الإمبراطور، لكنَ الإمبراطور الرومانيَّ في سنة ٢٧١م أرسل جيشانِ رومانيّانِ قويّانِ أحدُهما بقيادته هو نفسه إلى سوريّة وآسية الصغرى، بينما احتلّ الثاني أجزاءَ من جنوب المملكة في أفريقيا، وتواجه أورليانوس مع زنوبيا في إنطاكية في سوريّة وهزمها هناك، ثمّ في حمص، وقاومتْ زنوبيا الغُزاة بشجاعة، وبعد معارك ضارية وقعتْ في الأسر سنة ٢٧٢م، فاصطحبها أورليانوس معه إلى روما، ويُقال إنها انتحرتْ في تيبور رافضة التنازل.

(١٦٨) الملكة ضيفة خاتون ١١٨٥-١٢٤٢م/٥٨١-٦٣٩هـ: يُقال إنّها كرديّة الأصل، وهي ابنة الملك العادل أبي بكر أيّوب صاحبِ حلبَ وشقيقَ الملك صلاح الدين الأيّوبيّ، وقد تزوّجها الملك الظاهر أبو الفتح ابن صلاح الدين الذي تولّى على حلبَ عام١١٨٧م/٥٨٣هـ ولمّا تُوفّي صلاح الدين تولّى السلطنةَ في عام١٤٥٥م/٨٥٩هـ، وكان من أشقّائها ستّة ملوك، بعد وفاة الظاهر غازي عام١٢١٦م/٦١٣هـ، استلمَ ابنُها العزيزُ السلطنةَ وحكم حتّى وفاته عام١٢٣٦م/٦٣٣هـ، ثمّ انتقلتْ مقاليد الحكم إلى ابنه محمد (الناصر يوسف الثاني) وكان صغيراً، فاستلمتْ ضيفة خاتون دفّةَ الحكم لمدة ٦-٧ سنوات حين وفاتها، وانتشرتْ في عهدها المدارسُ، وازدهرتْ الحياةُ الاقتصاديّة وَبَنَتْ السلطانة الحكيمة القويّة جامع الفردوس، وهو مدرسةٌ ورباطٌ ومسجد وفيه غرفة خلوة خاصة بها، وكذلكَ بَنتْ خانقاه الفرافرة عام ١٢٣٧م/٦٣٤هـ، فكانّ رباطاً وفيه مكان مخصص للنساء، ولكنَّ هذه المِلكةَ لم تَلْقَ اهتماماً لائقاً من الدراسات التاريخيّة، ربّما لأنّ تاريخها بدا مستقراً.

(١٦٩) شجر الدر أو شجرة الدر: هي عصمةُ الدين أمُّ خليل، يُقال إنّها جاريةٌ تركيّة أو شركسيّة. تميّزت بالذكاء والجمال، لقّبها الملكُ نجم الدين الصالح أيوبُ بشَجَرةَ الدرّ، ثمّ أصبحتْ زوجَته وأمَّ ولده خليل وقاسمتْه المجدَ والسلطةَ. ثمّ تُوفي عندما تَعرّضتْ مصرُ لحملة الصليبين ١٢٤٩م/٦٤٧هـ، وأخَفتْ نبأَ وفاته خوفاً من حدوث البلبلة، ثمّ استدعتْ ابنَ زوجها تورانَ شاه وأمرَتْ بحلف يمين الولاء له، لكنّه لَم يُحسنْ معاملةَ أنصاره المماليكِ البحريّة فقتلوه قبل أن يتخلّصَ هو منهم عام ١٢٥٠م/٦٤٨هـ لتنتهي الدولةُ الأيوبيّة في مصر، واختاروا أرملة أستاذهم "شجَرة الدر" سلطانة للبلادِ، كان عهدُها زاهراً نَبَغَ فيه العديد من الأدباءِ والشعراءِ وتمَّ تسييرُ مَحْمَلِ الحج من مصرَ إلى =

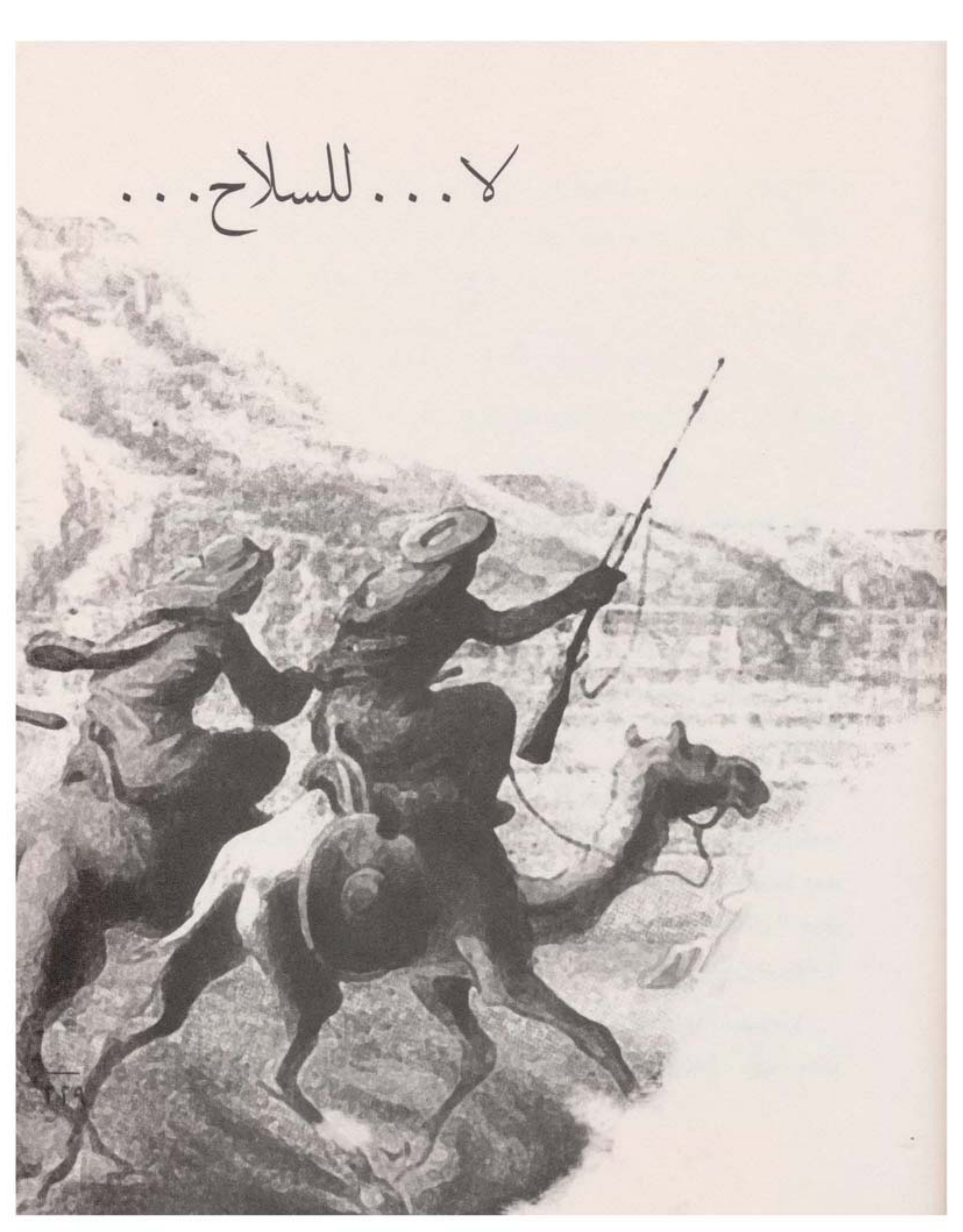
في السؤال: إذا كنّا نحن نساء اليوم -وضمن تسهيلات العلم وكماليّات تكنولوجيا القرن العشرين- مرهقات بطموحات شخصيّة بسيطة، نعاني صعوبة التوفيق بين مسؤوليات أعمالنا وبين واجبات عائلية لا تنتهي، وأين هي من أعباء الحكم، وجحيم الصراعات السياسية ودسائس ومؤامرات القصور، وثقل هموم إدارة البلاد والعباد التي كانت خبز تلك الملكات اليوميّ، فمتى كنّ -"جلالتهنّ"- يجدن الوقت ليستمتعن بممارسة دورهنّ الطبيعي ونعمة إنسانيتهنّ في ملاذ العائلة، وواحة الأصدقاء ودفء التفاصيل الحميمة؟... وهل كانت لهنّ أبداً حياة خاصة؟.. أجل كنّ عظيمات وجبّارات وخلّدهنّ التاريخ بعد مماتهنّ.. ولكن -في حياتهنّ- هل كنّ حقّاً سعيدات؟.

اليوم، في سائر بلدان العالم، تتبوّأ المرأة مختلف مواقع المسؤوليّة والقرار وأعلاها، رئيسة ورئيسة وزراء ووزيرة وسفيرة ومديرة وعالمة ورائدة فضاء وقائد طائرة بل وسائق حافلة أيضاً.. لم يبقَ أيّ منصب عصيّاً عليها.. أمر مُفرح وانجاز تطلّب جهود وتضحيات أجيال من النساء الواعيات، نصفّق له مشجّعين؟.. طبعاً، لكن بشرط أن لاتسمح -وهي الكائن الرقيق الذي استلهمته الطبيعة من روحها، وأبدعته على شاكلة عطائها المتدفق- لأيّ مملكة أو مسؤوليّة أن تحرمها عرشها الذي لا يضاهيه عرش آخر.. أنوثتها.

= الحجازِ، ولكنّها لَقيتْ معارضة شديدة داخلَ البلادِ وخارجَها، فتزوّجتْ من الأتابك عزّ الدين أَيْبكْ (الملك المعزّ) وذلك بعدما حكمتْ مصرَ لمدّة ٨٠ يوماً، وبعد أن أصبح زمام الأمور في يده بلَغها أنّه يريدُ خطبةَ ابنة الملك بدرِ الدين لؤلؤ صاحب المَوْصلِ فدعتْه إليها، وضربه غلمانها في الحمّام إلى أن ماتَ، فقُبِضَ عليها في سجْنٍ منفرد وعُذّبتْ في البرج الأحمرِ في القلعة عام ١٢٥٧م/٦٥٥هـ، ثمّ قتلها عليّ ابنَ الملك المعزّ بتحريضٍ من أمّه (أمّ علي) ويُقال أنّها قتلَتها على يدِ الجواري اللاتي ضَرَبْنها بالقباقيب إلى أنْ ماتتْ وأولمتْ حلوى حملتْ اسمها (أمّ علي).



لا ... للسلاح ...



هل سمعتم بحملة نزع السلاح في اليمن؟.. الدولة تشتري أسلحة المواطنين وتمنع دخولهم المدن بالسلاح، أمر إيجابي.. بل ضرورة ملحّة في بلد يتداول مواطنوه وقبائله أكثر من ستّين مليون قطعة سلاح ناريّ، تتنوّع ما بين المسدس الصغير والمدفع، بينما لا يزيد عدد سكّانه على بضعة وعشرين مليون نسمة، أي بمعدّل قطعتين إلى ثلاث قطع سلاح للشخص الواحد.

وعلى ذمّة بعض التقارير الإعلامية، فإنّ ما يزيد على ٢٠٠٠ شخص يموتون سنوياً في اليمن بأسلحة الثأر، ويموت ما يفوق هذا العدد من جرّاء سوء استخدامها، بطريق الخطأ أو في لحظات الغضب أو الطيش، وحين يقبع الزناد تحت أصابع غير مسؤولة ولا واعية، تصبح حياة الإنسان أرخص من ثمن رصاصة.

وبحسب أعراف القبائل، يحقّ لعائلة القتيل مطالبة القاتل وقبيلته بدفع "ديّة" (فدية) كتعويض يحقن الدماء ويوقف سلسلة الثأر، ينسى

بعدها الطرفان ما حدث، وطالما حيّرني -خاصّة لدى اليمنيين- هذا التناقض المدهش ما بين منتهى العنف ومنتهى الطيبة، بين التلظّي بأحقاد الثأر والقدرة العجيبة على التسامح الفوريّ.

كم يبدو الأمر مهيناً لعقل الإنسان واحساسه وكرامته! ذلك الإنسان الذي تراكمتْ حيوات عدد لايحصى من الأجيال وخبراتهم وتضحياتهم لتقطّر له العلم والمعرفة، ليحلّق برقيّ في سموات الفنون والآداب والموسيقى والعلوم، فينتشي الكون إزاء كلّ تفتح جديد له على عوالم الإبداع والاكتشاف، كلّ ذلك تصرعه في لحظة ضغطة يد جاهلة على زناد ميت.. دون سبب.. وإذا وُجدت أسباب فكلّ منها ينافس الآخر تفاهةً، خلاف على شبر أرض، أو حفنة دراهم، كلمة جارحة، أو حتّى إشارة مهينة... والأمر برمّته مرفوض ومستهجن مهما كانت الأسباب.

في قصيدته "الثأر"، وبلهجته البدوية المحببة، يجسّد الشاعر السوري عمر الفرا[١٧٠] بشاعة الثأر، حين يروي قصّة كلب قُتل في مكان ما، وفي اليوم الثاني قُتل رجل، كان ذنبُه أنه ابن عمّ قاتل الكلب، وعلى لسان القتيل المحتضر في لحظات موته الأخيرة قال:

---

(١٧٠) عُمر الفرّا: شاعر شعبيّ سوريّ، وُلد في تدمَر عام ١٩٤٩م/١٣٦٨هـ ودرس فيها وفي حمصَ، عمل بالتدريس في حمص لمدة ١٧ عاماً، ثمّ تفرّغ للأعمال الأدبيّة. مُعظمُ قصائده بالعاميّة البدويّة.. له ديوان "كل ليلة" بالعاميّة و"الغريب" بالفصحى. ومن أشهر قصائده "رجال الله"، "عرار"، "جُول جمّال"، "عروس الجنوب" وهي قصيدة رائعة عن الاستشهاديّة البطلة سناء مُحيدلي و"ثور" و"قصّة حْمدة" التي تتحدث عن معاناةِ فتاةٍ بدويّة أرادتْ عائلتها إجبارها على الزواج من ابنِ عمها.

قَـلْـلِّـــــي عَ روحَـــــــكْ!

وخَنْجَـرو... بْصـدْري دَخَــــل

وأصيـح بْـوَجْهُـو... خَبِّـرنـي!

على أي شَيْ... جايي تذبَحْني؟!

علـــى مَيِّـه؟ عـلـى نـاقـــه؟

عَشَـــان بْنَـيِّـه... عَشّـاقـه؟!

لا لــي عِلــم! لا لــي خَبَــرْ!

لا لـي خَصيـم... مْــن البَشَـرْ!

ويختم القصيدة الطويلة بقوله:

نسيــتْ اخبِّــركْ: الخنـجــرْ

لقيتـــو... مُـو بَعيْـد عَـنِّـي

ولَقيـت بْنَصلْـتـو... ميْلَـهْ

أَظـنُّـو... يِعْـتِـذرْ مِنِّــــي!!

وليس فقط في اليمن، بل مازال صدى قضايا الثأر يتردد في صعيد مصر، وفي ريف سورية يعتبرون "السلاح زينة الرجال"، ومازال لدى الأردن والعراق وغيرها من الدول ذات المجتمعات القبلية قوانين متساهلة تراعي أعراف الثأر وتجذّره في عقول مواطنيها، فتُخفف الأحكام عن القتلة -وتساهم في ابرازهم أبطالاً- بحجّة "فورة الدم" وتحت اسم "جرائم الشرف"، بينما يناضل العقلاء لإلغاء هذا النوع من القوانين المهينة للإنسانيّة.

السلاح وبال أينما وجد، وبسبب انتشاره بين المدنيّين، يستيقظ الأمريكيون كلّ صباح على حادث مؤلم جديد، هل تذكرون قصة الطفل الذي قتل أخاه الأصغر بمسدس جدّهم الذي كان قد خبّأه تحت وسادة المقعد؟، ورغم تواتر مثل هذه الحوادث المؤسفة، تتمسّك جمعية "حاملي السلاح في أمريكا" American Rifle Association بشعار "ليس السلاح الذي يقتل وإنّما حامله"، ويعتبرون أنفسهم مدينين للسلاح الذي "حماهم" ذات يوم من الهنود الحمر فاتحاً طريق الغرب الأمريكي، وللجمعيّة -التي كان رئيسها الممثل شارلتون هيستون- نفوذها الكبير، وأعضاؤها -الذين انتقدهم مايكل مور[١٧١] بشدّة في أفلامه- يقفون ضدّ أيّ محاولة لنزع السلاح من المواطنين.

---

(١٧١) مايكل مور: مؤلّف وناشط سياسي ومخرج أمريكي، ولد عام١٩٥٤م/١٣٧٣هـ، حائز على جائزة الأوسكار، عرف بصراحته وجرأته ورؤيته الناقدة للعديد من القضايا كالعولمة وحرب العراق وسيطرة الشركات العملاقة وجماعات العنف المسلحة.



نستطيع طبعاً، في بلادنا العربيّة، أن نتفهّم أن السلاح كان في مراحل مضتْ جزءاً هاماً من ثقافة الرجل وزيّه ورجولته وضرورة للدفاع عن نفسه وكرامته وتقليداً يتحدّر من صلب عادات القبائل، ولكننا في عصر تغيّرتْ فيه المعطيات والمفاهيم واختلفتْ معايير القوّة، وهناك نظام ودولة وقوانين يُحتكم إليها[172]، لا شريعة الغاب أو منطق العنف[173].

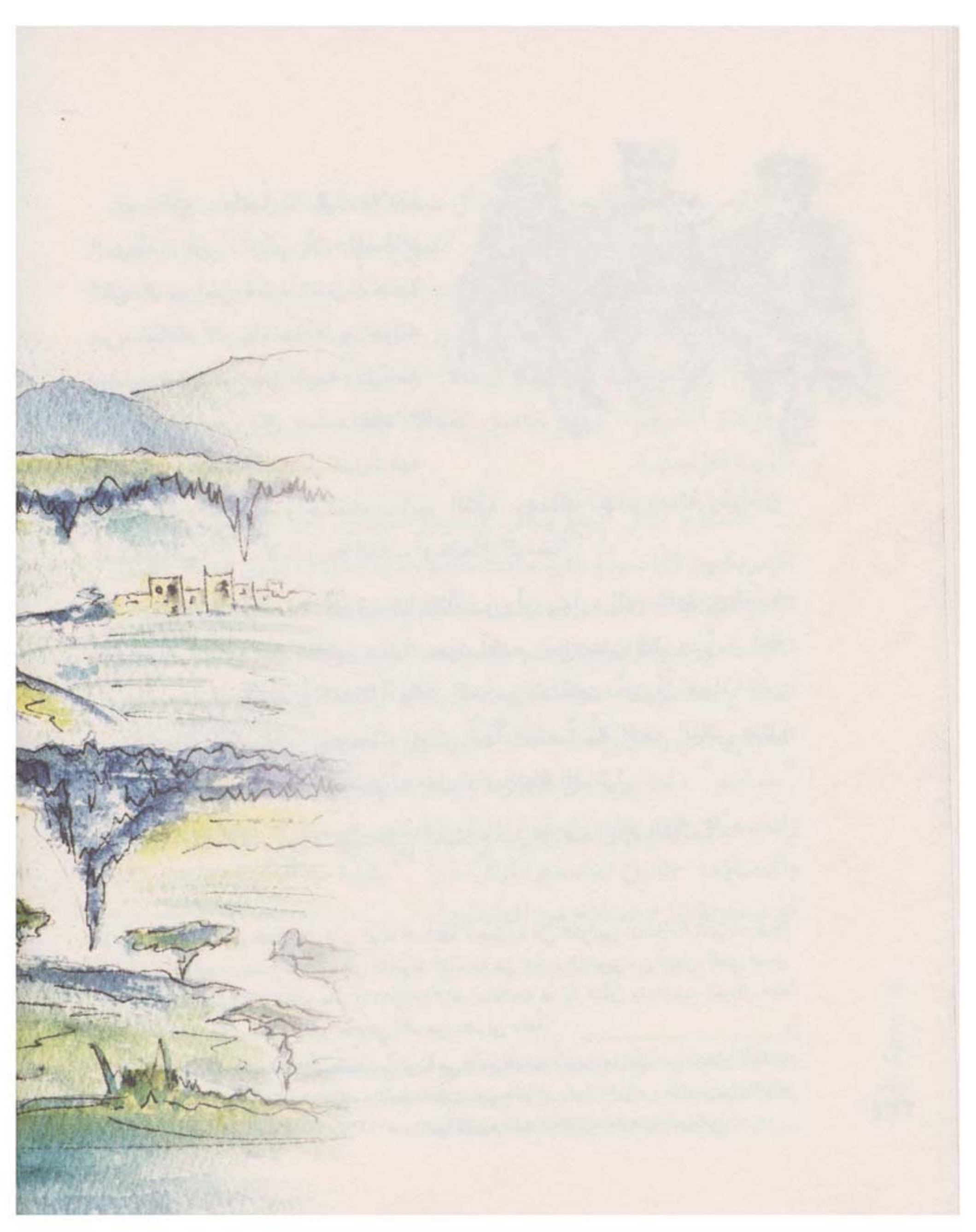
ختاماً... نادراً ما تُذكر قضايا الثأر دون أن يتوارد إلى خاطري قصّة جرتْ في اليمن قبل ثلاثين عاماً، حين أقدم رجل على قتل مدرّس لغة عربيّة يعمل لدى إحدى القبائل، وكان المدرّس المسكين مصريّاً، فماذا كان ردّ القبيلة المنكوبة؟.. المضحك المبكي أنّها انتقمتْ في اليوم التالي بقتل مسكين آخر.. مدرّس "مصري" يعمل لدى قبيلة القاتل!...

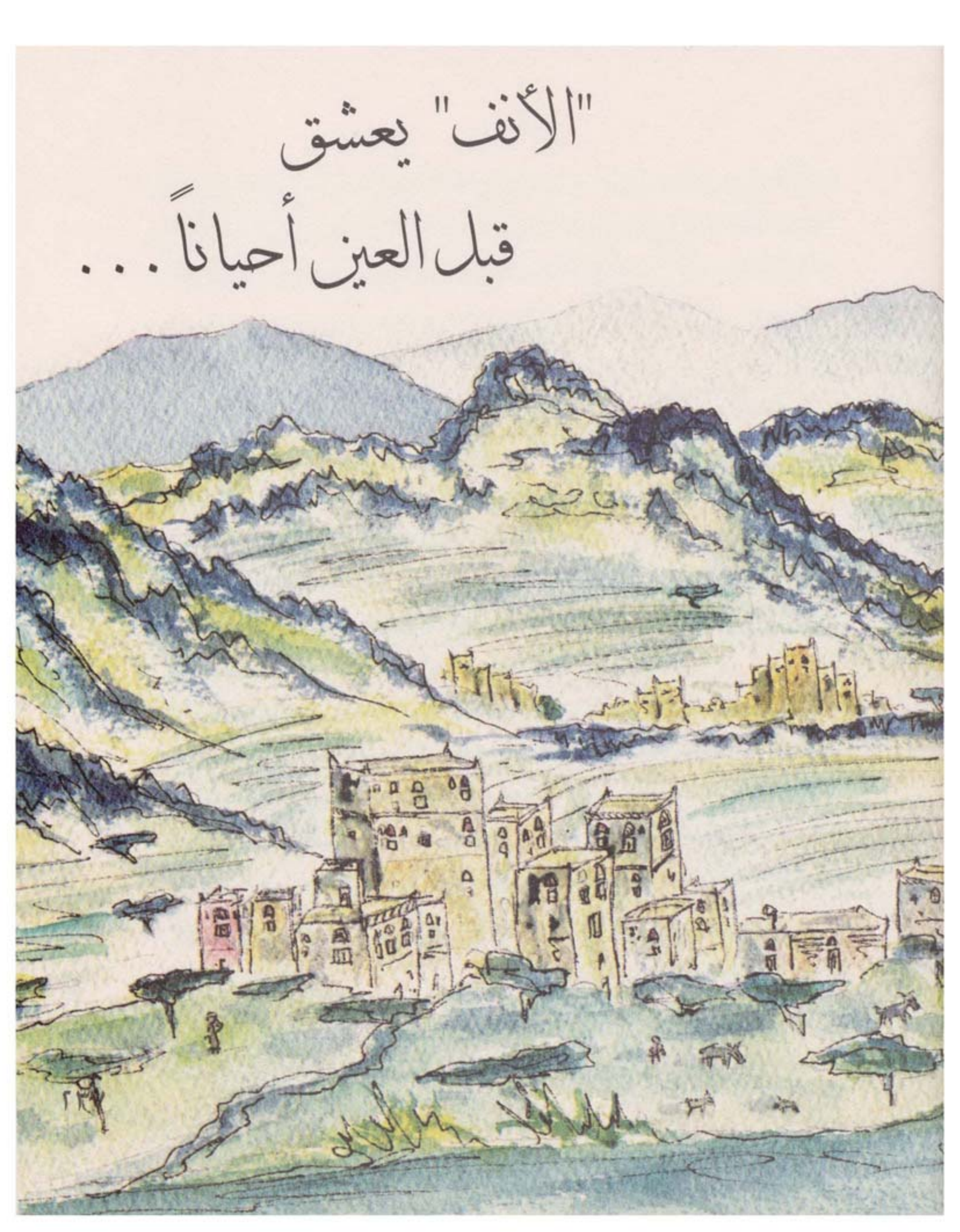
بعد ذلك كلّه.. مَن لا يؤيّد نزع السلاح من كلّ مكان في العالم؟.

---

(١٧٢) يكمن معظم الحل الأساسي لهذه المشكلة الخطيرة في القوانين الصارمة التي تفرضها الحكومات إزاءها، وتجدر الإشارة إلى التجربة الناجحة في الجزء الجنوبي من اليمن، الذي أصدر أولى قراراته عقب الاستقلال عام ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ لمكافحة قضيّة الثأر، واحترمت القبائل هذه القرارات فلم تُسجّل حادثة ثأر واحدة في أكثر من عشرين عاماً.

(١٧٣) وفي خطوة تدعو للتفاؤل، خصصتْ لجنة في الأمم المتحدة جهودها للحدّ من انتشار الأسلحة الصغيرة والخفيفة، واعتمدت لذلك برنامج عمل رسمي عام ٢٠٠١م/١٤٢٢هـ. طالبت دول العالم بتنفيذه، وعقدتْ في العام ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ مؤتمراً لتقييم مدى فعالية تنفيذ هذا البرنامج.




"الأنف" يعشق
قبل العين أحياناً...



يُقال إنّك إذا حفرتَ قليلاً على شاطئ ميناء "قنا"[١٧٤] في سواحل جنوبي اليمن، سيدهشك أن تجد أنّ الرمال مازالتْ تحمل حتّى الآن أثر رائحة اللبان الذي طالما كانت "قنا" مركزاً لتصديره إلى العالم، وكانت حضرموت -وقد ازدهرتْ زراعته وتجارته فيها زمناً طويلاً- مصدراً أساسيّاً من مصادره، حتّى وُصف أحد ملوكها "بملك اللبان"، خلال عصور لعب فيها البخور -وبالذات اللبان المستورد من حضرموت أو ظفار- دوراً هاماً في الحياة اليوميّة للحضارات الكبرى، فالسلالات الفرعونيّة في مصر كانت تقدّم البخور للآلهة، وتُظهر النقوش الآشورية في نينوى محارق البخور الطويلة تحيط بصور الآلهة والعائلة المالكة، كما استخدمته الشعوب الأخرى لأغراض دينيّة أو طبيّة.

ووفقاً للعالم والطبيب الإغريقيّ القديم تيوفراتوس Theophratus

(١٧٤) يقع ميناء "قنا" على ساحل البحر العربي، ويبعد عن المكلّا حوالي ١٢٠كم، ويطغى عليه اليوم اسم (بير علي)، وهو الاسم الذي تُعرف به القرية الحديثة التي تقع على بعد ٣ كم شمالي شرق مدينة قنا. وهو يتبع اليوم محافظة شبوة.

(القرن الثالث قبل الميلاد) فإنّ "أشجار اللبان، والمرّ، والأكاسيا، والقرفة، تتواجد في شبه الجزيرة العربيّة بالقرب من سبأ وحضرميتا (أي حضرموت) وقيتيبانيا (أي قتبان) وممالي".

تنمو بعض أشجار اللبان والمرّ في أعالي الجبال، بينما ينمو بعضها الآخر في الأراضي الزراعيّة على السفوح، بعضها يُزرع، والبعض الآخر ينمو دون زراعة، كانت زراعته تغطي اكثر من ثلث مساحة حضرموت، أمّا اليوم، فلم يعد اللبان يُزرع في مناطق وادي حضرموت الزراعية، إذ يكفي ما يأتي من الأودية الرافدة الفرعيّة وما يُجمع من الأدغال البريّة لسدّ احتياجات معظم السكّان، "احتياجات" تتنوع ما بين استخدامه كعلك وكبخور وكعلاج أيضاً[١٧٥].

وجَمع اللبان الحضرميّ في العصور القديمة -كما يخبرنا المؤرّخ الروماني الشهير بليني Pliny[١٧٦]- كان محصوراً بطبقة محدودة وله طقوسه الخاصّة:

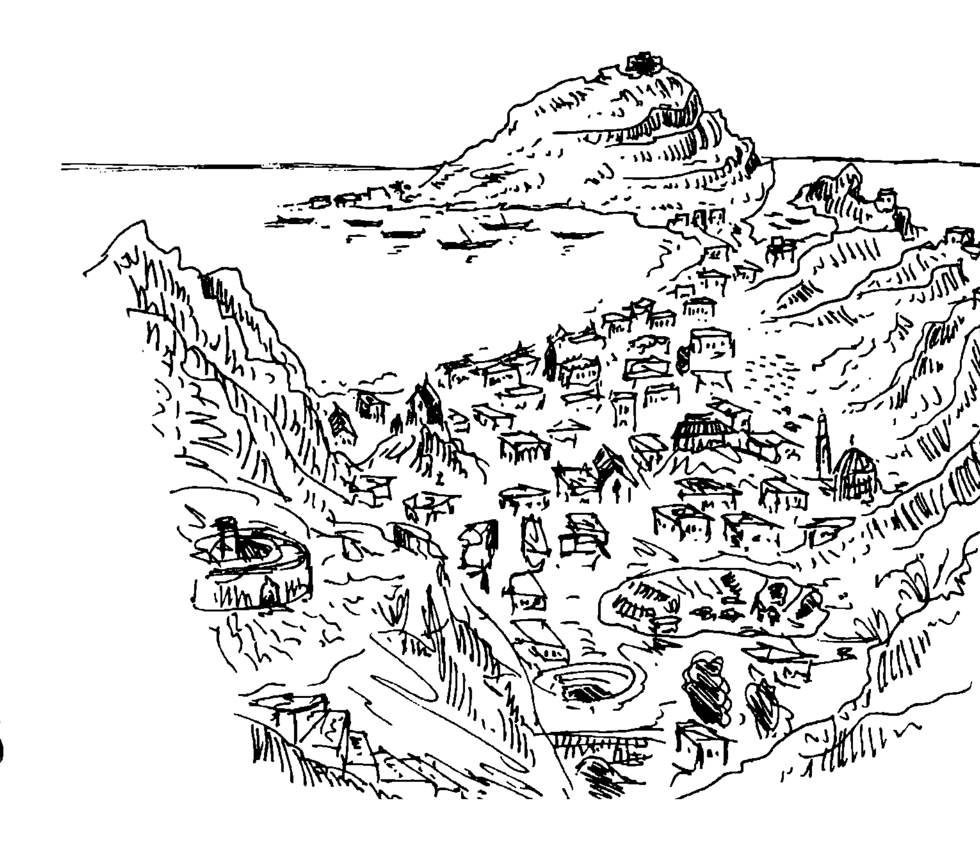
---

(١٧٥) اللبان: يتم استخراجه مرّتين او ثلاثة سنوياً من شجرة الكندر أو شجرة اللبان أو اللبني، أفضله من عُمان. له أنواع عديدة (أجودها الحوجري الذي تنمو شجرته في المناطق المرتفعة الجافة ثم النجدي يليه الشرزي والأقل جودة هو الشعبي أو السهلي)، واللبان فعّال في علاج الصفرة ويُعالج أمراض الربو واللثة والحنجرة والكبد والمعدة، وهو دواء اعتمده الطبّ الشعبيّ منذ القدم في علاج كسور العظام، كما كانت قطعه الكبيرة تُقدم مهراً للعروس أيضاً.

(١٧٦) Pliny: بليني "الأكبر" (٢٣ - ٧٩م) عالم النباتات الروماني الذي ترك كتاباً قيماً عن التاريخ الطبيعي (٣٧ جزءاً)، نشأ في كنفه ابن أخيه بليني "الأصغر" (٦٢ - ١١٤م) وهو خطيب ومؤلف روماني أصبح محامياً ثم عضواً في مجلس الشيوخ وحاكماً لسوريا عام ١٢م، ثم أصبح قنصلاً في عهد الإمبراطور تراجان في عام ١٠٠ وحاكماً في الشرق، ألّف كتاباً عن البلاد التي حكمها ومن بينها اليمن.

"... لايزيد عن ثلاثة آلاف، عدد العائلات التي تتمتع بهذا الامتياز الذي يتوارثه أفرادها من الآباء والأجداد، ولهؤلاء الأفراد ألقاب مقدّسة، وعليهم المحافظة على طهارتهم خلال فترة تقليم الشجر أو جمع المحصول".

والتفنن في "حرف" الروائح الزكيّة في اليمن ليس مختصراً على حضرموت أو المهرة، فقد نالت عدن أيضاً شهرة فائقة عبر التاريخ بصناعة العطور المُستخلصة من النباتات، وقد وجد ابن المجاور في عدن قيصاريّات للعطارين في أسواق خاصّة بها، ويذكر المرزوقي: "وكان طيب



الخلق جميعاً بها يُعبّأ، ولم يكنْ أحد يُحسن صنعه من غير العرب حتّى أنّ تجّار البحر لترجع بالطيب المعمول وتفخر به السند والهند، وترتحل به تجّار البرّ إلى فارس والروم".

وعموماً فاليمني "يحترم" للغاية حاسّة شمّه، ولذلك لا عجب أن اهتمّ منذ القديم بالبخور واللبان والعطور واشتهر بتجارتها، وإذا كان بشّار ابن بُرد يقول "الأذن تعشق قبل العين أحياناً"، فهو بالتأكيد ليس يمنيّ الهوى، ففي اليمن "الأنف يعشق قبل العين غالباً"، والبخور جزء هام من حياة اليمني وجزء مميّز في ضيافته، لذا يحرص على "تبخير" ثياب ضيفه قبل مغادرته بما يبقى أثره العَطِرُ بين ثناياها أياماً بعدها.

وأنواع البخور كثيرة، منها النباتيّ كاللبان والعود، ومنها ما يُطبخ في المنازل، وهناك عائلات توارثتْ حرفة صنع البخور وعُرفت بها، ويُذاب في الخلطة "المطبوخة" العنبر والمسك ودهن البان والطيب والظفري (من الكائنات البحريّة) والعود وغيرها، وهذه "الطبخات" تنتج -إلى جانب البخور- زيوت عطريّة مختلفة، منها "الزباد" و"الأخضرين" و"المعشوقة" و"الدليلة" و"المجموع" وسواها...

ويُحرَق البخور في المباخر المزخرفة لتفوح رائحته العطريّة من كلّ شيء، البيت، الثياب، الجسد، الشعر، أغطية الأسرّة، ولكلّ منها بخور مختلف، أما نبات اللبان فيستخدم للتبخير والتطهير وتحسين طعم مياه الشرب والوقاية من الحسد...

على مدى العقود الأخيرة، ربّما تكون عدن ولحج من أكثر المحافظات

اليمنيّة التي ذاع صيتها بالفلّ والبخور ومختلف المعطّرات، ويقولون إنّه في ليالي صيف لحج، حين يسمر السكّان وينامون على أسطح منازلهم، تتضوّع رائحة البخور والفلّ والكادي في كلّ مكان، حتّى يتحوّل الحيّ غابة عطر.

ولا تفارق "المشاقر" (حزم الفلّ والريحان والورد والنباتات المعطّرة) خدود نساء تعز الفاتنات، لا سيّما في جبلها الخلّاب "صبر"، لتزيدهنّ -على تميّزهن- تميّزاً، ومشهد تألقهنّ العجيب في أثوابهن المزركشة الناعمة وهنّ ينزلن الجبل أسراباً تحمل الرمّان والخوخ و"البلس" (التين اليمني)، بينما تهفّ روائحهنّ العطرة مع النسمات العذبة، طالما ألهم الشعراء، ومنهم الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان(١٧٧) حين قال:

مـا أحلـى بنـات الجبـل

حينما يطوفين المدينة بالثياب الدمسْ(١٧٨)

خـدود مثـل الـورد

ضوّ الفجر أرواها وأعطاها المشاقر حرسْ(١٧٩)

محوّطات الوجـوه البيـض

---

(١٧٧) عبدالله عبدالوهاب نعمان "الفضول": ١٩١٧-١٩٨٢م/١٣٣٥-١٤٠٢هـ شاعر أديب صحفي وسياسي يمني ولد في تعز، ابن الشهيد عبدالوهاب نعمان الذي كان أحد قادة الثورة في عام ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ، و كان وزيراً للاعلام في اواخر الستينيّات وأحد مؤسسي حزب الأحرار اليمنيين، وهو معروف ب"الفضول" نسبة إلى صحيفة "الفضول" التي أصدرها في عدن في الخميسنيات ضد الإمامة، كما أنه مؤلف كلمات النشيد الوطني اليمني الحالي.

(١٧٨) الدمس: نوع من القماش اللامع نسبة للدامسكو القماش الشامي.

(١٧٩) المشاقر: نبات الشقر الطيّب الرائحة، الذي تزيّن به نساء صبر جانبي الرأس.



بالكـاذي المسقّـى في بـرود الغلسْ (١٨٠)
يسقيـــك محلـــى ورودك وغـرســـك
واصبـر يرحـم أبـوه من غـــرس (١٨١)

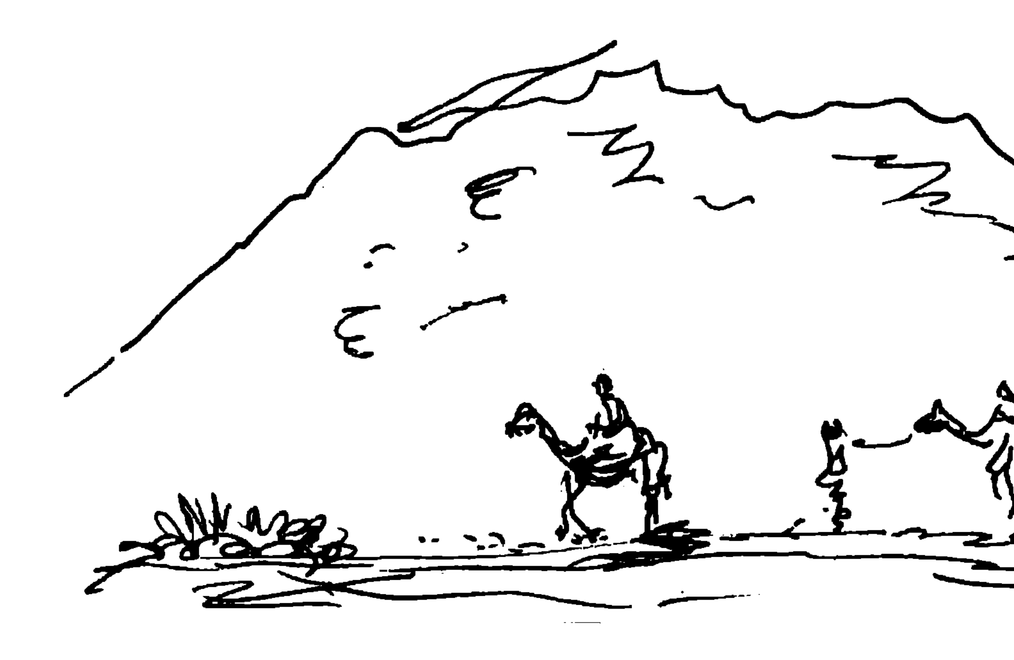
ولأنّ "ليس كلّ من حمل صواني صار حلواني" كما يقولون، لذلك لا يكفي أن تمتلك البخور العدنيّ أو اللحجيّ المشهور أو العود الهنديّ والمبخرة والمشجب(١٨٢)، عليك أوّلاً أنْ تكتشف أسراراً توارثها اليمنيّون عبر القرون، لتعرف "الوصفة" التي تحوّل المرأة شجرة فلّ وكادي، تترك

---

(١٨٠) الكاذي: نبات عطري ، برود الغلس: جو الفجر المنعش.

(١٨١) وا صبر: أي يا جبل صبر.

(١٨٢) نصب خشبي توضع تحته المبخرة وأعلاه الملابس لتبخيرها.



في كلّ مكان تعبره عبقاً يشي بأن نهر عطر يمنيّ قد مرّ من هنا.

وعِشْقُ اليمنيين "للعَرف" (الرائحة) الطيّب "تتنشقه" بوضوح في أغانيهم الشعبية، يغنّي الفنان حسن عطا[١٨٣]:

منقّـب صُدفـــة لاقيتـــه وكــم ياقلب حبّيته

ومن بين الخضيرة[١٨٤] عبــر جاني عبيره

(١٨٣) الأستاذ حسن عطا: ملحن ومغني يمني، من مواليد لحج، توفي عام ٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ، تربوي، من أوائل الفنانين الذين شدوا بالأناشيد الوطنية للثورة اليمنية منذ بداياتها في الستينيّات وثورة الجزائر والعدوان الثلاثي على مصر، غنّى للقضية القومية العربية بصوت مجلجل في زخم الثورة العربية ضد الاستعمار الفرنسي والبريطاني أغاني كثيرة، ومنها أغنية "ثرنا على الرجعية". وله أغانٍ عاطفيّة جميلة سجلها لإذاعة عدن في الخمسينيّات والستينيّات.

(١٨٤) الخضيرة، الأشجار الخضراء.

ويقول الأمير أحمد فضل القمندان في إحدى أغانيه:

يا فلّ يا كادي ألا يا موز و يا مشمش ويا عنبروت[(١٨٥)]

يا نجمي الصادي يا سمهريّ القامة أسيل الخدود

وينشد في أغنية أُخرى:

نسنس[(١٨٦)] نسيم الصبا بالمسك والعود والندّ

وريحة المسك ذكّرني شذى وردة الخد

الهديّة التقليديّة التي تجود بها المرأة اليمنيّة هي علبة بخور صغيرة تختصر داخلها سحر اليمن، وأجمل ما يأتيني من عدن عقود فلّها الكبير، مغلّفة بأوراق الكادي والمشموم (الخوع) والأزاب والحنّون والبعيتران، يُعطّر أريجها المكان أيّاماً طويلة.. تنشر عبقاً مذهلاً.. يكفي أن أُغمض عينيّ.. ليحملني إلى جنّة الطيوب والعطور.. إلى اليمن.

---

(١٨٥) العنبروت: الكمثرى.

(١٨٦) نسنس: هبّ. الند: نوع من البخور.





الدكتورة المهندسة

ريم فؤاد عبد الغني

- رئيس مركز تريم للعمارة والتراث، ومقرّه الرئيسي دمشق في سورية، ورئيس تحرير مجلة "تراث" الفصلية، التي تصدر عن هذا المركز، وتشرف على منتدى "أربعاء تريم الثقافي"، الذى يتم فى إطاره تنظيم سلسلة محاضرات شهرية لمتخصصين بالتراث والعمارة التقليدية وأعلام الثقافة والفكر، فى الأربعاء الأوّل من كل شهر، بدمشق، منذ عام ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ.

- عضو مؤسس للمركز العربي للدراسات الإستراتيجيّة، وعضو مجلس أمناء الجامعة الدوليّة الخاصّة للعلوم والتكنولوجيا، وترأس مكتب " الميسان " للاستشارات والدراسات الهندسيّة بسورية.

- حاصلة على البكالوريوس في الهندسة المعماريّة من جامعة حلب، ودبلوم في الهندسة المعماريّة من جامعة دمشق بدرجة امتياز، ودرجة الماجستير في الهندسة المعماريّة من جامعة دمشق بمرتبة شرف، عن «أسس تصميم المساجد القديمة في وادي حضرموت في اليمن»، حاصلة على درجة الدكتوراه في الحفاظ والترميم. وقامت بالتدريس في كلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق والجامعة الدوليّة للعلوم والتكنولوجيا.

- صدر لها كتاب "وهج روح" عن الهيئة العامّة السوريّة للكتاب، وكتاب "في ظلال بلقيس" وكتاب "في بلاد الدان" (قيد الطبع) ويتضمنان انطباعاتها حول رحلاتها الى اليمن، كما قامت بالمشاركة في إعداد كتاب "العمارة الطينية في سوريّة: إحدى عشر ألف سنة من عمارة الطين" الصادر عن المديريّة العامّة للآثار والمتاحف في سوريّة. وتقوم حالياً بإعداد كتاب حول "أسس تصميم المساجد القديمة في مدينة تريم بحضرموت" بعد قيامها بأعمال رفع ميداني رائدة في اليمن.

- أعدّت مجموعة من الأبحاث والدراسات، ونُشر لها العديد من المقالات، وكانت لها زاوايا ثابتة في عدة مجلات وصحف عربيّة، وألقت محاضرات حول قضايا العمارة والمرأة والتنمية البشريّة في جامعات ومؤسسات العلمية داخل سوريّة وخارجها.

- عضو في عدد من المنظمات والهيئات واللجان الوطنيّة والعربيّة والدوليّة، كلجنة حماية المدينة القديمة في محافظة دمشق، والهيئة الاستشاريّة لمجلّة "التراث الشعبي" السوريّة، و لجنة التراث في نقابة المهندسين السوريين، ولجنة التصاميم المعماريّة للمقر الجديد لمجلس الشعب السوري، ولجنة السجل الوطني للتراث بوزارة الثقافة السوريّة، واتحاد الآثاريين العرب، والاتحاد العربي للنشر الألكتروني، والهيئة الاستشاريّة في "تريم عاصمة الثقافة الاسلامية" (٢٠١٠م/١٤٣١هـ) بوزارة الثقافة اليمنيّة، وهيئة المعارف التراثيّة الإسلاميّة (MHAG)، ومؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة (FSTC)-بريطانيا، وهى رئيسة لجنة التراث المعماري والعمراني في مشروع توثيق "ذاكرة العالم العربي"، الذي تقوم به منظمة اليونسكو ومركز توثيق التراث الطبيعي والحضاري في مصر بالتعاون مع عدد من المنظمات الدولية.

- تشارك في الحياة العامّة من خلال عضويّة بعض المنظمات الأهليّة، فهي عضو مجلس إدارة فرع جمعيّة "العاديّات" بدمشق، وعضو مؤسس في جمعية "بنا" للمكفوفين، إضافة إلى تنظيم الدورات التدريبيّة والمحاضرات العامّة والمؤتمرات، وقد ترأست اللجنة التنظيميّة لمؤتمر التوثيق الألكتروني في دمشق مايو ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ، وتشارك كذلك فى المؤتمرات العربيّة والدوليّة، كما قامت بإعداد معارض متخصصة عرضت خلالها نماذج من التوثيق الذي قامت به عن العمارة التقليديّة في اليمن في معرض الكتاب في فرانكفورت عام ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ، وفي مكتبة الأسد بدمشق عام ٢٠٠٥م/١٤٢٦هـ، وفي مدينة المعارض بدمشق ٢٠٠٦م/١٤٢٧هـ.

سورية، دمشق ص. ب ٣٦٦٦٦
فاكس:٦٦٢٧١٧٥ - ٣٩٢١٤٤٥ ١١ (٠٠٩٦٣)
Email : tarim.damascus@gmail .com

صدر للمؤلفة عن

وزارة الثقافة السورية

وهجُ روحٍ..

أتُراه كان حلماً خفياً... متوارياً في عقلي الباطن... أن أصير يوماً كلمات يقرؤها الآخرون؟...

لم أكتبَ أبداً كي أُقرأ.... ولم تكن الكتابة بالنسبة لي إلا ملاذاً أسكبُ فيه - دون خوفٍ أو خجل - جداول مشاعري الدافقة.

و... اتّسع عالمي وتلألأت ألوانه بريقاً وبهاء... لم أعدْ أكتب على استحياء... انطلقتُ فرساً جامحاً أصهل بحريّة في براري غربتي يوماً بعد يوم، ويزداد تفاؤلي، فأتحدّى إيقاع أيامي المرهق، وأختلق واحة بين زحام الأوقات؛ لأكتب ... أتنفّس من مسام الكلمات التي تتناغم كافّة حواسي بصياغتها، أعيش في كل مقال أكتبه تجربة رائعة، تصهر معاناتها مساحات اليباس فى داخلي، تتجمّع حروفها ندىً يبثّ الإخضرار في آفاق طالما أرهبتني وحشتها وغموضها، فأحتويها كلّها بين ذراعيّ...

ريم



كتب للمؤلفة قيد الطبع
زهرة البركان
"واحة محبّة"... هكذا أجبت من سألني "كيف وجدت عدن؟"...
أنّى التفتُ رأيتُ العيون الطيّبة، تغمرني بمحبّتها...
دفق محبّة عارم ينضح من كلّ قسماتها، أستنشقه في هوائها العذب... في امتزاج الأخضر بالأزرق في بحرها الواسع... أتتبعه في الخطوط البسيطة المريحة لعمارتها وأحيائها وملامح أهلها... في رائحة فلّها... في كلّ ما فيها.
منذ بدأت الطائرة تحوم فوقها، أخذ قلبي يدقّ بشدّة...
من النافذة الدائرية تراءت عدن حلماً...
أحياء بيض متناثرة على سفوح جبال
شاطئ المحيط الهندي...
وشبه جزيرة تبدو
ريم عبد الغني
زهرة البركان
حضرموت
حضارة لا تموت
الآن تبدو حلماً... والبارحة كانت رحلة حقيقيّة... في عالم خرافي... حضرموت في البال... رائحتها مازالت في أنفي... ورمالها ما زالت على أطراف أثوابي الطويلة ... الوجوه الطيّبة... النظرات الملأى بالفضول والدهشة... الآن... وبعد أن هدأت مجدداً في ركني البعيد، أمسك قلمي... أفتح بحرص باب الذاكرة، لأخرج منه أيام حضرموت التي لا تنسى... يوماً بيوم... وساعة بساعة... بل ودقيقة بأخرى.
أعصر الذاكرة كما كنت أعصر الزمن في سباقي المجنون نحو لحظة إقلاع طائرتي المغادرة... كنت أريد أن أرى كل شيء، أن أحتضنها وأبتلعها... وألتحم بها، أن أشعر بها...
وهذه السهول الخضراء...
ريم عبد الغني
حضرموت... حضارة لا تموت





هل تؤمنون بـ"الحب من أول نظرة"؟...
أنا أؤمن به، فعلاقتي باليمن... كانت "حباً من أول زيارة"...
و"أول زيارة" كانت عام 1997م، سبقتها -فعلياً- سنوات من الاستكشاف عن بعد...
من يومها غزت حياتي.. اختلطت بدمي.. أسبغت لونها على كتاباتي.. تربعت فوق اهتماماتي.. لتغدو هاجساً.. يتجاوز صلة القُربى.. اختياراً واعياً استفتيت فيه حواسّي كافة.
ولأنني "اخترت" أن أحبها صارت قضيتي... وفرق بين ما نتبناه بحكم العادة وبين ما نؤمن به عن قناعةٍ وبقرارٍ مدروس.
وأذعنت لقدري منساقة وراء شغف جامح.. قادني في مجاهلها الساحرة.
شغلتني... شغلتني حقاً سنوات طويلة.
حتى متى ستبقى مستحوذة عليّ!... لست أدري.. ما أعرفه أنها تحتلني ذلك الاحتلال المحبب الذي لا يريد سجينه انعتاقاً منه.

هذه "أطيافٌ وصور" من "السعيدة".. من اليمن... حيث كانت لي في "ظلال بلقيس".. أيام لا تُنسى... وهاكم حكاياتها...

